مدن ومعالم (١)

الطائف

ودور قبيلة ثقيف من العصر الجاهلي الأخير حتى قيام الدولة الأموية

الدكتور

عبد الجبار منسي العبيدي

الطبعة الأولى

شوال ١٤٠٢هـ ـ اغسطس ١٩٨٢م

الطبعة الثانية

جمادى الأول ١٤٠٣هـ ـ فبراير ١٩٨٣م

منشورات

دار الرفاعي

للنشر والطباعة والتوزيع

الرياض ص.ب: ١٥٩٠

ت: ٤٧٧٧٢٦٩

الغلاف من إعداد الفنان : محسن منصور



كلمة الناشر

بحمد الله وتوفيقه، تبدأ (دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع) إصدار العدد الأول من سلسلة جديدة تزمع موالاة اصدارها، إن شاء الله تعالى، من سلاسلها التى تقدمها لجمهورها فى المملكة العربية السعودية، وفى العالمين العربي والإسلامي.

هذه السلسلة الجديدة، هي سلسلة (مدن ومعالم) تهدف الدار من وراء إصدارها، أن تقدم لقرائها، تاريخا وتعريفاً، للبلدان، والمعالم، داخل المملكة العربية السعودية، لتشكل هذه السلسلة إن شاء الله، نواة دائرة معارف، تخدم هذه المنطقة من العالم.

ولا تلتزم الدار فى اصداراتها لهذه السلسلة ترتيبا معيناً للمدن والمعالم، من حيث القداسة أو الأهمية أو القدم أو الضخامة، ولكنها تقدم ما يتهيأ لها من مادة هذه الاصدارات.

وان من نعم الله عز وجل، على هذه المملكة الناهضة، أنها ولله الحمد تزدهر، وتكبر مدنها وتكثر، وتنعش قراها ومعالمها، ذلك فى ظل قائدها صاحب الجلالة الملك (فهد بن عبد العزيز) ادام الله وجوده، و برعاية ولي عهده الأمين صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز، حي الله مجده وحفظه.

مدير دار الرفاعي
للنشر والطباعة والتوزيع

عبد العزيز أحمد الرفاعى

الرياض فى ١٤٠٢/٩/١ هـ

مقدمة

جمّة هي الأسباب التى دفعتنى إلى الكتابة فى هذا الموضوع «مدينة الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية من العصر الجاهلي الأخير حتى قيام الدولة الأموية»، ولعلّ أهمها وأكثرها الحاحا هو الرغبة فى التعرّف إلى تاريخ هذه المدينة باعتبارها ثالثة مدن الحجاز الكبرى المهمة بعد مكّة والمدينة. وكذلك محاولة ابراز الدور التاريخي الفعّال الذى لعبه أهلها على مسرح الحياة العامة آنذاك فى النواحي السياسيّة والدينيّة والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية قبل الإسلام، وحتى قيام الدولة الأموية.

غير أن الذى شجّعنى أكثر.. بل والذى زاد من اصرارى على التعلّق بالموضوع ومحاولة نبش ما خفي من آثاره فى ثنايا المخطوطات وبطون المصادر القديمة، هو ان دراسة الطائف وعلاقة سكانها بمن جاورهم من القبائل العربية الأخرى والمدن والمناطق المحيطة ومدى أثرهم فى الحياة العامة فى تلك الميادين المتعددة، كل هذه الأمور لم تحظ من جانب الباحثين والدارسين لتاريخ شبه الجزيرة العربية عموماً واقليم الحجاز خصوصاً بالعناية والاهتمام ذاتها اللذين حظي بهما تاريخ كل من مكة والمدينة.

ومن هنا تبدو دراسة هذا الموضوع أساسية من وجهة نظر التاريخ الإسلامي، وخصوصاً إذا تذكرنا قلة المتخصصين والباحثين فيه، وأن دروب هذا البحث لم تطأها سوى أقدام قلّة الدارسين، أن لم تكن غير موطوءة بعد بأقدام حقيقية على الاطلاق فى بعض نواحيها المهمة.

فى دراستى هذه ركزّت على قبيلة ثقيف العربية التى شكلت محور هذا البحث وقد تناولت دورها فى العصر الجاهلي الأخير حتى قيام الدولة الأموية، باعتبار أن هذه القبيلة تمثّل واحدا من تلك التجمعات القبلية الكبيرة التى اشتد التناقض والصراع فيا بينها. كما أني بينت أهمية مدينة هذه القبيلة كمركز من

مراكز الاستيطان نتيجة عوامل كثيرة ومتعددة، منها جودة مناخها ووفرة مياهها وخصوبة أرضها.. ممّا ساعد على قيام ملكيات زراعية واسعة فيها، اضافة إلى أهمية موقعها وإلى وجود ثروتي الصناعة والتجارة فيها. كل هذه جعلت المدينة مركزاً مهمّا فى نواحيها المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والحربية.

إن التاريخ القديم للطائف يكتنفه الغموض عموماً..ويكاد يكون هذا الغموض عميقا وشاملا فى بعض نواحيه. والاستدلال عليه يفرض على الباحث التعامل مع الروايات المتناثرة والمتناقضة فى أغلب الأحيان..، بعد تمحيصها طبعا وتحكيم المنطق العلمي فيها، مما يتطلب أقصى غايات الجهد. فنحن لا نملك وثائق تاريخية كافية أو دقيقة لتاريخ الطائف، مما يجعل الخوض فيه دائما عسيرا ومضنيا. ومحاولة السعي وراء الإطلالة العلمية على تاريخ هذه المدينة وسكانها تصطدم دائما بعدم توفر المصادر التاريخية التى تروى ظمأ الباحث..، وهي أن توفرت فليست أكثر من روايات الاخباريين التى اقتصرت على العصر الجاهلي الأخير والتى يشوبها الغموض والابهام، على الرغم من تعرّضها للطائف ونفوذها الديني والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والحربي، وعلاقتها بالمدن المجاورة وباليمن والعالم الخارجي وقتذاك.

ومن هنا تبرز أهمية الدراسة الهادفة المركزة التى تستطيع كشف اللثام عن معلومات خبيئة قد تسهم فى إيضاح الرؤية العلمية وتنير متاهات طويلة فى تاريخ هذه المدينة وتاريخ سكانها.

وقبل اقدامى على الكتابة فى هذا الموضوع، قمت بدراسة استطلاعية لتشخيص أبعاده ومجالاته، وقد بذلت ما وسعنى من جهد مثابر فى البحث والتنقيب بين ثنايا المصادر التاريخية القديمة المختلفة وبعض المخطوطات التى فى متناول يدى والتى أمكننى الحصول عليها، لكي أقدم هذا البحث المتواضع الذى آمل أن يكون اسهامة نافعة تساعد على إبراز تاريخ وأهمية هذه المدينة وحرص أهلها من الثقفيين ، بصورة خاصة، على أن يكونوا ندّا قويّا ومساويا لقريش صاحبة اليد العليا فى التجارة قبل الإسلام. كما توضح أيضا كيف أن الثقفيين بعد اسلامهم

ودخول مدينتهم فى حوزة الدولة الإسلامية، صاروا من أشد القبائل العربية حرصا على استمرار وانتشار هذا الدين الحنيف والذود عنه فى شتى المحن التى تعرّض لها ولا سيا فى محنة الردة.

لقد حاولت جهدى أن أضع هذه الرسالة فى شكل بحث علمي شامل للمدينة وسكانها..، وهي قد اشتملت على ثلاثة أبواب رئيسية تضم عشرة فصول وتشكل وحدة عضوية متكاملة.

يتناول الباب الأول مدينة الطائف فى العصر الجاهلي..، ويقع فى أربعة فصول، يتحدّث الفصل الأول منها عن سكان الطائف وعلاقاتهم الاجتماعية. ويناقش الفصل الثاني الأحوال الاقتصادية فى الطائف وعلاقاتهم الاقتصادية بالمدن الأخرى، فى حين يتناول الفصل الثالث علاقة ثقيف السياسية بالمدن والقبائل المختلفة، أما الفصل الرابع فيتعرّض لعلاقة ثقيف الخارجية مع الدول القائمة على أطراف شبه الجزيرة العربية.

أما الباب الثاني فيتناول الطائف فى عهد الرسول، ويقع فى أربعة فصول يناقش الفصل الأول منها ديانة ثقيف وارتباطها بالنشاط الديني العام للقبائل العربية فى موسم الحج. أما الفصل الثاني فانه يلقى ضوءا على نظرة ثقيف للدعوة الإسلامية ومحاولة النبي صلى الله عليه وسلم ضمّها إلى جانبه كمدينة منافسة لمكّة قبل الهجرة الكبرى. والفصل الثالث يتناول موقف أهل الطائف من الصراع القائم بين مكّة والمدينة بعد الهجرة. ثم يأتى الفصل الرابع ليبيّن دخول ثقيف فى الإسلام.

أما الباب الثالث، فيتناول الطائف فى عصر الراشدين ويقع فى فصلين أساسيّين. يناقش الفصل الأول منها دور أهل الطائف فى عهد الخلفاء الراشدين ومشاركتهم فى حركتي الردّة والفتوح الكبرى. أما الفصل الثاني فيبيّن موقف ثقيف من الصراع على السلطة حتى قيام الدولة الأمويّة وبروز العصبيّة الثقفية كبديل للعصبيّة القرشية.

بعد هذا العرض السريع الموجز للخطوط العريضة للبحث، لا يفوتنى أن

أتوجه بالشكر العميق للأستاذ الدكتور محمد توفيق بلبع الذى كان له فضل الإشراف على هذه الرسالة التى هي فى الحقيقة ثمرة طيبّة أعتزّ بها من ثمار توجيهاته لى وأخذه بيدي وسط دروب هذا البحث الشاقة. أن نصائحه لى، منذ أولى خطوات هذه الرسالة حتى نهايتها كبيرة كبيرة، بل هى أكبر من أن توفيها كلمات شكر.

وأتوجه بالشكر أيضا، للأستاذ الدكتور حسين مؤنس رئيس قسم التاريخ الذى كان لعلمه وفضله وآرائه السديدة فى نصحى وارشادى خير عون لى على انجاز رسالتى هذه.

و يسرّنى أن أقدم كذلك شكرى الجزيل للأستاذ الدكتور محمد عواد حسين رئيس قسم التاريخ الأسبق الذى أعاننى وساعدنى فى تسجيل هذا البحث، وللأستاذ الدكتور أحمد إبراهيم الشريف الذى أسهم إسهاماً صادقاً فى توجيهى ومساعدتى أثناء اعداد هذا البحث، فله منى خالص الشكر ووافر التقدير، وللأستاذ الدكتور شاكر مصطفى الذى قدمّ لى العون وتكرّم باعارتى بعض المصادر النادرة.

وأخيراً، أقدم شكرى الجزيل لكل من قدّم لنا يد المساعدة فى سبيل انجاز هذا البحث. كما أشكر جامعة الكويت التى أتاحت لى فرصة الدراسة فيها.

لهؤلاء جميعا، أكرّر شكرى وعرفانى بالجميل، هذا وأرجو أن يكون هذا البحث فى صورته النهائية هذه إسهاماً علمياً جاداً قد حقق أهدافه المرجوّة.

والله ولي التوفيق

عبد الجبار العبيدي

الطائف فى العصر الجاهلي

مقدمة جغرافية عامة عن الطائف وأهمية موقعها

كلمة عامة عن شبه الجزيرة العربية :

عرفت جزيرة العرب بهذا الاسم بسبب احاطة الأنهار والبحار بها من جميع جهاتها، وعلى ذلك فحدودها من الشرق بحر عمان وخليج البصرة ونهر الفرات، ومن الجنوب بحر العرب، ومن الغرب البحر الأحمر وبرزخ السويس، ومن الشمال البحر المتوسط(١). أما إذا أخرجنا بادية الشام منها فيكون حدّها الشمالي العراق وشرق الأردن فيطلق حينئذ عليها شبه جزيرة، وهي تحتل موقعا ممتازاً بين قارات العالم الثلاث القديمة، فهى تقع فى الركن الجنوبي الغربي من قارّة آسيا(٢). وجزيرة العرب فى مجموعها صحراء تشبه الصحارى الأخرى التى لا زرع فيها ولا ماء، فهى مختلفة الأجزاء، بعضها مغطى بالكثبان الرملية وبعضها الآخر بالجبال والآكام، كما أن أجزاء منها غور منخفضة وأجزاء أخرى نجد مرتفعة(٣).

ونتيجة لهذا الاختلاف فى أجزائها المتعددة، قسمها الجغرافيون القدامى إلى خمسة أقسام هي: تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن(٤). ولقد زاد عليها الاصطخري وابن حوقل ثلاثة أقاليم أخرى هي: بادية العراق وبادية الجزيرة وبادية الشام(٥). ولا بدّ لنا من كلمة عامة للتعريف بأقسامها الخمسة، مركزين

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان مجلد ٢، ص ١٣٧. طبعة بيروت
البكري : معجم ماستعجم جـ ١، ص ٦ — ٧ تحقيق مصطفى السقا.
أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص ٤، طبعة دار الفكر.

(٢) عمر رضا كحالة: جغرافية شبه الجزيرة العربية، ص ٦، طبعة الترقي بدمشق.
أحمد الشريف: مكة والمدينة ص ٣ — ٤.

(٣) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٢، ص ١٣٧ — ١٣٨.

(٤) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٤٦ — ٤٧، تحقيق محمد النجدى، ١٩٥٣.
ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٢، ص ١٣٧ — ١٣٨.

(٥) أحمد الشريف : مكة والمدينة ص ١١ نقلا عن الاصطخري — المسالك والممالك ص ٢٠ — ٢١.
القلقشندي : صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٤٥.

بحثنا على اقليم الحجاز، باعتبار مدينة الطائف احدى مدنه المهمة، وهي موضوع بحثنا.

١ – تهامـــة :

سمّيت بهذا الاسم لشدّة حرّها وركود ريحها، وهي الأرض المنخفضة الممتدة بمحاذاة ساحل البحر من ينبع إلى نجران فى اليمن، وتسمّى الغور أيضاً، لانخفاض أرضها عن أرض نجد(١).

٢ ــ نجـد :

هـو اسم الأرض العـريضة التى أعلاها تهامة واليمن وأسفلها العراق والشام، ويمتد بين اليمن جنوبا وبادية العراق شمالاً، وسمّي نجدا لارتفاع أرضه(٢).

٣ – العـــروض :

أطلق هذا المصطلح على اليمامة وعمان والبحرين، ويعتقد أن مصدر التسمية اعتراضها بين الحجاز والبحرين(٣). ويذكر ابن منظور أن العروض مكة والمدينة وما حولها(٤). ويقول ابن الكلبي: بلاد اليمامة والبحرين وما والاها هي العروض ومنها نجد، والعروض يجمع ذلك كله(٥).

إن مصطلح العروض يبدو لنا غامضا فى الروايات، ولا يعطينا الجغرافيون

---

(١) ابن منظور : لسان العرب — كلمة تهم.
ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٢، ص ١٣٧.
البكرى : معجم ما استعجم، ج ١، ص ٣٢٢، تحقيق السقا.

(٢) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ٢٦١ وما بعدها.
الهمداني : الصفة، ص ٥٠، تحقيق النجدي.

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٥، ص ٨٥.

(٤) ابن منظور : لسان العرب — كلمة عرض، ج ٢، ص ٧٣٩.

(٥) الهمداني : الصفة، ص ٤٨.
ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ١١٢.

حدّا واضحا لهذه المنطقة. وأغلب الظن أنها تعبير عن وضعية إدارية أكثر من كونها تعبيرا جغرافيا(١).

٤ ــ اليمن :

عرفت بهذا الاسم لكثرة أشجارها وثمارها وزرعها، وتمتد من نجد شمالا إلى البحر العربي جنوبا (المحيط الهندي)، والبحر الأحمر غرباً، ويتّصل به من الشرق حضرموت وعمان، وقد شهدت هذه البلاد فى الأزمنة القديمة حروبا داخلية وفتنا أهلية كثيرة، ومن ممالكها القديمة معين وسبأ وحمير، وكلها دول عربية تلا بعضها بعضا(٢).

٥ ــ الحجاز :

سمّي حجازا لأنه يحجز بين تهامة ونجد(٣). وهو اقليم الجبال الممتدة من خليج العقبة (مدينة أيلة) حتى منطقة عسير جنوباً، ويحدّه من الغرب منطقة تهامة، ومن الشرق جبال السراة، وطوله من الشمال إلى الجنوب سبعمائة ميل وعرضه من الشرق إلى الغرب ثلثمائة وخمسون ميلا(٤). وأهم مدنه مكة والمدينة والطائف وخيبر ووادى القرى، وقد عدّ بعض الجغرافيين تبوك وفلسطين من أرض الحجاز(٥). وتعتبر مكة قاعدة الاقليم التجارية كانت تقام للعرب حولها أسواق كل سنة(٦). وبها أشجار المقل وهي شجرة النارجيل وشجرة المساويك وبها جبل الحديد(٧).

---

(١) نزار الحديثي : اليمامة. رسالة ماجستير ــ جامعة بغداد ١٩٧١.

(٢) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ٤٤٧ ــ ٤٤٨.
الهمداني : الصفة، ص ٤٨.

(٣) الأصفهاني : بلاد العرب، ص ١٤، منشورات دار اليمامة ــ الرياض، ١٣٨٨هـ.
عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ٤٧.

(٤) ابن منظور : لسان العرب، كلمة حجز، مجلد ١، ص ٥٧٤.
الهمداني : الصفة، ص ٤٨ ــ ٥٠.
حافظ وهبة : الرحلة، ص ١٤.
أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٣.

(٥) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٢، ص ٢١٩.

(٦) القزويني : آثار البلاد، ص ٨٤.

(٧) نفس المصدر والصفحة.

أصل التسمية لمدينة الطـائف:

لقد سمّيت الطائف قديما: وَجّ نسبة إلى وج بن عبد الحي من العماليق(١). وفى كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لثقيف يوم أسلمت: أن ثقيفا أحق الناس بوج وان واديهم حرام محرّم لله كله، عضاه وصيده(٢). وفى الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : آخر وطأة لله يوم وج، وأراد بالوطأة الغزوة، و يبدو أن «وج» أخو «أجا» الذى سمي به جبل طي وهو من الأمم الخالية(٣). وتطلق «وج» على أسوار الطائف أو على وادي الطائف أو على صحراء الطائف(٤). أو على المدينة كلها كما ورد فى كتاب رسول الله لثقيف. و يظهر أن هذه المدينة «وج» قديمة وقد عثر فى أراضيها على كتابات ثمودية وكذلك فى قر ية الوجه. ولهذه الكتابات على قلتها مكانة كبيرة فى نظر العلم، لأنها تدل على وجود قوم ثمود فى هذه الأماكن منذ القدم، وأن هذه المنطقة وهي واد مازال معروفاً بهذا الاسم(٥). وأن وادي العرج يقع أسفل وادي وج ثم يجتمع مع أودية أخرى و يفيض فى صحراء ركبة(٦). وقد ظل اسم وج يطلق على موضع فى الطائف يقع على الوادى يقال له «يرد» فى العصر العباسي إذ أقامت فيه زبيدة زوجة الخليفة العبّاسي هارون الرشيد حائطين يقال لهما وج(٧). وتجرى فى وادى وج مياه المدابغ التى يدبغ فيها الأدم(٨). و يصب فيه من الشرق قبل أن يدفع فى العرج وادي

---

(١) ياقوت : معجم البلدان مجلد ٥، ص ٣٦١.
العجيمي : اهداء اللطائف، ص ٣٩، دار ثقيف للنشر والتأليف، الطائف١٤٠٠هـ، تحقيق يحيى محمود ساعاتي.

(٢) أبو عبيد : كتاب الأموال،مجلد ١، ص ١٩٣ — ١٩٤، المطبعة التجار ية الكبرى، ١٣٥٣هـ

(٣) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩.

(٤) العجيمي : اهداء اللطائف، ورقة رقم ٤.

(٥) جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ١، ص ١٣٤.

(٦) الأصفهاني : بلاد العرب، ص ٢٩، تحقيق حمد الجاسر والعلي، ١٩٦٨.

(٧) الهمداني : الصفة، ص ١٢٠، تحقيق النجدي.

(٨) المقدسي : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ص ٧٩.
الهمداني : الصفة، ص ١٢٠

سيسد، وهو واد يتصل من الجنوب فى جبال تسمّى باسمه، وبه سد مشهور من سدود الطائف القديمة(١).

لقد لعبت الأساطير والروايات دورا بارزا فى التسمية، ولعل الروايات أقرب إلى الأساطير فى حقيقة التسمية، ومن هذه الروايات أن تسميتها «وج» نسبة إلى قسي (ثقيف) وزواجه من ابنة عامر بن الظرب العدواني، فقد سكن وج وبنى المكان فسميت وج بالطائف(٢).

وهناك رواية أخرى ذكرتها المصادر تقول: إن منطقة الطائف كانت لبنى عامر فسمحت لثقيف نتيجة وفاق بينهم بالعيش فيها، على أن تزرعها ثقيف ويشاركها بنو عامر بنصف محصولها، فبقيت ثقيف زمنا حتى كثرت فحصنوها وبنوا عليها سورا يطيف بها فسميت بالطائف، ثم لما اشتدوا بكثرتهم تمرّدوا على بنى عامر، فقاتلهم بنو عامر عليها، إلا أنهم فشلوا فى استردادها منهم بسبب متانة سورها وأمتياز أهلها بالشجاعة والدهاء والحكمة، ولقد كان للعرب حكام ترجع اليها فى أمورها وتتحاكم فى منافراتها ومواريثها فكانوا يحكمون أهل الشرف والصدق والأمانة والرئاسة والسن والمجد والتجربة، وكان غيلان بن سلمة بن متعب الثقفي واحدا منهم(٣).

ورواية ثالثة تقول: إن صاحب فكرة الحائط هو الدمون بن عبد الملك وهو رجل من الصدف بحضرموت قتل ابن عمه وفرّ هاربا إلى وج وكان معه مال كثير، وفى وادى وج قابل مسعود بن متعب الثقفي سيد ثقيف وقتئذ، فعرض عليه بناء حائط يطوف بوج كلها وذلك مقابل حماية ثقيف له، ومحالفته وتزويجه امرأة من نسائهم(٤).

---

(١) عبدالله بن خميس : المجاز بين اليمامة والحجاز، ص ٢٦٥.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية : مجلد ٦، ص ٢٠٥، ترجمة عبد الحميد يونس.
ابن المجاور : صفة بلاد اليمن (تاريخ المستبصر) ص ١٩، طبعة ليدن، ١٩٥١.

(٣) اليعقوبي : تاريخ، مجلد ١، ص ٢٥٨، طبعة بيروت، ١٩٦٠.
ابن الأثير : الكامل، مجلد ١، ص ٦٨٤ وما بعدها.

(٤) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩.

ورواية تروى عن ابن عبّاس أن الطائف سمّيت بهذا الاسم، باعتبارها قطعة من أرض الشام نقلت بشجرها ومائها، وبعد أن طافت بالبيت استقرت فى الطائف، تلبية لدعوة إبراهيم عليه السلام الذى أسكن أهله بواد غير ذى زرع، فدعا الله أن يرزق أهلها من الثمرات ليأكلوا منها، فكانت تلك القطعة من أرض الشام التى عرفت بالطائف لطوافها بالبيت قبل أن تستقر بموقعها الحالي، ويستدلون على ذلك بخصوبة أرضها واختلافها عن غيرها من بقاع الديار الحجازية لطيب هوائها وعذوبة مائها وجمال نضرتها وحسن خضرتها(١).

إلا أن هذه الرواية لا يمكن أن تكون مقبولة علميا أو بعبارة أخرى أنها وهم لا يمت إلى الحقيقة بصلة، ولا يتفق مع النظرة الواقعية للعلم. وإن كانت مقبولة خيالا وشعرا، كما يقول المؤرخ الفرنسي سيديو من أن الطائف بستان مكة(٢).

يظهر لنا مما سبق أن كلمة الطائف جاءت تسمية للمدينة بعد وج، ووج هو الاسم القديم لها.

أما كلمة الطائف لغةً فتعنى العاس أو العسس الذى يدور حول البيوت يحرسها، وخصوصاً فى الليل، فالطائف لا يكون إلا ليلا ولا يكون نهارا(٣). ولقد سميت الطائف بهذا الاسم نسبة لحائطها المبني حولها المحدق بها، ومصداق ذلك قول الشاعر أمية بن أبى الصلت الثقفي(٤).

نحن بنينا حائطا حصينا يقارع الأبطال عن بنينا

---

(١) ابن عراق : نشر اللطائف — ورقة ٤ — مكتبة الأوقاف — بغداد.
الأزرقى : أخبار مكة، ج ١، ص ٧٧، طبعتا بيروت ومكة.

(٢) سيديو : تاريخ العرب العام، ص ٢٢، ترجمة عادل زعيتر، طبعة الحلبي ١٩٦٩.
الزركلي : ما رأيت وما سمعت، ص ٤٤.

(٣) ابن منظور : لسان العرب، ج ٢، ص ٦٢٧.
المعجم الوسيط : ج ٢، ص ٥٧٦ — ٥٧٧.
ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩.
البكري : معجم ما استعجم، ج ٣، ص ٨٨٧، تحقيق مصطفى السقا.

ويمكن القول أن مدينة الطائف سميت بهذا الاسم من الطواف حول البيت و يقصدون به بيت اللات، وهو معبودهم الرئيسي فى الطائف، وان التسمية جاءت من أهمية المدينة الدينية، باعتبارها المركز الديني الثاني فى الحجاز بعد مكة، فقد كان اللات أكبر معبودات الثقفيين تقديسا، وكانوا يعظمونه و يطوفون حوله(١). ومن هنا جاءت كلمة الطواف تعنى العرض أو الاستعراض الديني والدوران حول البيت الحرام(٢).

أودية الطائف:

حول الطائف أودية شهيرة ومتعددة حتى أن المدينة سمّيت باسمها، ومن هذه الأود ية:

١ — وادى وج :

أشهر أودية الطائف وأعظمها، يقع غرب الطائف، وفيه الكثير من القرى والمزارع والبساتين والآبار، ومن مناطقه المثناة فيها مزارع ومياه(٣). و يعتبر وادى جلدان من أوديته الشرقية(٤). وقد أشرنا إليه فى أصل التسمية، انظر ص (٤).

٢ — وادى ليّـــة :

بكسر أوله وتشديد ثانيه. يقع فى شرقي الطائف، وعلى مقربة من المدينة(٥). وتنحدر إليه من قم جبال السراوات وهي جبال شاهقة خضراء، وفى منطقة ليّة البساتين والمناظر الجميلة ومياهه تصب فى منطقة يقال لها «المختلطة» ومن ثمّ يلتقى بوادى «نخب»(٦). و يكوّنان واديا واحدا، وكان هذا الوادي قديما مشهورا

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد ١، ص ٨٥، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
ابن الكلبي : كتاب الأصنام، ص ١٦ — ١٧.
جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ٥، ص ٩١ — ٩٣.

(٢) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩.

(٣) نفس المصدر والصفحة.
عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جز يرة العرب، ص ١٩٠.

(٤) الهمداني : الصفة، ص ١٢١.

(٥) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ٣٠.

(٦) نخب : واد بالطائف. ياقوت : معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٧٥.

بالحيوانات وأشهرها الأسد، فكان يقال أسد ليّة(١). وقد سكن هذا الوادى بنو نصر من هوزان وفيه يكثر الرمّان والعنب اللذيذ الطعم(٢). وفيه كذلك يكثر شجر العرعر والعفص(٣).

٣ — وادى العـــــرج :

ما يزال معروفا بهذا الاسم، و يقع أسفل وادى وج(٤) وفيه قرية جامعة فى واد من نواحي الطائف واليها ينسب الشاعر العرجي، وهي أول تهامة و بينها و بين المدينة ثمانية وسبعون ميلا(٥).

٤ — وادى جفـــن :

واد يقع بين الطائف ومعدن البرام، وهو لثقيف. وتشارك قريش وثقيف فى سكنى معدن البرام(٦)، هذا الوادى الذى قال فيه الشاعر الثقفي(٧).

طربت وهاجتك المنازل من جفن   إلا ربما يعتادك الشوق بالحزن

٥ — وادى الشريق :

يقع فى جنوب الطائف، وكان يعود لبنى أمية فى قريش(٨).

---

(١) عبد الله خميس : المجاز بين اليمامة والحجاز، ص ٢٦٥.

(٢) عبد المنعم الغلاس : جغرافية جزيرة العرب، ص ١٨، طبعة البصرى، ١٩٦٢.

(٣) العرعر : شجر حراجي معروف منذ القدم بخشبه الصلب، وكثيرا ما يرعاه الماعز.
أما العفص فهو شجر حراجي أيضا معروف بفوائده الطبية.
فيليب حتى : تاريخ العرب المطول، ج ١، ص ١٢٢.

(٤) الأصفهاني : بلاد العرب، ص ٢٩، مخطوط باليد، نقل الشيخ محمد سعيد، مكتبة أوقاف بغداد.

(٥) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩٨ — ٩٩، طبعة بيروت.

(٦) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص ١٢١، تحقيق النجدي، ١٩٥٣.

(٧) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٢، ص ١٤٧.

(٨) الهمداني : الصفة، ص ١٢١.

٦ ـ وادى نعمــان :

وهو واد يصب فى وادى ودّان بين مكة والطائف، وهو على ليلتين من عرفات، ومنه يأتى العسل إلى مكة(١).

٧ ـ وادى بسل :

و يقال له أيضا نسل، وادٍ معروف، وفيه سكان كثيرون(٢). وهو أحد أودية الطائف، وجلدان يقع بينه وبين وادى ليّة و يسكنه بنو نصر بن معاو ية(٣).

٨ ـ وادى لقــيم :

واد طويل وخصيب، أوله مزارع الشدايين بعد المليساء، وآخره قر ية الصفاة(٤). وفيه مزارع الكروم والرمان وفواكه مختلفة أخرى، وفى المر يسية بئر وافرة المياه(٥).

٩ ـ وادى الجفيجف :

يقع فى الشمال الشرقي من الطائف، وهو بين الطائف والمدينة، و يقع بعده وادى الخرار وهو خصيب كثير العيون والينابيع، وأرضه ملأى بالماء الراكد من السيول، وتكثر فيه البساتين والفواكه المتعددة، وتتعدد فيها خصوصاً أشجار النبق وأنواع الحبوب المختلفة(٦).

١٠ ـ وادى الشديق :

هو أحد أودية الطائف(٧).

(١) ياقوت :معجم البلدان، مجلد ٥، ص ٢٩٣.
الهمداني : الصفة، ص ١٢١.
(٢) الأصفهاني : بلاد العرب، ص ٣٠. تحقيق حمد الجاسر وصالح الكعكي، ١٩٦٨م.
(٣) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ١، ص ٤٢٣.
(٤) عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جز يرة العرب، ص ١٩٣
(٥) الزركلي : ما رأيت وما سمعت، ص ٩٥ ـ ٩٧.
(٦) الزركلي : ما رأيت وما سمعت، ص ٩٨. والعجيمي ص ٨٨، تحقيق يحيى ساعاتي.
(٧) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٣، ص ٣٢٩.

وتحف بالطائف أودية أخرى تسيل فيها المياه فى موسم الأمطار وحولها عيون الماء وفيها آبار كثيرة، وكانت جبالها مكسوّة بالأشجار والزروع الكثيرة(١).

قرى الطائف

١ ـ الهدة :

وهي أشهر قرى الطائف، وتقع بعد عرفات فى قمة جبل كراء الذى يقع بين مكة والطائف(٢). والهدة قراها سبع على عدد القبائل النازلة فيها وتسمّى بأسماء قبائلها وهي: القشامرة، بنو صخر، القطران، الأغرية، الأخولة، اللمضة، والبني، وترتفع كثيرا عن سطح البحر، وهي معتدلة المناخ، ومن مزروعاتها التين والرمان والسفرجل واللوز، وفيها كثير من الورود تستخرج مياهه على طريقة التقطير وأمطارها قليلة. أما مياهها فعذبة باردة أغلب أيام السنة(٣). وهي تنافس الطائف من حيث جودة المناخ وكثرة الأشجار المثمرة والمياه الجارية العذبة، ومن مياهها المعسل الذى ينبع من الجبل وهو خفيف وعذب وشديد البرودة أحيانا(٤).

٢ ـ الوهط :

بفتح أوله وسكون ثانيه وطاء مهملة، وهو المكان المطمئن المستوى الذى ينبت فيه العضاة والطلح وبه سمي الوهط. وهي قرية بالطائف على بعد ثلاثة أميال فى وادى وج. كانت هذه القرية لعمرو بن العاص وفيها مزارع الكروم الكثيرة(٥).

---

(١) جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ١، ص ١٣٤.

(٢) ويذكر ياقوت أن الهدة هي موضع بين مكة والطائف وهي موضع القرود.
ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ٣٩٥.

(٣) عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ١٩٤، طبعة الترقي بدمشق.

(٤) عبد المنعم الغلاس : جغرافية جزيرة العرب، ص ١٩.

(٥) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ٣٨٦.
عبد الوهاب عزام : الرحلة، ص ٣١٦.

٣ — المثنـــاة :

يذكر ياقوت أنها موضع لكنه لم يحدّد مكانه(١). لكن المصادر الأخرى أشارت إلى أنه على ثلاثة أميال إلى الجنوب من الطائف وبه مسجد عدّاس وفيه قرى متعددة وبساتين ومزارع، وهناك قرى أخرى فى الطائف مثل العبلاء وغيرها(٢).

موقع مدينة الطائف وتحديد مكانها :

الطائف احدى مدن الحجاز الرئيسية الثلاث، تقع على بعد خمسة وسبعين ميلا إلى الجنوب الشرقي من مكة(٣)، على ظهر جبل غزوان، وهي مرتفعة أكثر من خمسة آلاف قدم عن مستوى سطح البحر(٤). فى سهل رملي محاط بالتلال المنخفضة(٥). وهي مدينة قديمة — عرفت باسم وج ولم تعرف باسم الطائف إلا بعد تسويرها بحائطها المحدق بها(٦). وهي محلتان تقعان على جانبي الوادى، واحدة يقال لها طائف ثقيف والثانية الوهط، وبينهما الوادي الذى تجرى فيه مياه المدابغ التى يدبغ فيها الأدم حيث اشتهرت المدينة بهذه الصناعة منذ القدم(٧). وبيوتها متلاصقة ضيقة، والمدينة لها بابان، احدهما لبنى يسار والآخر لبنى عوف

---

(١) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ٥٥، اتصلت بالطائف عمرانيا، ولشكيب أرسلان رأى حول التسمية (الارتسامات ١٢٨ — ١٣١) م هامش اهداء اللطائف ص ٨٩.
الزركلي : ما رأيت وما سمعت، ص ٩٥.

(٢) الزركلي : ما رأيت وما سمعت، ص ٩٥.

(٣) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩.
الادريسي : نزهة المشتاق، ص ٢٦، طبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٧١.
عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ١٩٠.
جواد علي : العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٣٤.

(٤) ويذكر الهمداني أن غزوان هو جبل عرفة العالى الذى طلعت بعض الجبال منه.
الهمداني : الصفة، ص ٤٩، تحقيق النجدى.

(٥) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩.
الادريسي : نزهة المشتاق، ص ٢٦ — ٢٧.
عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ١٩٠ وما بعدها.

(٦) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩.

(٧) نفس المصدر والصفحة.

وباب بني يسار يسمى صعبا، وباب بني عوف يسمى سامرات(١). ولم تذكر لنا المصادر سعة المدينة وإن أشارت إلى أنها صغيرة إلا أن ياقوت حدد عرضها باحدى وعشرين درجة(٢) ويصلها بمكة طريقان أحدهما عن طريق وادى نعمان إلى عرفة فمكة وهى طريق قصيرة ومختصرة، والطريق الثاني من بئر ابن المرتفع إلى القرن فمكة(٣).

وهي إلى جانب خصوبة أرضها وكثرة عيونها ومياهها ووفرة محاصيلها كانت مركزا تجاريا مهماً ومحطة للقوافل التجارية الذاهبة إلى اليمن. لذا فانها ارتبطت بمكة اقتصاديا واجتماعيا وتاريخيا(٤). وارتفعت مكانتها إلى مكانة مكة كما يظهر ذلك من قوله تعالى «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»(٥).

ونظرا لتمتع مدينة الطائف باعتدال مناخها وخصوبة تربتها وكثرة مياهها ووفرة فواكهها المختلفة ومحاصيلها المتعددة وتوسط موقعها على طريق القوافل التجارية بين اليمن وكل من مكة والمدينة، فقد أصبح ساكنوها شديدى التمسك بها منذ القدم. وفى العصر الجاهلي الأخير كان تجار مكة تصبو نفوسهم إليها لامتلاك ضيعة فيها أو قل مقاما يخفف عنهم ما يعانون منه فى جو مكة الذى يصيب المرء بالخمول، ولقد درج أحفادهم على ذلك إلى اليوم، ولذا كانت وظلت حتى اليوم مصيفا لأهل مكة(٦). هذه الميزات المناخية ساعدت على قيام

---

(١) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩ — ١٠.

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٧٩، طبعة ليدن، ١٩٠٩.
الاصطخرى : كتاب الاقاليم، ص ١٠، النسخة المخطوطة.
ابن حوقل : صورة الأرض، ص ٣٢، طبعة ليدن، ١٩٣٨.

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ١١٢.
الهمداني : الصفة، ص ١٢٠ — ١٢١.

(٤) الأزرقي : أخبار مكة، ص ١٨٨ — ١٩١، طبعة دار الأندلس.

(٥) القرآن الكريم : سورة الزخرف، آية رقم ٣١.

(٦) دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥، ترجمة عبد الحميد يونس.
ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩ ومابعدها.
جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ١،ص ١٣٤.
عبد الوهاب عزام، الرحلة، ص ٣٠٦.



١ ــ ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤ ، ص ٩٠٨. طبعة بيروت.

٢ ــ Atlas of the World, p. 133

زراعة فيها كالحبوب والفواكه المتعددة، وكانت الزراعة من أهم مصادر الطائف الاقتصادية، ولذا دفعها موقعها الجغرافي المهم واختلاط أهلها بأهل مكة إلى قيامها بدور مؤثر فى تجارة الحجاز بصفة عامة وأصبح هذا الموقع يمثل محطة للقوافل الذاهبة إلى اليمن والشام والعراق(١). وأن موقعها المرتفع الحصين وسورها هيَّأ لها منعة طبيعية وساعداها فى صد الغارات الخارجية عليها وزاد من اعتزاز أهلها بها حتى قال الشاعر الثقفي كنانة بن عبد ياليل(٢):

كأن الله لم يؤثر علينا	غداة تجزأ الأرض اقتساما
عرفنا سهمنا فى الكف يهوى	لدى وج وقد قسم السهاما
فلمّا آن أبان لنا اصطفينا	سنام الأرض ان لها سناما
أسافلها منازل كل حيّ	وأعلاها لنا بلدا حراما

أهمية مدينة الطائف :

ولأهمية هذه المدينة يجدر بنا أن نعالج فى هذا البحث نشأتها وأهمية موقعها، ثم مكانتها الاقتصادية، وأهمية هذه المكانة بالنسبة إليها وإلى المدن الحجازية الأخرى المجاورة لها، ومكانتها السياسية والدينية باعتبارها مركزا دينيا لا يقل أهمية فى نظر ساكنيها فى العصر الجاهلي الأخير عن مكة(٣). وسنحاول أن نبين هذه الاعتبارات المتعددة لتبيان أهمية المدينة والدور الذى لعبته فى الحجاز بجانب مكة والمدينة.

فمن الناحية التاريخية، تعتبر الطائف مدينة موغلة فى القدم، ومن المراكز الحضارية فى الحجاز التى لا ترجع إلى العصر الجاهلي فحسب، بل تعود إلى

(١) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٢٩.
البلاذري : فتوح البلدان، ج ١، ص ٦٩.
ابن بطوطة : الرحلة ص ١٣٢، ١٥٤. فيليب حتى : تاريخ العرب ص ١٤٣.

(٢) البكري : معجم ما استعجم، ج ١، ص ٧٨.

(٣) ابن الكلبي : كتاب الأصنام، ص ٦ — ٨، الدار القومية للطباعة.
ابن قتيبة : المعارف، ص ٦٢١.
جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ٥، ص ٩١ — ٩٣.

فترات زمنية قديمة جدا، فقد كانت مسكنا لبنى عبد بن ضخم وبنى مهلائيل بن قينان وغيرهم(١).

أما من الناحية الاقتصادية، فان ارتفاع موقعها فوق جبل غزوان ساعد على اعتدال مناخها، بالاضافة إلى خصوبة أرضها ووفرة مياهها مما جعلها مركزا زراعيا واسعا ومصدرا لتجارة الحجاز المرغوبة(٢). وأكسبها هذا الموقع مركزا مهما بين مراكز الاستيطان فى شبه جزيرة العرب، لأن الماء بحدّ ذاته أصبح قيمة اقتصادية كبيرة، ولهذا ساعدت وفرة مصادره فيها على نشوء نظام رى الأغراض الزراعية، ولهذا بنيت السدود المتعددة لاحتجاز مياه الأمطار والاستفادة منها فى فصل انعدام المطر، مما ساعد على ظهور الملكيات الزراعية الواسعة فى المنطقة، سواء لأهلها من القبائل أو للموسرين من أهل مكة(٣). كما أهّلها موقعها على الطريق التجاري الذى يربط اليمن بكل من مكة والمدينة أن تكون سوقا تجاريا رائجة ترتاده القبائل العربية فى أكثر أيام السنة، مما جعلها المدينة الثانية فى غرب شبه جزيرة العرب فى العصر الجاهلي الأخير(٤). بل نستطيع أن نقول إنّها كانت تتفوق عليها اقتصاديا، لا سيما وأن أرضها الخصيبة كانت تجارة التصدير فيها بمنتجات عديدة جعلت منها مركزا اقتصاديا مهما فى منطقة مجدبة كالحجاز(٥). ولهذا نرى أن موقعها الهام المرتفع وخصوبة أرضها ومياهها الوفيرة وتجارتها الرائجة وفرت لها مكانة هامة منذ القدم، حتى أنها احتلت الصدارة بين مدن الحجاز الثلاث فى هذا الميدان، بالاضافة إلى صلات أهلها القوية بالبلاد الخارجية

---

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ١، ص ٣٠٣، طبعة دار المعارف.
الهمداني : الصفة، ص ٢١١، تحقيق النجدي.
العجيمي : اهداء اللطائف، ص ٣٥ .

(٢) ياقوت : معجم البدان، مجلد ٤، ص ٩.
عبد العزيز سالم : تاريخ العرب فى العصر الجاهلي، ص ٣٧٥ — ٣٧٦، طبعة دار النهضة.
لا مانس : مدينة الطائف، ص ٣٣، الطبعة الفرنسية، ١٩٢٢.

(٣) دائرة المعارف الاسلامية : مجلد ٦، ص ٥٥، ترجمة عبد الحميد يونس.
عبد الله بن خميس : المجاز بين اليمامة والحجاز، ص ٢٥٥ — ٢٥٦.

(٤) لا مانس : مدينة الطائف، ص ١٩١، الطبعة الفرنسية.

(٥) دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥، ترجمة عبد الحميد يونس.

كفارس والشام وغيرها من المناطق المجاورة الأخرى لها(١).

أما من الناحية الاستراتيجية، فان موقعها المرتفع وأسوارها القوية قد أعطياها أهمية عسكرية خاصة، ومن دراستنا لغزوة الرسول لها سنة ٨ هجرية(٢)، نرى عظمة وأهمية هذه المدينة من الناحية العسكرية، فعلى الرغم من محاولات الرسول المتعددة اقتحامها خلال مدة الحصار وبوسائل مختلفة، فانه لم يستطع فتحها لقوة أسوارها ومناعة حصونها ودفاع واستماتة أهلها عنها واحتفاظهم بما يكفيهم من المؤن لسد حاجتهم لفترة طويلة، وهذه ميزة هامة بالنسبة إلى المدن المحصنة لأنها لا تحتاج إلى خطوط تموين، كما فى المدن المكشوفة، ولذا كانت فى مأمن من الغارات الخارجية على الرغم من محاولات القبائل الطامعة بها منذ القدم(٣).

أما من الناحية السياسية، فان مكانة الطائف التاريخية والاقتصادية والحربية والدينية هيّأت لها مركزا سياسيا مهماً أهلها لكي تلعب دورا فى منطقة الحجاز فيما بعد.

* * *

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد ٢، ص ٣١٤، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء، ص ١٣ — ١٨، طبعة دار الفكر، بيروت ١٩٥٦.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٨٢ — ٨٥.
ابن هشام : السيرة، المجلد ٢، ص ٤٧٨، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٣) يذكر البكري طمع القبائل المجاورة بالطائف ومحاولة السيطرة عليها.
البكري : معجم ما استعجم، ج ١، ص ٦٧، وما بعدها.

الباب الأول

الطائف في العصر الجاهلي

الفصل الأول

سكان الطائف وعلاقاتهم الاجتماعية

أولا: سكان الطائف

امتازت منطقة الطائف بميزات متعددة مثل اعتدال مناخها وخصوبة أرضها ووفرة محاصيلها وكثرة مياهها، جعلها موضع اعتزاز أهلها بها منذ القدم(١) فقد سكن الطائف من الأمم البائدة بنو مهلائيل بن قينان ثم سكنها بعدهم بنو عبد بن ضخم وهي من عبس الأولى(٢). ثم قبيلة عدوان التي ظلت بها حتى غلبهم بنو عامر بن صعصعة وثقيف عليها، واستطاعت ثقيف أخيرا أن تستقل بها وتحافظ عليها وخاضت في سبيل ذلك حروبا متعددة إلى أن اعترف لها الجميع بها(٣).

والأمم البائدة التي سكنت مدينة الطائف لا نعرف عنها إلا النزر القليل جدا من المعلومات لندرة المصادر الخاصة بها، ولعلّ أوثق ما نعرفه هو ماجاء عنها في الشعر القديم، فبنو مهلائيل بن قينان ذكرهم الشاعر حرث بن محرث الملقب بـ «ذو الأصبع العدواني» وهو من قبيلة عدوان التي ماتزال بقاياها تسكن الطائف إلى اليوم، وهو شاعر فارس وله وقائع مشهورة(٤):

---

(١) فيليب حتى: تاريخ العرب، ج ١، ص ١٤٣.
عمر رضا كحالة: جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ٢٠٠ — ٢٠١.

(٢) الطبري: الرسل والملوك، ١، ص ٢٠٣.
الهمداني: الصفة، ص ٢١١، تحقيق النجدى.
القلقشندي: نهاية الارب، ص ١٩٨ — ١٩٩، تحقيق ابراهيم الأبيالي، ١٩٥٩.

(٣) البكري: معجم ما استعجم، ج ١، ص ٦٧ وما بعدها.
القلقشندي: نهاية الارب، ص ١٩٨ — ١٩٩.

(٤) الأصفهاني: كتاب الأغاني، ج ٣، ص ٨٥، طبعة دار الثقافة — بيروت.
مجلة العرب [السعودية]، ج ١،س٢، ص ١، سنة ١٩٦٧. [دار اليمامة للنشر].

كـلا الحييّن قد هلكا سفاها كما هـلـك ابـن مـهـلـيـل بـوج
عـدا بـالخـيـل مـن جلدان رهوا يجـوب الأرض فـجـا بـعـد فـج

ويـقـصـد الشاعر بالحيين بنى عبد ضخم وبنى هانىء من ثمود، وانهم سكنوا وج، وهو وادى الطائف المعروف آنذاك، وجلدان من أوديته الشرقية المعروفة إلى الآن بهـذا الاسم(١). أما بنو عبد بن ضخم فقد ورد ذكرهم فى شعر أمية بن أبى الصلت الثقفي الطائفي بقوله:

كما أفـنـى بنى عـبـد بـن ضخـم فـما يـذكـو لـصـاليهـا شـراب
بـنـى بـيـض ورهـط بـنـى معـاذ وفيهـم عـزة وهـم غـلاب

وتـذكـر المـصـادر أن بنى عـبـد بـن ضـخـم هـؤلاء هـم أول من اخترع الخط العربي(٢). أما ثمود فسنذكرهم فى موضوع نسب ثقيف سيأتى فيما بعد.

نسب ثقيف

قـبل التطرق إلى قصة انفراد ثقيف بالطائف، لا بدّ لنا من معرفة نسب هذه الـقـبيلة ليتسنى لنا دراسة نموّها وتكاثرها ودخولها الحروب المتعددة وانفرادها أخيرا بالطائف.

مـن المـعـروف أن قـبـيـلـة ثـقيف قبيلة كبيرة، ذات ماض شريف، اختلف النسابون فى تحديد أصلها، ولهم فى ذلك أربعة أقوال:

---

(١) الهمداني : الصفة، ص ١٢٠ — ١٢١.
الأصفهاني : بلاد العرب، ص ٣٠ — ٣١، تحقيق الجاسر والعلي.
ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٢، ص ١٥٠ — ١٥١، طبعة بيروت، ١٩٥٦.

(٢) القلقشندي : نهاية الارب، ص ٣٣٧، الشركة العربية للطباعة.
ويـذكـر الـيـعـقـوبي في تاريخه إن اسماعيل بن ابراهيم أول من نطق بالعربية، وأن الله شقّ فاه باللسان العربي. ويذكر الطبري أن العمالقة أول من تكلموا بالعربية حين خرجوا من بابل.
اليعقوبي : تاريخ، ج ١، ص ٢٢١، طبعة بيروت.
الطبري : الرسل والملوك، ج ١، ص ٢٠٧، طبعة دار المعارف.

القول الأول :

أن ثقيفا من قيس عيلان، فينسبون ثقيفا إلى قسي بن منبه بن بكر بن هوزان ابن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، فهم من قبائل هوازن وهوازن يجمعها ثلاثة أجداد كلها لبكر بن هوازن وهم بنو سعد بن بكر، وبنو معاوية بن بكر، وبنو منبه بن بكر(١).

والقول الثاني :

أن ثقيفا هو قسي بن النبيت بن منبه بن منصور بن يقدم ابن افصي بن دعمي بن اياد بن نزار بن معد بن عدنان، وانهم انتسبوا إلى قيس(٢). ويذكر ابن هشام(٣)، أن أمية بن أبي الصلت، الشاعر الثقفي، قال:

قومي إيادُ لو أنهم أمُمُ … أو لو أقاموا فتهزلَ النَعمُ
قومٌ لهم ساحةُ العراقِ إذا … ساروا جميعا والقول والقلمُ

وقال أيضا(٤):

فإما تسألى يابَنْتَ عنى … وعن نسبى أخبرّكِ اليقينا
فأنا للنبيتِ أبى قسيٍّ … لمنصورِ بن يقدمَ أقدمينا

---

(١) ابن حزم : جمهرة الأنساب، ج ٢، ص ٤٨٢، ٢٦٢.
ابن هشام : السيرة، المجلد ١، ص ١٤، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
البكري : معجم ما استعجم، مجلد ٢، ص ٧٩، تحقيق مصطفى السقا.
السهيلي : الروض الأنف، ج ١، ص ٢٦، طبعة القاهرة، ١٩٦٧.
السمعاني : الأنساب، ج ٣، ص ١٣٩، مطبعة المعارف العثمانية ١٩٦٣.
ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج ٣، ص ٣٥٣، طبعة دار الكتاب القاهرة.

(٢) اليعقوبي : تاريخ ، ج ١، ص ٢٢٥، طبعة بيروت.

(٣) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٤٧، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
السهيلي : الروض الأنف، ج ١، ص ٦٦.

(٤) البكرى: معجم ما استعجم، المجلد ١، ص ٧٩، تحقيق مصطفى السقا.

وقال مالك بن عوف النصري :

ألا أبـلـغ ثـقـيـفـا حيثُ كـانـت   بـأنّـى مـا حـيـيـتُ لـكـم مُـعـادى
فـإنـى لـسـتُ مِـنـكِ ولسـتِ منـى   فــحُـلِـى فـى أحَـاظـة أو ايـادِ

فأجابه مسعود بن متعب(١):

لا قـيـسـكـم مـنـا ولا نحن مـنـكـمُ   ولـكـنـنـا أولادُ نـبـتِ بـن يَـقـدُمَـا
وان أدعُ يـومـا فـى أحَـاظـة تـأتِـنـى   كـتـائـبُ خُـرسٌ لا أخـافُ التهضما

أما القول الثالث :

ان ثقيفا من بقايا ثمود، فقد ذكر ابن عبد البر أن قبائل تنتمى إلى العرب وهي ليست منها، حمير من تبع، وجرهم من عاد، وثقيف من ثمود، وقال: روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: كل العرب من ولد اسماعيل إلا السلف وثقيف والأوزاع وحضرموت(٢).إلا أن هذه الروايات تبدو ضعيفة الأسانيد لا تقوم على حجة مصدّقة.

و يقول ابن كثير، أن أبا رغال هو أبو ثقيف وكان من ثمود(٣). وهو الذى أرسلته قبيلة ثقيف مع أبرهة أثناء غزو ه مكة دليلا له إلى مكة، وقد خرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمس وهناك مات أبو رغال فدفن فيه فرجمت قبره العرب، فهو القبر الذى لا زال يرجم بالمغمس إلى الآن(٤).

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) ابن عبد البر : الأنباه على قبائل الرواة، ص ٨٩ — ٩٢، طبعة القاهرة.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١، ص ١٣٧.

(٤) الأزرقي : أخبار مكة، ج ١، ص ١٤٢، طبعة بيروت.
و يذكر أن المغمس موقع بين الجعرانة والشرايع ف طريق السيل إلى الطائف ومكان القبر معروف إلى يومنا هذا.
بينما يذكر ابن هشام بأن المغمس موضع بطريق الطائف قريب من مكة.
ابن هشام : السيرة، المجلد ١، ص ٤٨، طبعة الحلبي، ١٩٥٥م.

وكان الحجاج بن يوسف الثقفي شديد الانكار على من يقول: أن ثقيفا من بقايا ثمود، وكان يردد يزعمون أنا من بقايا ثمود، والله عز وجل قال: « وثمودا فما أبقى» (١).

وعلى ذكر ثمود، فقد ذكر الاصطخري أنهم قوم سكنوا قرية الحجر فى وادى القرى وأن بيوتهم بنيت فى الجبال وكانت تسمى الأثالب وهي بيوت متصلة بعضها ببعض والصعود إليها يحتاج لجهد ومشقة كبيرين(٢). وهم الذين جاء ذكرهم فى القرآن الكريم، قال تعالى: «واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين»(٣).

ويذكر الطبري أن ثمودا كفرت بربها وعاثت فى الأرض فسادا فبعث الله إليهم نبيا هو النبي صالح ليصلح أمرهم ويدعوهم إلى توحيد الله، إلا أنهم رفضوا الانصياع له وأعلموه أنهم فى شك من أمره، ويذكر كذلك أنهم كانوا يسكنون قرية الحجر فى وادى القرى بين الحجاز والشام(٤).

أما المسعودي، فيذكر أن ثمودا سكنت بين الشام والحجاز حتى ساحل البحر الحبشي، وكانت بيوتهم منحوتة فى الجبال، وهم الذين بعث الله فيهم النبي صالحا نبيا وهاديا ومرشدا فلم يطيعوه، ويقال أن بعضهم آمن بالنبي صالح(٥).

أما النويري فيقول : أن ثمودا جاءت بعد عاد تصديقا لما جاء فى القرآن الكريم فى سورة الاعراف، آية رقم ٧٤، وأنهم عمروا الأرض وكانوا بضع قبائل وفى كل قبيلة أكثر من سبعين ألفا سوى النساء والذرية ثم كثروا وصارت أعدادهم تقارب أعداد عاد من قبلهم وكانت بيوتهم منحوتة فى الجبال وهي بين

---

(١) القرآن الكريم، سورة النجم، آية رقم ٥١.

(٢) الاصطخري : المسالك والممالك، ص ١٩ — ٢٠، طبعة ليدن، ١٩٣٧.
ابن حوقل : صورة الأرض، ص ٣٢، طبعة ليدن، ١٩٣٨.

(٣) القرآن الكريم ، سورة الأعراف، آية رقم ٧٤.

(٤) الطبري : الرسل والملوك، ج ١، ص ٢٢٦ — ٢٢٧، طبعة دار المعارف.

(٥) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢، ص ١٤ — ١٨، طبعة دار الأندلس، ١٩٦٥.

الحجاز والشام فى قرية الحجر بوادى القرى(١).

أما الدكتور جواد على فقد أسهب فى ذكر ثمود واستند فى ذلك على ما أورده القرآن الكريم فى ذكرهم على سبيل العظمة والاعتبار، وإن إسمهم جاء فى القرآن فى مواضع عديدة، منفردا ومقرونا باسم شعوب أخرى مثل قوم نوح وعاد(٢).وذكر أن تاريخهم يعود إلى ماقبل الميلاد بزمان وأنهم عاصروا الآشوريين، ويذكر بعض الباحثين أن آخر ذكر ورد فى الوثائق لقوم ثمود كان فى القرن الخامس الميلادى، وأن قسما منهم كانوا فى جيش الروم(٣). وان مواضعهم كانت فى مناطق جبلية فى وادى القرى وهي قرية الحجر والتى تسمّى بالخريبة حاليا(٤).

لقد استطاع المستشرقون التعرف إلى الثموديين فى كتاباتهم التى وجدوها فى أماكن متفرقة فى شبه جزيرة العرب، بما فيها منطقة الطائف والسواحل الشمالية للبحر الأحمر عند قرية الوجه، لكن ذلك لا يعنى سكناهم فى هذه الأماكن ودلّت الكتابات على أنهم زّراع ورعاة ماشية وأنهم كانوا أقرب إلى الحضر منهم إلى البدو(٥).

وخلاصة القول فى ثمود إن الدراسات الحديثة أثبتت أن ثمودا كانوا جملة قبائل عاشت قبل الميلاد بزمن بعيد، وانهم عاصروا الآشوريين، وأجمعت المصادر على أنهم سكنوا الحجر فى وادى القرى وهي منطقة الخريبة الحالية، ولم يسكنوا الطائف، لكن نفوذهم امتد إلى مناطق متعددة وخاصة التى وجدت لهم فيها كتابات ثمودية، ولم نعثر فى المصادر على مايفيد انتماء قبيلة ثقيف إليهم.

لكن هناك أسبابا دفعت النسّابة إلى تشويه نسب ثقيف، منها موقف ثقيف من الرسول صلى الله عليه وسلم والدعوة الإسلامية، ثم تحالفه التقليدي مع بنى

(١) النويري : نهاية الارب، ج ١٣، ص ٧١، طبعة الارشاد المصرية.
(٢) جواد علي : المفصل، ج ١، ص ٣٢٢.
(٣) نفس المصدر، ص ٣٢٥ — ٣٢٨.
(٤) نفس المصدر والصفحة.
(٥) نفس المصدر، ص ٣٢٩ — ٣٣٠.

أمية وما كانت تشعر به الجماعة الإسلامية من بغض للحجاج بن يوسف الثقفي وغيره من الولاة الثقفيين الأشداء الذين ظهروا فى الدولة الأموية، أمثال زياد ابن أبيه وغيرهم(١).

مما سبق، أن الأكثر ترجيحا إن ثقيفا تنتسب إلى هوزان وهي من قبائل قيس عيلان — وهو ما أوردناه فى القول الأول — ويتمسك معظم أبنائها بهذا النسب وعليه بنيت عصبيتهم ومفاخرتهم كما يتضح ذلك فى الجدول المرفق(٢).

بطون ثقيف

هم بنى قسي بن منبه بن بكر بن هوزان بن منصور بن عكرمة ابن خصفة بن قيس عيلان بن مضر، ولقسي ثلاثة أولاد دارس وقد دخل ولده فى الأزد وعوف وهم الأحلاف، وجشم وهم بنو مالك(٣). وقد تفرع منها البطون التالية:

أولا — (عوف — الأحلاف):

ثقيف فرقتان، عوف وبنو مالك، أما عوف فيسمّونهم الأحلاف نسبة إلى تحالفهم مع غاضرة وهي بطن من جشم ضدّ بنى مالك بن خطيط بن جشم بن قسي(٤). ولعوف — الأحلاف — بطنان هما سعد وغيره(٥)، تفرع منها البطون التالية:

---

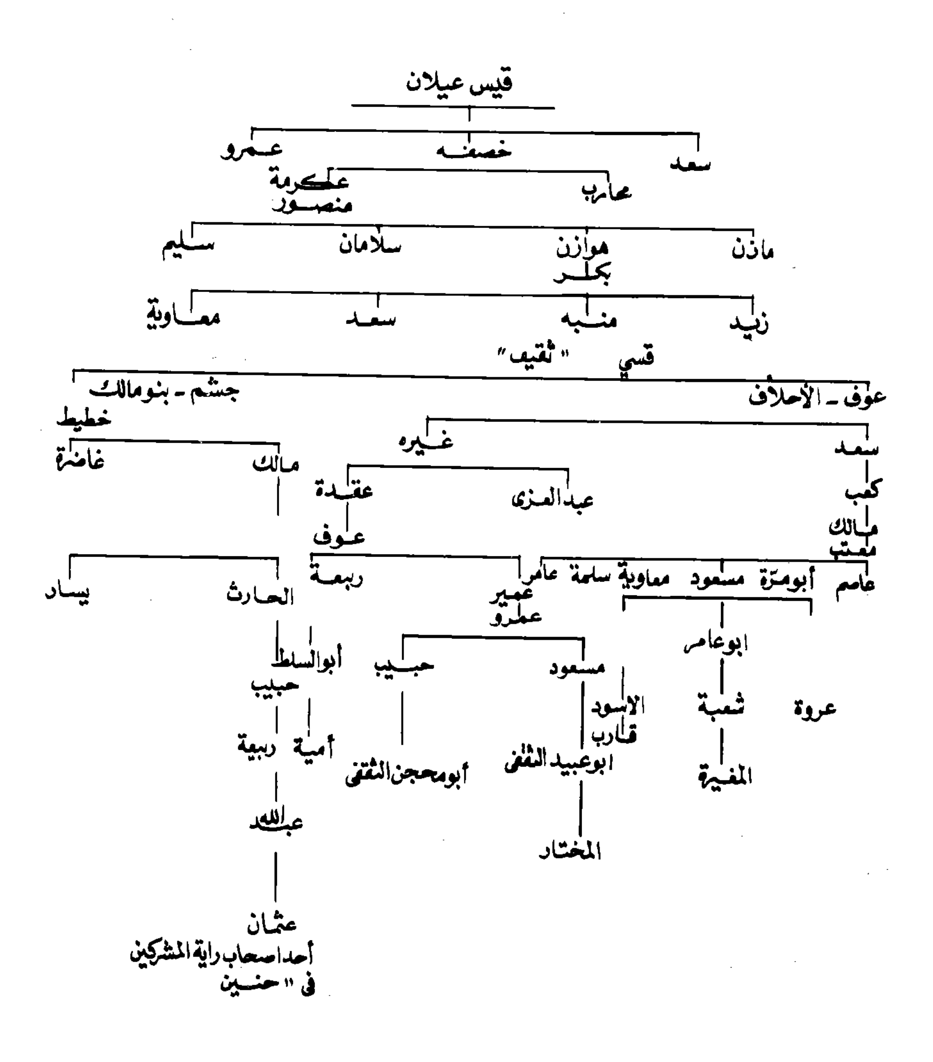
(١) احسان العمد : الحجاج بن يوسف الثقفي، ص ٦٩.

(٢) المبرّد : الكامل، ج ٢، ص ٦٦، طبعة القاهرة. انظر ما قاله المغيرة بن شعبة.
احسان العمد : الحجاج بن يوسف الثقفي، ص ٦٩.

(٣) ابن حزم : الجمهرة، ج ٢، ص ٤٦٨.

(٤) نفس المصدر، ص ٢٦٦ — ٢٦٩.

(٥) نفس المصدر، ص ٢٦٧ — ٢٦٩.
عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب، ج ٢، ص ٨٥٨، طبعة بيروت.
نفس المصدر، ج ٣، ص ٩٠٢.



انظر :

(١) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٨٨٥، ٩٠٧.

(٢) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٥٩ — ٢٦٩.

(٣) رضا كحالة : معجم قبائل العرب، ج ١، ص ١٤٨.

(٤) احسان العمد : الحجاج بن يوسف الثقفي، ص ٧٠، ٧٤ — ٧٥.

١ – بنو معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف(١) وهم:

رهط عروة بن مسعود الذى يروى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال فيه «مثله مثل صاحب ياسين»، وصاحب ياسين هذا هو حبيب بن مري(٢).

ومعتب بن مالك هو الذى بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى قومه داعية إلى الاسلام فقتلوه — رحمه الله — وأمه سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف، وهو ابن خالة أمية ابن أبى الصلت الشاعر الثقفي المعروف، وله من الولد عاصم بن معتب وأبوه مرّة ومعاوية وابو مليح بن معتب، وهو الذى أسلم قبل اسلام ثقيف(٣).

قلنا إن معتب أسلم قبل اسلام ثقيف فولد معاوية أبنة تزوجها الحسين بن علي، فولدت له عليا الأكبر المقتول مع أبيه فى واقعة كربلاء، وولد عاصم يعقوب ونافعا وولد أبو مرة: داود وأمه ميمونة بنت أبى سفيان بن حرب بن أمية، وابن أخيه المغيرة بن شعبة بن أبى عامر بن مسعود بن معتب من أهل بيعة الرضوان، وبنوه: حمزة وعروة والمطرّف و يعفور وعمار والمغيرة، خرج المطرّف منهم على الحجاج منكرا لجوره فقتل وكان لعروة بن مسعود أخ يقال له الأسود بن مسعود، وابنه قارب بن الأسود الذى أسلم مع أبى مليح(٤).

ومنهم كذلك الحجّاج بن يوسف الثقفي، والي العراق أيام الأمويين وهشام ابن أبى سفيان بن عامر بن معتب، أحد ولاة الطائف. وغيلان بن سلمة بن معتب الذى كانت له وفادة على كسرى ورياسة على قومه، وابنه عامر بن عيلان أسلم قبل أبيه وهاجر ومات فى حياة أبيه فى طاعون عمواس(٥).

---

(١) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٧.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٢، ص ٢١، طبعة دار المعارف.

(٣) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٧ .

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٦٨.

وعمرو بن أمية بن وهب بن عمر بن معتب الذى بنى مسجد الرسول فى الطائف على موضع مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ حاصر الطائف، فهو مسجدهم اليوم وابن عمه الحكم بن عمرو بن وهب أحد الوفود على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أسلمت ثقيف(١).

٢ ـ بنو غيره بن عوف بن ثقيف :

منهم بنو علاج بن أبى سلمة بن عبد العزى بن غيره بن عوف، ومنهم كذلك المغيرة بن الأخنس بن شريق بن عمرْ بن وهب بن علاج، قتل مع الخليفة عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ــ وكان أبوه من سادات مكة وابن ابنه يعقوب بن عتبة بن المغيرة المحدث.

ومنهم كذلك الحارث بن كلدة بن عمر بن علاج، طبيب العرب، وإليه ينتمى بنو نافع أخى زياد وأبى بكره لأبيهما، ويتفرغ من هذا البطن بنو عقدة بن غيره(٢).

٣ ـ بنو عقدة بن غيره، ومنهم :

أبو عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة المقتول يوم الجسر، وابنه المختار بن أبى عبيد الذى خرج فى الكوفة، وصفية بنت أبى عبيد امرأة عبد الله بن عمر، وسعد بن مسعود أخو أبى عبيد له صحبة، وللمختار عقب ابن اسمه جبر بن المختار وابن آخر اسمه أبو أمية بن المختار تزوج أم سلمة بنت عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وأبو محجن بن حبيب بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة الشاعر الذى قال(٣):

إذا متُ فأدفنى إلى جنب كرمَةٍ ‏ ‏ ‏ تروى عظامى عند ذاك عروقها

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٦٨.

(٢) ابن حزم : الجمهرة ، ص ٢٦٨.
عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب، ج ١، ص ١٤٧ ــ ١٥٠. طبعة بيروت، ج ٢، ص ٨٥٦.

(٣) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٨. =

وهو الذى حدّ فى الخمر، وأبلى فى القادسية، ومات بأرمينية، وأمه كنود بنت عبد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، والشاعر أمية بن أبى الصلت بن ربيعة بن عوف بن عبد بن غيرة، وبنوه ربيعة ووهب وعمر والقاسم وليّ ربيعة بعض الولايات فى الإسلام، وكان القاسم شاعرا، وكانت أم أمية بن أبى الصلت رقية بنت عبد شمس ابن عبد مناف(١).

ثانيا: جشم منهم بنو مالك

ولد جشم بن قيسي: حطيطا، وولد حطيط غاضره ومالكا، أما غاضره فقد دخلت فى حلف مع عوف وسمّوا الأحلاف لأنهم تحالفوا على بنى مالك وصارت غاضرة مع الأحلاف(٢).

بنو مالك : أما بنو مالك فيتفرع منهم البطون الآتية:

١ – بنو حبيب بن الحارث بن مالك بن حطيط:

منهم عثمان بن عبد الله بن ربيعة ابن الحارث بن مالك بن حطيط أحد أصحاب لواء (راية) بنى مالك يوم حنين وقتل يومئذ كافرا، ومن ولد عثمان هذا: عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان وهو الذى يقال له ابن أم الحكم بنت أبى سفيان أخت معاوية والذى ولي الكوفة، وعقبه بدمشق وابنه كان الحر بن عبد الرحمن أمير الاندلس لسليمان بن عبد الملك أثر قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير، إليه ينسب بلاط الحر بشرقي قرطبة، و يتفرع من هذا البطن بنو اليسار(٣).

= عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب، ج ٢، ص ٧٩٧، طبعة بيروت.

(١) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٩.

(٢) ابن قتيبة : المعارف، ص ٩١، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٠.

(٣) ابن حزم : الجمهرة ، ص ٢٦٦.

٢ ــ بنو اليسار بن مالك بن حطيط بن جشم:

منهم عثمان والحكم، والمغيرة وحفص وأبو عثمان وأمية، بنو أبى العاص بن بشر بن عبد دهمان بن عبد الله بن همام بن أبان بن يسار بن مالك بن حطيط، ولهم أعقاب بالبصرة وشرف وعدد بها، وعثمان منهم من خيار الصحابة، ولآه رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف فى عهده وغزا فارس وثلاثة فى بلاد الهند، وسنتكلم عنه فى باب الفتوح، وإليه ينسب شط عثمان بالبصرة، وكانت أمه صفية بنت أمية بن عبد شمس وكانت تحت عثمان بن أبى العاص ريحانة بنت أبى العاص بن أمية، فولدت له محمد بن عثمان، ومن ولده عبد الوهاب بن عبد المجيد المحدث المشهور، وبنوه: عبد المجيد وزياد وأبو العاص وأمهم بانه بنت أبى العاص الثقفية، ومحمد أبو الصلت من غيرها، وهو أكبر ولد أبيه وابن عمهم بشير بن عمرو بن ربيعة بن أبان بن يسار الذى اتهم فى قتل عروة بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ فى الطائف(١).

ولوأردنا استقصاء هذه القبيلة ومشاهيرها لاحتجنا لكتابة بحث كامل فى نسبها، وقد لاحظنا كثرة ارتباطها بقريش من حيث المصاهرة دلالة على شرفها وعلوّ مكانتها ومنزلتها.

أما مساكن عوف ــ الأحلاف ــ فلا تزال بوادى ليّة شرقي الطائف، وبوادى لقيم شمال الطائف، ومنهم الحمدة الموجودون بواديهم المعروف بوادى الحمدة(٢). وأما مساكن بنى مالك فهم فى شرقي وجنوب شرقي الطائف(٣).

---

(١) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٦.
انظر المقال الذى كتبه الأستاذ محمد سعيد كمال فى مجلة العرب السعودية مجلد ٢، ج ٥، ص ٤٠٦ وما بعدها. منشورات دار اليمامة للنشر والترجمة.

(٢) عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب، ج ١، ص ١٤٧، طبعة بيروت.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

انفراد ثقيف بالطائف وعلاقاتهم الاجتماعية

أما قصة انفراد قبيلة ثقيف بالطائف، فهي أن قسي (ثقيف) بن منبه نزل على عامر بن الظرب العدواني وهو من حكام العرب وحالفه وتزوج من ابنته وسكن «وج» وزرع فيها الكروم فنجحت زراعتها، وسكن أولاده المدينة وكانت عدوان مالكة لها(١)، فتصاهر أولاد ثقيف مع بني صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن وسكنوا حول الطائف وفي داخلها، ونتيجة للظروف القبلية السائدة آنذاك تشاحنوا مع بني عدوان وأدى ذلك إلى قيام حروب بينهما، تفرقت على أثرها جماعة عدوان وشتت أمرهم(٢). وكان السبب المباشر في تفرق عدوان قتال وقع بينهم مما زاد في تفرقهم وتباغضهم، فكان ذلك سببا في ضعفهم وتفرقهم على يد بني صعصعة(٣)، فطمع بنو عامر بن صعصعة فيهم وفي وج وأجلوهم عنها، لكن وج لم تصبح خالصة لهم لكثرة ثقيف وانتشارهم فيها(٤). علما بأن الثقفيين لم يفقدوا من قوتهم شيئا لعدم اشتراكهم في المعارك التي دارت بين عدوان وبني عامر بن صعصعة فاحتفظوا بها وصارت المدينة بينهما(٥). لكن بني عامر رفضوا أن يتخلوا عن بداوتهم، وفضلوا البادية على سكن المدن، كما وجدوا في منتجات وج الزراعية اشباعا لحاجاتهم من المواد الغذائية، لهذا كانوا يشتون في بلادهم بأرض نجد لسعتها وكثرة مراعيها ويصعدون إلى وج صيفا لطيبها واعتدال مناخها(٦).

وعندما بدأت ثقيف تحس بقوتها المتزايدة وهمة رجالها الأشداء بدأت القبيلة تفكر بالاستقلال بها وطرد الآخرين منها بأي ثمن(٧). وهنا بدأت تعد الخطط لتخطيط ذلك ولو على مراحل أو خطوات متتالية، وقرروا مفاوضة بني عامر بن

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ١٠ — ١١.

(٢) نفس المصدر والصفحة.
البكري : معجم ما استعجم، مجلد ٢، ص ٦٦ — ٦٧. تحقيق مصطفى السقا.

(٣) الأصفهاني : كتاب الأغاني، ج ٣، ص ٨٥، طبعة بيروت، ١٩٥٥.

(٤) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ١١ — ١٢.

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٦٨٤، طبعة بيروت.
البكرى : معجم ما استعجم، ج ١، ص ٧٧.

(٦) البكرى : معجم ما استعجم، ج ١، ص ٧٧.

(٧) ابن الأثير : الكامل، ج ١، ص ٦٨٥، طبعة بيروت.

صعصعة فى أمر اقتسام ثمار وج فيا بينهما، مقابل تخلي بنى عامر عن الأرض لثقيف لزراعتها وفلاحتها، لأن الثقفيين اختصوا بالزراعة والأعمال المدنية وقدموا الاغراءات لبنى عامر وحسّنوها لهم، وبينوا لهم أن بامكانهم الاستمرار بالبقاء فى أرض نجد ليفرغوا لأموالهم وماشيتهم بها وتوفر عليهم مؤن ووقت كثير وهم بذلك قد كسبوا خيرات الرّيف والبدو معا، ولا يتعرضون لمشقة التنقل والترحال صيفا وشتاء، وبهذه الحجة المقنعة رضي بنو عامر بذلك(١). وهذا ليس بالغريب فى تلك المجتمعات البدوية والحضرية فغالبا ما كانت القبائل تتقاسم الأمكنة الصحراوية من الأرض بينهم، وبالاتفاق فى أغلب الأحيان، وهكذا استطاعت قبيلة ثقيف أن تزيل الخلافات حول زراعة الأرض وحق الرعي فتملكت الطائف بدون حرب أو بمنازعات محدودة تقريبا(٢).

ومن هنا وبعد أن أصبحت وج لهم وحدهم، وجهوا اهتمامهم إليها والعمل على أعمارها، وقام رجالهم بتدعيم مراكزهم فيها فعملوا جهدهم لتأمين حدودها من الطامعين بها، وبذلك بقيت موضع حسد العرب لها وطمعهم فيها. ولذا فكّرت بعض القبائل المجاورة فى غزوهم وسلبهم وطردهم منها، فهاجمت جموع منها وج، واستنجدت ثقيف بحلفائها من بنى عامر ولكنهم تخلّوا عنها ولم يقدموا لها أية مساعدة تذكر، ولكن ثقيفا استطاعت بقوتها الذاتية أن تصد الغزو وتحمى أرضها برجالها، وعلى رأسهم غيلان بن سلمة ثم ترد الغازين مهزومين عنها(٣).

لكن جموعا من قبائل خثعم واليمن هاجمت المدينة ثانية، فقاد غيلان جنوده مرّة أخرى ضدهم، وقاتل بهم قتالا عنيفا انتهى بهزيمة الغزاة هزيمة ثانية وكبيرة، فقتل وأسر على أثرها الكثير منهم، ثم عفا غيلان عن الأسرى وأطلق سراحهم وسجل مأثرة له بذلك العمل الكبير(٤). وقبيلة خثعم هذه هي قبيلة قحطانية

---

(١) نفس المصدر، ص ٦٨٤ — ٦٨٥.
البكري ، معجم ما استعجم، ص ٧٧ — ٧٨.

(٢) لا مانس : مدينة الطائف، ص ٦٢، الطبعة الفرنسية.

(٣) البكري : معجم ما استعجم، المجلد الأول، ص ٧٧ — ٧٨. تحقيق مصطفى السقا.
الأصفهاني : كتاب الأغاني، ج ٤، ص ١٣٦، طبعة دار الثقافة — بيروت.

(٤) الأصفهاني : كتاب الأغاني، ج ٤، ص ١٣٦، طبعة بيروت.
عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب، ج ١، ص ٣٣٣، طبعة دار الملايين بيروت.
ويذكر المؤلف أيضا أن أيام ثقيف يوم وج بينهم وبين خالد بن هوذ.
نفس المصدر والجزء، ص ١٤٩.

تنسب إلى خثعم بن أغار بن أراش بن عمرو بن الفوت بن بنت مالك بن زيد بن كهلان، وديارها كانت على طريق الطائف بجبال السراة وما والاها فهي قريبة من الطائف وعلى معرفة به تماما(١).

ومن هنا ونتيجة للغزوات المتكررة على المدينة اشتدت الحاجة لبناء السور حول المدينة حتى يمنع عنهم تكرار مثل هذه الهجمات ثانية، ففتحوا فيه بابين أحدهما لبني يسار وسمّوه صعبان والثاني لبني عوف وأطلقوا عليه سامرات وصار لزاما على كل منهما حراسة بابه(٢).

ولقد انتهزت قبيلة ثقيف هذه الفرصة حيث لم تنجدها بنو عامر في حربها ضد القبائل الغازية لتجد السبب المبّرر للاستقلال الكامل في الطائف، وفي الموعد المعتاد لتقسيم ثمار وج ذهب بنو عامر إليها ليحصلوا على نصيبهم — أي النصف حسب الاتفاق — فامتنعت ثقيف عن تسليمه لهم، وذلك بسبب تخلّيهم عن مساعدتهم في صدّ غارات القبائل، واشتبك الطرفان في قتال انهزم فيه بنو عامر، فصارت الطائف ملكا لثقيف وحدها، وقد احترمت القبائل العربية واقع الأمر مرغمة فتركوها لهم وأقاموا بها سعداء وذوى غنى وكفاية فصار يضرب بذلك المثل(٣) و قال أبو طالب ابن عبد المطلب:

منعنا أرضنا في كل حي	كما امتنعت بطائفها ثقيف
أتاهم معشر كي يسلبوهم	فحالت دون ذلكم السيوف

وبعد ذلك سعت القبائل الأخرى للتحالف معها، وكثرت الأموال عندها حتى أصبح كثير من القرشيين يستثمرون أموالهم ويقضون فصل الصيف فيها وبين أهلها، لاعتدال مناخها في هذا الفصل على سائر بلاد الحجاز ولكثرة

(١) عمر كحالة : معجم قبائل العرب، ج ١، ص ٣٣٣، طبعة بيروت.

(٢) ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ١١، طبعة بيروت.

(٣) ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ١١ — ١٢، طبعة بيروت.
البكري : معجم ما استعجم، المجلد الأول، ص ٧٨.

فواكهها وخيراتها المتعددة التى تنفرد بها(١). وبذلك سادت علاقاتها الاجتماعية نوع من الاستقرار فيما بينها ومع القبائل والمدن المجاورة الأخرى، وأصبحت حياتها أقرب إلى حياة الحضر منها إلى حياة البدو، وذلك بسبب ظروفها الجغرافية والاقتصادية حيث سكنت بقعة هامة فى الحجاز تعتبر من أحسن وأغنى المناطق الحجازية(٢).

وكانت قبيلة ثقيف تضم فرعين رئيسيين هما بنو مالك والأحلاف، وقد تأثرت علاقاتها الاجتماعية بالعلاقات السياسية فيما بينها وسنتحدث عن ذلك فى فصل قادم. أما علاقة ثقيف بهوازن ومجموعة قبائل قيس عيلان الاجتماعية، فقد ارتبطت بها ثقيف بعلاقات أسرية فهم جميعا ينتمون لجد واحد(٣).

أما علاقات ثقيف الاجتماعية بقريش فقد حدثتنا المصادر عن وجود مصاهرات أسرية قوية بين الجانبين منذ عهد مبكر(٤). فهناك الكثير من رجالات قريش تزوجوا بثقفيات منهم عبد مناف جدّ الأمويين والهاشميين، فقد تزوج بريطة الثقفية وهي أم عمرو بن عبد مناف(٥). والحسين بن علي بن أبى طالب تزوج بابنة معاوية بن معتب بن مالك بن كعب الثقفي والتى ولدت له علي الأكبر المقتول مع أبيه يوم كربلاء(٦). وعبد الله بن عمر بن الخطاب متزوج بصفية بنت أبى عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفي(٧). وعياض بن عدي متزوج بعصماء بنت عمرو بن أمية بن علاج الثقفي(٨). والحارث بن زهرة كان متزوجا بلبنى ابنة أبى سلمة بن عبد العزى بن غيره بن عوف الثقفي(٩). والحكم بن أبى العاص متزوج من ثقفية.(١٠)

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مجلد ١٥، ص ٥٤ — ٥٥، ترجمة عبد الحميد يونس.
ياقوت معجم البلدان، مادة الطائف، مجلد ٤، ص ٩ وما بعدها.
الأزرقي : أخبار مكة، ج ٢، ص ١٥٧، هامش رقم (٦)، طبعة مكة.
(٢) دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥، ترجمة عبد الحميد يونس.
(٣) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٥٩ — ٢٦٦.
(٤) احسان العمد : الحجاج بن يوسف الثقفي، ص ٧٧، طبعة بيروت.
(٥) ابن هشام : السيرة ، المجلد الأول، ص ١٠٧، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
(٦) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٧.
(٧) مصعب الزبيري — نسب قريش، ج ١٠، ص ٣٥٦ — ٣٥٧ طبعة دار المعارف.
(٨) نفس المصدر، ج ٦، ص ٢٠١.
(٩) نفس المصدر، ج ٧، ص ٢٦٥.
(١٠) البلاذري : أنساب الأشراف، ج ٥، ص ١٦٠.

وبالمقابل فالكثيرون من الثقفيين متزوجون بقرشيات، فعبد شمس بن عبد مناف تزوجت ابنته سبيعة بمالك بن كعب الثقفي وأنجبت معتبا الجد الاعلى للحجاج بن يوسف الثقفي وأختها رقية متزوجة بأبى الصلت بن ربيعة وخلفت له أمية بن أبى الصلت الشاعر الثقفي المعروف(١). وأبو سفيان بن حرب بن أمية تزوجت ابنته آمنة بعروة بن مسعود الثقفي وأختها ميمونة كانت متزوجة بأبى مرّة بن معتب بن مالك الثقفي أيضا(٢). ويذكر ابن حبيب أن آمنة بنت وهب، أم الرسول صلى الله عليه وسلم جدّتها السادسة من ثقيف، وفاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف جدّتها السابعة واسمها حبيبة بنت عبد ياليل وهي من ثقيف(٣). وفى ذلك دلالة واضحة على كثرة المصاهرات بين القبيلتين حتى قالت العرب: مكة من الطائف والطائف من مكة(٤).

أما حياة ثقيف القبلية قد طبعت بالسمات ذاتها التى طبعت بها القبائل العربية الأخرى، وأبرز هذه السمات هي روح العصبية القبلية، والعادات والتقاليد المتبعة عند القبائل الأخرى، لذا اتسمت العادات التأثرية عندهم بالعنف فالدم لا يغسله إلا الدم، فأصبح الشرف معلقا بالثأر إلا إذا قبل أهله الدية(٥). كما فعل عروة بن مسعود فى دفع دية قتلى بنى مالك الذين قتلهم المغيرة بن شعبة بعد رحلة الاسكندرية بمصر(٦).

وعلى الرغم من الوحدة الظاهرية للقبيلة فى صلاتها الاجتماعية فيما بينها وبين القبائل الأخرى، فقد كانت هناك تناقضات فى الكيان الاجتماعي للقبيلة، ومن هذه التناقضات التقارب الاجتماعي بين أفراد الطبقة الواحدة من أجل الحصول على مركز القيادة أو الزعامة التى سوف تمنح أصحابها الحقوق

(١) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٧ ، ٢٦٩.

(٢) انظر احسان العمد : الحجاج بن يوسف الثقفي، ص ٧٨، نقلا عن ابن حزم، كتاب الجمهرة، وابن هشام فى سيرة النبي.

(٣) ابن حبيب : كتاب المحبر، ص ٩، ١٧، طبعة دائرة المعارف العثمانية، سنة ١٩٤٢.

(٤) احسان العمد : الحجاج بن يوسف الثقفي، ص ٧٩، نقلا عن لا مانس — مدينة الطائف، ص ١١ — ١٢.

(٥) فيليب حتى : تاريخ العرب المطول، ج ١، ص ٣٣.

(٦) الواقدي : المغازى ، ج ٢، ص ٥٩٦.

والامتيازات وتفرض مطالبهم على الآخرين، وهذا واضح فى علاقة بنى مالك والأحلاف وكيف أن غاضرة انضمت ضد بنى مالك مع عوف عندما تضاربت مصلحتها مع بنى مالك(١). وكذلك قيام الأحلاف الداخلية بين القبائل حتى تقوى الواحدة على الأخرى، وقد حدث هذا فى ثقيف، فقد تحالفت بنو مالك وبنو نصر بن معاوية على أحلاف ثقيف لأخذ الثأر منهم(٢). أما عادة وأد البنات فلم نجد لها أثرا فى قبيلة ثقيف، رغم انتشارها فى معظم بعض القبائل العربية الأخرى، وذلك يعود إلى حياة الطائف الاقتصادية التى لعبت دورا مهما فى رفع مستوى أفرادها المعيشي لا سيّما أن هذه العادة ظهرت نتيجة الفقر المدقع الذى اتسمت به حياة تلك القبائل التى مارست هذه العادة اللاانسانية(٣). وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه العادة خير تعبير حيث جاء فى قوله تعالى «ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق، نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطئاً كبيرا»(٤). وبهذه المناسبة نقول ان عادة وأد البنات لم تكن سمة المجتمع العربي كله.

هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى فقد كان الحكم والشاعر والكاهن من الشخصيات المؤثرة فى مجتمع الحجاز، فالحكم من الرجال الأشداء الشرفاء يختارونه من بينهم بالتراضي ليحكم بينهم بالتراضى ليحكم بينهم فى أمور الديات والمغارم والمنافرات الخاصة بالشرف وهم لذلك يقبلون أحكامه، ومن حكّام ثقيف غيلان بن سلمة الثقفي(٥). أما الشاعر فقد كان لسان قبيلته المتكلم وصحيفتها الناطقة والمدافعة عنها وممثلها فى الأسواق والمؤتمرات الأدبية، لذا كان له دور خطير فى المجتمع العربي بعامة، سواء فى وقت السلم أو الحرب، ومن

---

(١) ابن قتيبة : المعارف، ص ٩١، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٠.

(٢) لا مانس : مدينة الطائف، ص ١١٣ / ١١٥، الطبعة الفرنسية، ١٩٢٢.

(٣) انظر المقال الذى كتبه الدكتور جواد علي فى كتاب المفصل، المجلد ٥، ص ٩٠ — ١٠٠. ولم يذكر أن قبيلة ثقيف كانت تستعمل عادة الوأد رغم ذكره لأسماء كثير من القبائل العربية الأخرى.

(٤) القرآن الكريم — سورة الاسراء ، آية رقم ٣١.

(٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٥٨، طبعة بيروت.
ابن حبيب : كتاب المحبر، ص ١٣٣ — ١٣٥. طبعة دار المعارف العثمانية.

شعراء ثقيف المشهورين أمية بن أبى الصلت، وهو شاعر بليغ حتى إن رجال عصره وصفوه بأنه أشعر شعراء الحجاز المعروفين آنذاك(١).

أما الكاهن، فقد كان يعتمد على تسخير الجن حينما يعرض عليه الناس. ومن كهان ثقيف عمرو بن أمية من بنى علاج، وهو الذى فسر لهم سقوط النجوم يوم نزول الدعوة الاسلامية على الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الله أراد به أمرا عظيما، وكان الكهّان يعتقدون أن الأخبار تنزل من سماء إلى سماء حتى تصل إلى السماء الدنيا، فتسترقها الشياطين وتأتى بها إلى الكهان من أهل الأرض فيتحدثون بها وهم يخطئون و يصيبون وان الله حجب الشياطين بهذه النجوم المقذوفة فانقطعت الكهانة(٢).

أما ابن خلدون(٣). فهو يفرّق بين الكهانة والنبوءة، وبين أصناف الكهانة نفسها فيقول:

إن الكهانة احدى خصائص النفس البشرية بمعنى أنه لدى النفس الاستعداد للانسلاخ من المادية المثلة فى الجسد للاتصال بعالم الروح العلوي، وهذه الحالة قد تحدث بالفطرة وبدون اكتساب أو تعلم وفى لحظة مباشرة (لمحة) وهذا ما قد يحدث مع الأنبياء، لكن هناك صنف آخر من البشر أقل مرتبة فى ذلك وأكثر نقصا يضطرون إلى الاستعانة بالمدركات والاكتساب فتتحرك قدرتهم العقلية بارادتهم، نزوعا لعالم الروح فى حين انهم ناقصون عن هذا العالم بالفطرة (الجبلّة) أى أن الطبيعتين مختلفتان بين عالم الروح وبين الإنسان الذى يلامس الجسد المادّي، وعندما يعجز أمثال هؤلاء عن الوصول يتشبثون بما فى هذا العالم من جزئيات مادية فيستعينون بالأجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع

---

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٦٥، طبعة بيروت.
الأصفهاني : الأغاني ، ج ٤، ص ١٢٣ — ١٣٦، طبعة دار الثقافة.
ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٨.

(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٢٠٦ — ٢٠٧، طبعة الحلبي ١٩٥٥.
السهيلي : الروض الأنف، ج ١، ص ٢٣٦، طبعة القاهرة، ١٩٧١.

(٣) ابن خلدون : المقدمة، ج ١، من ص ٥١٨ إلى ص ٥٢١ تحقيق علي عبد الواحد وافي، ط ٢، مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٦٥.

الكلام.. الخ كمشجع لهم على رؤية غيبيات عالم الروح فيصبح لديهم ملكة خاصة لادراك أمثال هذه الأمور وهؤلاء هم الكهان. ولان نفوسهم ناقصة عن الكمال فهم يدركون جزئيات عالمنا أكثر من كليات العالم الآخر، لذلك يقوى خيالهم ويخصب لأنه وسيلة هذا النوع من الإدراك، و يؤكد ابن خلدون أن هؤلاء لا يصلون أبدا للكمال لأن وحيهم يصبح من الشيطان، وان كان أرفعهم شأنا هؤلاء الذين يستعينون فى كلامهم بالسجع ليشغله عن الحواس فيهجس فى قلبه أى يتخيل أمورا غير واقعة فعلا نتيجة لقذف الشيطان على لسانه فيتكلم وكلامه يكون إما صادقا أو كاذبا، لذلك يلجأ للظن والتخمين تمويها على من يسأله.

أما النبوّة، فأهم خصائصها الصدق لأنها إتصال من ذات النبي بالملأ الأعلى بدون مساعدة أو اكتساب لمهارات معينة.

وهناك من يقول(١). ان الكهانة انقطعت منذ زمن النبوّة بعد رجم الشياطين بالشهب أيام البعثة النبوية والذين كانوا يتعرفون الأخبار من السماوات و ينقلونها للكهان، لكن ابن خلدون يغلب الظن بأن الكهانة لم تنقطع لأن الآية ٩ من سورة الجن(٢)، دلّت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء، وهو ما يتعلق بخبر البعثة النبوية ثم عادت بعد ذلك لما كانت عليه، و يؤكد ابن خلدون أن الكهان إذا عاصروا النبوة يعرفون صدق النبي ودلالة معجزاته، لأن لهم، كما قلنا، بعض الوجدان من أمر النبوة ولا يوقعهم فى تكذيب النبوة سوى قوة مطامعهم من أنها نبوة لهم كما حدث مع أمية بن أبى الصلت الثقفي ومسيلمة الكذاب، لكن إذا تغلب الايمان انقطعت أمانيهم ومطامعهم وأصبحوا أحسن المؤمنين، كما وقع لطليحة الأسدي وسواد بن قارب.

وخلاصة ما سبق، أن الكهان لعبوا دورا مؤثرا فى مجتمع شبه جزيرة العرب بعامة ومجتمع الحجاز بخاصة.

---

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٢٠٧، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٢) قال تعالى : «وأنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمّع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا».
القرآن الكريم، سورة الجن، آية رقم (٩).

الأحوال الاقتصادية فى الطائف وعلاقاتها الاقتصادية بالمدن الأخرى، مع ذكر الأسواق التجارية ومركز الطائف منها:

تعتبر مدينة الطائف فى العصر الجاهلي الأخير المدينة الثانية فى اقليم الحجاز، الواقعة فى غرب الجزيرة العربية بعد مكة(١). بل لربما كانت تتفوّق عليها لولا وجود البيت الحرام بمكة، لتمتعها بالتربة الخصبة وكثرة المحاصيل المنوعة وبعض الصناعات المحلية المختلفة، هذا بالاضافة إلى كونها مركزا تجاريا من مراكز شبه جزيرة العرب، لتوسط موقعها بين الحجاز واليمن والعراق، لذا كانت محطة ثانية بعد مكة للقوافل التجارية الذاهبة والقادمة من وإلى تلك الأقاليم الهامّة آنذاك(٢). لقد كانت الوديان المجاورة لها تمدّ تجارة التصدير فيها بمادة وفيرة هيّأت لها مركز الصدارة فى حركة التعامل التجارى فى منطقة مجدبة كالحجاز، لهذا ارتبطت بالمدن المجاورة وخاصة مكة ارتباطا اجتماعيا واقتصاديا معا(٣). وكانت المواد الرئيسية الثلاث المنتجة فى الطائف النبيذ والحبوب والخشب — لوازم لا يستغنى عنها، ولقد سمحت عملة التبادل هذه للثقفيين فى ندرة العُمل المتداولة أن يوفروا لأنفسهم مكانة اقتصادية جيّدة، وتأمين القروض والرساميل والاستثمارات الضرورية لمدينتهم وتجارتهم المطلوبة من مكة الغنية المجاورة لهم(٤).

ولتبيان أهمية المدينة ودورها الاقتصادي فى ذلك الوقت، لا بدّ لنا من معرفة أهم المنتجات الاقتصادية ومصدر انتاجها ومدى احتياج المدن المجاورة والعالم الخارجي لها لنستطيع أن نوضح الدور الرئيسي الذى لعبته المدينة اقتصاديا فى ذلك الوقت.

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥، ترجمة: عبد الحميد يونس والشنتناوي.
لا مانس : مدينة الطائف، ص ٣، الطبعة الفرنسية، ١٩٢٢.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية: مجلد ١٥، ص ٥٥.
ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي، ص ٥، الطبعة الرابعة.
لا مانس : مدينة الطائف، ص ٣، الطبعة الفرنسية، سنة ١٩٢٢.

(٣) وات : محمد فى مكة، ص ١٧.
دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥.

(٤) نفس المصدر والصفحة.
لا مانس : مدينة الطائف، ص ٣، الطبعة الفرنسية، ١٩٢٢.

فالزراعة تعتبر الحرفة الأولى والهامة فى المدينة، ولقد ساعد اعتدال مناخ الطائف وجودة تربتها ووفرة مياهها وعذوبتها على قيام نشاط زراعي واسع النطاق فيها، وتعتبر الحنطة الانتاج الأول فيها، وعليها كانت تعتمد كل حواضر الحجاز وخاصة مكة، فكانت العير تخرج من الطائف إلى مكة محملة بالحنطة والحبوب، ومن أفضل الحبوب ماعرف باللقمي وهو نوع من الحنطة حبته كبيرة و ينسب إلى لقيم إحدى قرى الطائف التى لا تزال معروفة إلى الآن ولا يزال هذا الاسم فى بلاد نجد يطلق على الحبّ الجيّد، ولو لم يزرع فى الطائف(١). ولم تقتصر زراعة الحبوب على الحنطة بل كانت زراعة الشعير وأصناف متعددة من البقول كالذرة والسلت والزوان والأرز والسمسم والجلبان وأنواع الحبوب التى تكال وتدخر مع العدس واللوبيا والحمص والماش والدخن وغيرها(٢).

كما عرفت الطائف بمراعيها الكثيرة لوجود المياه الوفيرة التى تمدّ هذه المراعي بمادة الحياة فكانت بطون ثقيف الضاربة فى قراه والمخيّمة فى أطرافه كلها تعيش فى أوبار إبلها وحليب نوقها، وللماشية فى هذه البلاد قيمة كبيرة، لأن ما تنتجه يعادل ما تأتى به المزارع المخصبة والبقاع المنبتة، ومتى كثر العاملون فى تربية المواشي استفادت البلاد من خيراتها المختلفة ألبانها وجلودها وصوفها ووبرها(٣).

كذلك اشتهرت الطائف بفواكهها المتعددة الأنواع، ففيها يكثر النخيل والأعناب والموز والرمان والتين والخوخ والسفرجل والبطيخ والنارنج(٤). وللنخيل

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥.
المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٧٩، مطبعة ليدن ١٩٠٩.
عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ١٩٤. مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٥
الزركلي : ما رأيت وما سمعت، ص ٩٥.
البلاذري : فتوح البلدان، ج ١، ص ٦٩.
انظر مجلة العرب [السعودية]، ج ١، س ٢، ص ٦ وما بعدها، ١٩٦٧.

(٢) البلاذري : فتوح البلدان، ج ١، ص ٦٩.

(٣) عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ٢٠٠ — ٢٠١، طبعة الترقي ١٩٤٥.
البكري : معجم ما استعجم، ج ١، ص ٧٧، تحقيق مصطفى السقا.

(٤) البلاذري : فتوح البلدان تحت مادة الطائف، مجلد ٤ ص ٩ وما بعدها.
المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٧٩. =

والأعنـاب بصفة خاصة دور كبير فى اقتصاديات الطائف، فالأعناب عليها تعتمد ثـروة الـطائـف الاقـتـصـاديـة، وكان انتاجها منه كثيرا، وتذكر المصادر أن على جـوانبها من الـكـروم والأعـنـاب المختلفة مالا يوجد مثله فى بلد من بلدان العالم. ولهـذا ضـرب بزبيب الطائف المثل، ولقد كان فى منطقة الوهط كرم كثير لعمرو بـن الـعاص بلغ مليون شجرة موضوعة على الأخشاب لحمايتها من التلف ولزيادة المحصول. كما أن الـرسـول صلى الله عـلـيه وسلم عندما خرج يلتمس نصرة أهل الـطـائف قبل فتح مكة رفضه الثقفيون وآذوه حتى ألجأوه إلى بستان لعتبة وشيبة أبـنـي ربيعة مزروعة بالأعناب، ويذكر كذلك أن سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي لما أدى فـريـضـة الحـج مرّ بالطائف فرأى بيادر الزبيب فقال: ما هذه الحرار؟. قالوا: ليست حرارا ولكنها بيادر الزبيب(١). ولقد كانت تخرج البعير من الـطـائـف إلـى مـكـة وغيرها من المدن الأخرى محملة بالزبيب الذى شكل أحد أركـان صـادرات الـطـائف الزراعية، بجانب الحبوب(٢). أما التمر فقد تمتع بشهرة كـبـيـرة وواسـعـة، فهو طري وممتليء بالمادة انه يتوحل فيه الضرس(٣). أما الرمان فـيـكثر فى وادى لـيّـة وهـو كـبير الحـجم، لذيذ الطعم، بالاضافة للفواكه الأخرى المخـتـلـفـة التى تـشكل موردا هاما من موارده الاقتصادية(٤). كما اشتهرت بأزهارها المختلفة الأنواع ذات الروائح الطيبة كالسوس والياسمين والنرجس والورود المنوعة

= فيليب حتى : تاريخ العرب، ج ١، ص ١٤٣.
عبد المنعم الغلاس : جغرافية جزيرة العرب، ص ١٨ — ١٩ طبعة البصري، ١٩٦٢.

(١) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ٣٨٦، كلمة الوهط.
المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٧٩، طبعة ليدن.
ويـذكـر الأزرقي كـذلك أنه كان للعباس بن عبد المطلب كرم بالطائف وكان يحمل زبيبه إليه وكان يداين أهل الطائف ويقبض منهم الزبيب فينبذ ذلك كله ويسقيه الحجاج أيام الموسم.
الأزرقي : أخبار مكة، ج ١، ص ١١٤، طبعة دار الأندلس — بيروت.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥، ترجمة عبد الحميد يونس.
الزركلي : ما رأيت وما سمعت، ص ٩٥.
عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ١٩٤.

(٣) لا مانس : مدينة الطائف، ص ٣٣، الطبعة الفرنسية.

(٤) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٧٩.
جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ٨، ص ١٥٢ — ١٥٣، طبعة بغداد.
عبد المنعم الغلاس : جغرافية جزيرة العرب، ص ١٨ — ١٩ منشورات البصري.

فيستخرج منها عطر يباع على الحجاج فى موسم الحج، ولقد أضفى هذا الواقع على المدينة منظرا يبعث على الانشراح لزائرها حال دخولها[1]. وهذا ما دفع الكتاب والمؤرخين إلى وصفها بأنها قطعة من الجنة بالنسبة إلى الصحراء من حولها.

لقد لعبت حرفة الزراعة ومنتاجاتها المتعددة دورا بارزا فى توفير العملة للطائف، لذا كانت مواردها متعددة من الناحية الزراعية.

أما بالنسبة لمواسمها الزراعية، فللطائف ثلاثة مواسم هي الربيع والشتاء والصيف، ولقد كانت المواسم الزراعية الربيعية تبدأ فى (أوائل) الشتاء ويحصدونها فى أواخر موسم الربيع، أما الشتوية فتزرع فى أواسط الصيف وتحصد فى أوائل الشتاء، أما الزراعة الصيفية فهي ما بين الأولى والثانية[2].

أما تربة الطائف فرملية طينية يكثر فيها الكلس، والبرودة فيها تساعد على نموّ الأشجار والغابات الكثيفة وخاصة المناطق الجبلية، حيث كانت جبالها مكسوّة بالأشجار ذات الأخشاب الصلدة. لذا فقد كانت تصدر الأخشاب إلى مكة، وتعتبر الأخشاب إحدى صادراتها المهمّة فى العصر الجاهلي المتأخّر[3].

وإلى جانب حرفة الزراعة كان أهل الطائف يشتغلون بحرف أخرى منوعة كصيد الحيوانات وتربية النحل واستخراج العسل، ثم حرفتي التجارة والصناعة[4]. فبالنسبة إلى حرفة الصيد كانت غابات الطائف وجباله المكسوة بالأشجار الكثيفة مصدرا هاما لحرفة الصيد، فأكثر الصيادين كانوا يقبلون من

---

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب، ج ١، ص ١٤٣.
عبد المنعم الغلاس : جغرافية جزيرة العرب، ص ١٨ — ١٩، طبعة البصري.

(٢) عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ١٩٤.
الزركلي : ما رأيت وما سمعت، ص ٨٢.

(٣) جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ١، ص ١٣٤، طبعة بغداد.
عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ١٩٤.
أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٠، ١٣، ٢١، طبعة دار الفكر.

(٤) دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٤ — ٥٥، ترجمة عبد الحميد يونس.

مكة ومعهم كلاب الصيد لصيد الحيوانات والفهود والطيور لأكل لحومها والانتفاع بريشها وجلدها واتخاذها تسلية لهم، بالاضافة لكونها مصدرا من مصادر العيش قبيل ظهور الإسلام(١).

أما تربية النحل واستخراج العسل فكانت من الأعمال الهامة التى اشتهر بها أهل الطائف، وكان العسل أحد مصادر ثروة الطائف سواء فى العصر الجاهلي أو عصر الرسول، وتعتبر جبال الطائف مركزا لتواجد النحل وتربيته فى الكهوف وخاصة مناطق شيماط وهي من أرض الطائف، وتعتبر أكثر أرض العرب عسلا، و يروى الأصمعي أن سليمان بن عبد الملك لما حج فأتى الطائف ووجد ريح الندغ وهو ماترعاه النحل وتعسل عليه، كتب إلى والي الطائف: «انظر لى عسلا من عسل الندغ والسياء وهو نبت آخر من مراعي النحل(٢). ولا يشكل العسل مادة للاستهلاك المحلي فقط بل مادة للتصدير وخاصة إلى مكة(٣). و يعتبر العسل من الأطعمة الشهيرة ذات المنفعة الضرورية للجسم و يعتبر كغذاء رئيسي وقتذاك وخاصة عسل الطائف حيث يربى النحل على أشجار الفاكهة المختلفة والورود المنوعة. ولقد جاء ذكر كلمة العسل بما وعد الله المؤمنين فى الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار فيها لبن وعسل مصفّى(٤). وكان العسل دواء لمعالجة المرضى، كما جاء فى قوله تعالى: «يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس»(٥)، وقد كانت الجبال أحد مصادره وخاصة الكهوف وأعالى الأشجار، حيث كان النحل يستقر هناك لبعدها عن أعين الناس. قال الله تعالى: «وأوحى ربك إلى النحل ان اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون»(٦). ولهذه الميزات فى عسل الطائف فقد كان يطلب فى سائر انحاء بلاد العرب، و يشكل مصدرا للدخل فى ذلك الوقت، لذا كان يؤخذ من أصحاب العسل والمهتمين بتجارته

---

(١) لا مانس : مدينة الطائف، ص ٣٢، الطبعة الفرنسية، ١٩٢٢.
(٢) البكري : معجم ما استعجم تحت مادة حداب بني شبابة مجلد ١ ص ٤٢٨.
(٣) لا مانس : مدينة الطائف، ص ٣٢، ٨٣، الطبعة الفرنسية، ١٩٢٢.
(٤) القرآن الكريم : سورة محمد ، آية رقم ١٥.
(٥) القرآن الكريم : سورة النحل ، آية رقم ٦٩.
(٦) انظر القرآن الكريم ، سورة النحل ، آية رقم ٦٨.

العشر ، فقد كان الرسول يأخذ قربة عسل عن كل عشر قربات(١). ثم انقطعوا عن أدائها بعد وفاته، فكتب عامل الطائف إلى عمر بن الخطاب بذلك فأمره بأن يؤدوا إليه ماكانوا يؤدونه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ومن المعروف أن فى العسل العشر إذا كان فى أرض العشر، أما إذا كان فى أرض الخراج وفى الجبال والكهوف وعلى الأشجار فلا يؤخذ عليه العشر لأنه يكون بمنزلة الثمار(٢).

أما الصناعة، فقد عرف عن أهل الطائف نشاطهم الملموس فى هذا الميدان سواء كانت صناعات مدنية أو صناعات حربية اقتضتها ظروفهم وقتذاك للدفاع عن مدينتهم ومواردهم فيها(٣)، و يعود نشاطهم الصناعي والعمراني هذا إلى عراقة تحضّرهم(٤)، فبينما نجد كثيرا من القبائل العربية متنقلة نافرة من كل صناعة وزراعة، لأن الصناعة والزراعة فى نظرها من الأعمال التى لا تليق بالرجل الطليق الشريف، ولذلك كانت تعد من يشتغل بها دونها فى المنزلة ودون منزلة الأعراب، نجد أهل الطائف لا يستنكفون عن تعاطيها، و هذا سر تقدّمها فى الصناعة وحصولها على أهم مورد آنذاك(٥).

أما الصناعات التى عرفت فيها الطائف فهي صناعة الجلود (الأدم) ولهذا وصفها الهمداني بأنها «مدينة قديمة، وهي بلد الدباغ، تدبغ فيها الأدم الطائفية المعروكة»(٦). وقد ذكر ابن المجاور أن الأدم يدبغ فى الطائف و يباع على شكل طاقات والدباغ حرفة أكثرهم»(٧). والواقع أن اعتماد أهل الطائف على الجلود

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ج ١، ص ٦٧. يؤخذ زق عن كل عشرة زقاق.
أبو عبيد : كتاب الأموال، ص ٦٦٧ — ٦٦٨، تحقيق : محمد خليل. مطبعة الأزهر — القاهرة، ١٩٦٨.

(٢) البلاذري : فتوح البلدان، ج ١، ص ٦٧.
أبو يوسف : كتاب الخراج، ص ٤٠.

(٣) ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي، ص ٥٠، مطبعة دار المعارف.

(٤) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص ١٢٠ — ١٢١.
دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥.

(٥) جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ٨، ص ١٥٢، طبعة بغداد.

(٦) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص ١٢٠ — ١٢١، تحقيق عبد الله النجدي.
دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥. ترجمة عبد الحميد يونس.

(٧) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن (تاريخ المستبصر) ص ١٣.

كان كبيرا، لأنها كانت متيسّرة لديهم وهي أسهل فى العمل من الخشب أو الحديد أو الأشياء الأخرى بالنسبة إلى عمّال جزيرة العرب فى ذلك العهد. لذا كانت هذه الحرفة ذات شأن عندهم(١). ولم نجد عند أشراف هذه المدينة أية غضاضة فى تعلّم هذه المهنة والمهن الصناعية الأخرى. فعروة بن مسعود الثقفي وهو من أكابر القوم وعيلان بن سلمة ذهبا إلى جرش فى اليمن لتعلم حرفة صناعة الدبابات والمجانيق هناك(٢). وقد كان الناس كافة يتعلمون الحرف الصغيرة المتنوعة والصناعات المتعددة خارج الطائف و يعودون إلى بلدهم مكتسبين الخبرات المتعددة نتيجة ميلهم لهذه الحرفة وعدم استنكافهم عنها(٣).

ولهذا التمركز الصناعي فى الطائف أثره فى التجارة، سواء مع القبائل والمدن المجاورة أو العالم الخارجي، وبذلك أصبحت الصناعة من المصادر الهامة فى الاقتصاد الطائفي وقتئذ. هذا بالاضافة إلى صناعة الخمور التى كثر عليها الطلب لأنها صناعة محلية وأقل ثمنا من الخمور الأجنبية التى كانت تستقدم من الشام والعراق(٤).

أما التجارة، فلقد لعبت دورا هاما فى حياة أهل الطائف الاقتصادية، ولقد عرفت المدينة فى العصر الجاهلي الأخير بأنها مركز تجاري يلي مكة من حيث الأهمية لتوسطه بين الحجاز واليمن والعراق، تربطه بهذه البلاد علاقات تجار ية وليدة، وأغلب هذه العلاقات تأتي بالتعاون مع قريش، صاحبة اليد الطولى، فى التجارة لترو يج بضائعها فى تلك الأماكن(٥). وكانت مادة الطائف التجار ية منتوجاتها الزراعية والصناعية، كالزبيب والحنطة والعسل والخمور والخشب والأدم المعروكة وهذه بضائع لا يستغنى عنها فى شبه الجزيرة العربية وخارجها، وخاصة قربها من منطقة الأسواق كسوقي عكاظ ومجنة، وكان لتنوّع محاصيلها أثر فى

(١) جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ٨، ص ١٥٣، طبعة بغداد.
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية، مجلد ٣، ص ٣٤٥ وما بعدها، طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٥٣.
جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ١، ص ١٥٤.
ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي، ص ٥٠.
(٣) وات : محمد فى مكة، ج ١، ص ١٧، تعريب شعبان بركات.
(٤) فيليب حتى : تاريخ العرب، ج ١، ص ١٤٣ — ١٤٤.
(٥) وات : محمد فى مكة ص ٢١٩، تعريب: شعبان بركات.

جعلها مركزا من مراكز التبادل التجاري(١). وكان لفقر القبائل المحيطة بالطائف والبعيدة عنها والتى لم تمتهن الزراعة والصناعة أثر كبير فى ترويج تجارة الطائف وأن تصبح لها سوقا هاما لتصريف منتجاتها، مما أتاح لها ازدهارا اقتصاديا، وقد تمثل ذلك فى تدفّق الأموال واستثمارها لصالح المدينة والقبيلة معا(٢). هذا بالاضافة إلى ارتباط ثقيف بكل من فارس والشام ومصر بعلاقات تجارية. فغيلان بن سلمة الثقفى، أحد وجوه ثقيف بالطائف، اشتغل بالتجارة مع العراق وفارس، وقد بنى له كسرى بالطائف (اطما) وكان قصرا مبنيا بالحجارة(٣). وكذلك وجد فى الشمال على طول الطريق التجاري الذى يصل مابين جنوب الجزيرة وبلاد الشام أبنية مخصصة لحماية الطريق التجاري ومراقبته اتقاء من اعتداءات البدو(٤). وسواء كانت التجارة داخلية أو خارجية، فقد كانت موردا كبيرا لأهل الطائف ومصدرا من مصادر الاقتصاد عندهم، ساهمت فى غناهم وزيادة أموالهم ومكنتهم من المساهمة فى بناء وتحصين مدينتهم ضدّ الأعداء المتربصين بها، وخاصة القبائل المحيطة بهم.

ومن الثابت أن أكثر تجارة الحجاز كانت تسلك الطرق البرية وتتحاشى ركوب البحر. ويذكر الدكتور جواد علي فى كتابه العرب قبل الاسلام أن أرباح العرب من التجارة البرية و عدم توفر السفن لديهم، قد حالت بينهم وبين البحر والاستفادة من تجارته، فانصرفوا للاتجار بالطرق البرية السالكة الآمنة التى لا تكلفهم كثيرا، ولا تعرّضهم للمخاطر التى يتعرّض لها راكبو البحار(٥). لكن إعراضهم عن التجارة البحرية لا يعنى عدم معرفتهم بالبحر، فيذكر الدكتور أحمد الشريف: «أن الآيات القرآنية التى تشير إلى البحر وعواصفه وما يجرى فوقه وما يستخرج من جوفه، والتى تمتاز بوضوحها وجلائها الرائع ليست إلاّ صدى للنشاط التجاري والاتصالات البحرية بين الحجاز والحبشة وغيرها، وأنها تحمل

(١) جمال سرور: الدولة العربية، ص ٤٦.
(٢) لامانس: مدينة الطائف، ص ٣، الطبعة الفرنسية، ١٩٢٢.
(٣) الآلوسي: بلوغ الارب، ج ١، ص ٣٢١.
لا مانس: مدينة الطائف، ص ١٠، الطبعة الفرنسية.
(٤) لا مانس: مدينة الطائف، ص ١٠، الطبعة الفرنسية.
(٥) جواد علي: العرب قبل الاسلام، ج ٨، ص ١٢٣، ١٢٤ طبعة بغداد.

طابع الخطاب الغريب الموجه إلى المخاطبين وهم من أهل الحجاز، وما كان لهؤلاء من صلة بالأعمال البحرية المتنوعة وما كان يقوم فى ثغور الحجاز وبخاصة مدنه وتجاره من منافع عظيمة، وأن كثرة الآيات وتكرار التعداد وتنوع الأساليب، وهذه الحفاوة القرآنية فى الاشارة إلى البحار وما فيها من منافع ما هو إلاّ صدى لما كان عليه أهل الحجاز من تعامل تجاري عن طريق البحر، وانهم كانوا يعرفون البحر وركوبه و يستخدمونه فى أغراضهم المختلفة، ورغم أن أهل الحجاز لم يكونوا يمتلكون السفن، فان هذا لا يعنى عدم اشراك تجارتهم عن طريق البحر ومنعها منه(١). و يذكر عمرو بن كلثوم فى معلقته بأنهم جابوا الدنيا، برّا وبحرا، فضاق البر عن بيوتهم والبحر عن سفنهم حيث يقول(٢):

ملأنا البر حتى ضاق عنّا　　وظهر البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الفطام لنا صبي　　تخر له الجبابيرُ ساجدينا

ومن هذه الأبيات يتّضح أن عروضهم عن البحر لا يعنى فى دمهم كرها له وخوفا منه، انما لأنهم كانوا بعيدين عنه وليست لديهم المواد الكافية لبناء المراكب القوية المتينة الضخمة التى يكون بمقدورها حمل الناس بأمان وسلامة(٣).

ولقد كان فى الطائف جالية من اليهود اشتغلت بالتجارة(٤). إلا أن الربا فى المعاملات التجارية هو الذى كان شائعا عندهم حتى أن القرآن الكريم وجّه اليهم اشدّ تقريع(٥)، قال سبحانه وتعالى: «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا

---

(١) أحمد الشريف: مكة والمدينة (المقدمة) ص ٢٠٩ — ٢١٠، (بتصرف) طبعة دار الفكر.
انظر الآيات التى تشير إلى البحر:
الأنعام ٩٦، النور ٣٩، يونس ٢١، النحل ١٣، الاسراء ٦٦، فاطر ١١، الشورى ٣١ — ٣٢، الرحمن ١٨ — ٢٤.
الطبري: الرسل والملوك، ج ٢، ص ٥٥، طبعة دار المعارف.
سعيد الأفغاني: أسواق العرب، ص ١٩.
(٢) عمرو بن كلثوم — المعلّقة — شرح المعلقات السبع للزوزني، ص ٢٢٤، طبعة بيروت.
(٣) جواد علي: العرب قبل الاسلام، ج ٨، ص ١٢٤.
(٤) مجلة المشرق الكاثوليكية: ترجمة لكتاب لا مانس، جزء ٢٩، ص ٨١٥، المطبعة الكاثوليكية.
البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٦٦، مطبعة النهضة المصرية.
(٥) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية رقم ٢٧٥.

كما يقوم الذى يتخبّطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا، انما البيع مثل الربا، وأحلّ الله البيع وحرّم الربا فمن جاءه موعظة من ربّه فانتهى فله ماسلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»(١).

ولكن التعامل بالربا فى العصر الجاهلي الأخير لم يكن خاصا بيهود الطائف بل كان أغلب التجار العرب يتعاملون به ولا يرون فيه شيئا معيبا مطلقا، بل كانوا يعتبرونه نوعا من البيع، وكان للمتعامل بالربا فى مدينة الطائف شهرة فائقة عند جميع مدن الحجاز، وكذلك كان نصارى نجران يتعاملون به(٢).

وتعتبر الطائف منطقة اصطياف لأهل مكة وغيرهم من أهل الحجاز، حيث المناخ المعتدل لوقوعها على سفح عالٍ من سفوح جبال السراة الحاجزة بين الحجاز وقلب شبه الجزيرة العربية، وقد جعلها وقوعها على منبسط فسيح خصب التربة كثير المياه بارد الهواء، كثير الفواكه والزروع كالمصيف يلجأ إليها الناس فى أشهر الصيف إذا اشتد الحرّ بهم.

وقد تغنّى الجغرافيون القدماء بجمال الطائف وعذوبة هوائها وكثرة زروعها ونضارة العيش فيها، يقول المقدسي فى أحسن التقاسيم: «الطائف مدينة شامية الهواء باردة الماء كثيرة الفواكه، إذا تأذى ملوك مكة بالحرّ خرجوا إليها حيث كانت مصيفاً لهم(٣).

وذكر فى أخبار مكة «أن الطائف مصيف أهل مكة(٤)». ويذكر ياقوت أن المصطافين كانوا مغتبطين بالطائف، ويؤثر عن معاوية بن أبى سفيان أنه قال: إن أغبط الناس عيشا من يعيش بالطائف، ويصف النميري زينب أخت الحجاج بالنعمة والرفاهية، فيقول:

تشتوا بمكة نعمة ومصيفها بالطائف(٥).

---

(١) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية رقم ٢٧٥.
(٢) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب، ص ١ مطبعة الاعتماد المصرية.
ابن رستة : الاعلاق النفيسة، ص ٦١
(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٧٩.
(٤) الأزرقي : أخبار مكة، ج ٢، ص ١٥٧ هامش رقم ٦، طبعة مكة.
(٥) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ١٢، مادة الطائف.

وقد بلغ إعجاب العرب بهواء الطائف وكثرة فواكهها وزروعها أنهم قالوا: أنها كانت فى الأصل قطعة من أرض الشام حملتها الملائكة إلى الحجاز استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام[١].

ومن الثابت أن سراة أهل مكة كانوا يملكون ضياعا فى الطائف يلمون بها فى أشهر الصيف، هربا من حرّ مكة، ونقرأ فى السيرة النبوية خبرا يرويه الطبري عن عروة بن الزبير يفهم منه، أنه عندما اشتد الصراع بين المسلمين وأبى جهل وجماعته أسرع كبار القرشيين فى الطائف إلى مكة ليتلافوا الأمر وكانوا يصطافون هناك، وكان الوقت آنذاك فى أواخر الصيف[٢].

ويؤيد هذه الحقيقة المؤرخون المحدثون فنقرأ فى دائرة المعارف الإسلامية خبرا يقول: كانت الطائف عشية الهجرة مركزا فريدا بين مدن الحجاز لجوّها المنعش وفاكهتها اللذيذة وأعنابها وزبيبها ومياهها المعسلة الباردة وموقعها المرتفع البارد جعلها أقرب إلى بلاد الشام ومصيفا لأهل الحجاز[٣].

ويقول الدكتور جواد علي: «لقد كانت الطائف، ومازالت، مصيفا طيبا يقصده أهل مكة فرارا من وهج الشمس[٤]»

ويؤكد هذا المعنى المستشرق الفرنسي القديم سيديو حيث يقول: أن ربوع الطائف الغني حيث المناخ المعتدل والمياه العذبة جعلته مصدرا من مصادر الثروة الاقتصادية، فقد كان المصيف الأول لأهل مكة[٥].

ويذكر الدكتور أحمد الشريف «أن صلات قريش كانت وثيقة بقبيلة ثقيف بالطائف، وقد كانت الطائف مصيف أهل مكة آنذاك»[٦].

---

(١) الأزرقي : أخبار مكة، ج ١، ص ٧٧، طبعة بيروت.
ابن عراق : نشر اللطائف ، ص ١٢١ — مخطوط — مكتبة الأوقاف العامة، بغداد، تحت رقم ٤٧٩٦ تاريخ.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٢، ص ٣٢٨، طبعة دار المعارف المصرية.

(٣) دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥، ترجمة عبد الحميد يونس.

(٤) جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ٤، ص ٢٠٩.

(٥) سيديو : تاريخ الاسلام، ص ٢٢، ترجمة : عادل زعيتر.

(٦) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٤٧، طبعة دار الفكر بدمشق.

ومن هذا كله يتبين لنا أن الطائف تحتل بين مدن الحجاز مركزا ممتازا من حيث خصوبة أرضها ووفرة ثمارها واعتدال هوائها، وقد عرف أهل الطائف باتباعهم سياسة الحياد وعدم الانحياز إلى أية جماعة كبرى من الجماعات المتصارعة فى الحجاز وشبه الجزيرة العربية، كيف يحفظون على مدينتهم مكانتها ويفيدون بصفة مستمرة من ميزاتها الطبيعية دون أن يدخلوا فى مشاكل سياسية أو اشتباكات حربية مع القبائل والمدن المجاورة، مما كان من الممكن أن يؤدى إلى ضياع فوائد هذا الوضع الجغرافي الفريد الذى امتازت به مدينتهم.

العلاقـات الإقتصـادية
بين الطائف والمدن الأخرى والقبائل المجاورة لها

لا شك أن وضع الطائف الاقتصادي قبل الدعوة الإسلامية وعشية الهجرة كان قويا متينا، لما كانت تتمتع به المدينة من موارد الانتاج كالزراعة والصناعة والتجارة(١). فالباحث فى العلاقات الاقتصادية بين الطائف والمدن الأخرى، لا بدّ من أن يتجه أولا نحو دراسة العلاقات الاقتصادية بين مكة والطائف وبخاصة بين قبيلتي ثقيف وقريش. فالصلات الاقتصادية وثيقة بين القبيلتين، ولا يكاد يوجد غني فى مكّة إلا وله بستان أو أرض فى الطائف(٢). فللعبّاس بن عبد المطلب أرض بالطائف وكان الزبيب يحمل منها فينبذ فى السقاية للحجاج، وكانت لعامة قريش أموال بالطائف مستثمرة فيها، وبعد فتح مكة طمعت ثقيف فيها حتى إذا فتحت الطائف أقرت فى أيدى المكيين وصارت أرض الطائف مخلافا من مخاليف مكة(٣)، حتى اعتبرت مكة أشبه بمصرف كبير، فالقوافل التجارية الكبيرة لم تكن لشخص واحد، وانما كانت هناك طرق لجمع المال من عدة أسر معروفة مثل أمية ومخزوم ونوفل وهاشم وبعدها تستثمر فى أرض وتجارة الطائف(٤). ولم تكن هذه العلاقة بينهم محض صدفة، بل كان بين القبيلتين اتفاق مصلحة بينهما، وهو اتفاق وثّقت عراه روابط المصاهرة بين قريش والأحلاف من أهل الطائف، ولقد كان الكثير من أهل مكة يعيشون فى الطائف، وكان من يقيمون من أهل الطائف فى مكة لا يكادون يقلون عن أولئك، يعيشون فيها أحلافا لأسرها الكبيرة وبخاصة الأمويين الذين كان لهم

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥، ترجمة : عبد الحميد يونس.

(٢) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٤٧، طبعة دار الفكر.

(٣) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٦٣، الطبعة الأولى، مطبعة الموسوعات، ١٩٠١.
الأزرقي : أخبار مكة، ج ١، ص ١١٤، طبعة دار الأندلس.

(٤) عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية، ج ١، ص ٧٩ — ٨٠ مطبعة الأنجلو المصرية، ١٩٦٥.

نفوذ واسع وأهمية اقتصادية كبيرة فى الطائف، فللأخنس بن شريق الثقفي وعدي ابن أبى حمراء الثقفي دور بمكة ولآل الأخنس شعب فيها(١). وكان تجار مكّة يجلبون من الطائف الخمور والزبيب والأدم (الجلود المدبوغة) وهي مادتهم التجارية الرئيسية(٢). ولصناعة الأدم مكانة فى تجارة مكة، فبعد هجرة الحبشة أرادت قريش استرجاع المهاجرين إليها فبعثت عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة، فأخذا للنجاشي هدايا من الأدم، ولم يتركا من بطارقته واحدا إلا أهديا له هدية منها(٣). ولم يقتصر الأمر على الجلود ، بل كان أهل مكة يستهلكون كثيرا من أعناب الطائف ورمّانها وتمورها، كما شارك الثقفيون فى قوافل مكة التجارية المبيعة فى الأسواق القريبة كسوق عكاظ مثلا(٤). وتشير الآية القرآنية: «وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»(٥). إلى خطورة وأهمية رجال الطائف، وأنهم يماثلون أهل مكة قوة وجاها، وفى هذا اشارة إلى ما كان بين مكة والطائف من ترابط وعلاقات وقد بلغ بعضهم مبلغ

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥، ترجمة: عبد الرحمن يونس.
الأزرقي : أخبار مكة، ج ٢، ص ٢٥٦، ٢٨٧، طبعة مكة.
احسان العمد : الحجاج بن يوسف الثقفي، ص ٧٩، طبعة بيروت.
البلاذري : فتوح البلدان، ج ١، ص ٦٦، طبعة دار النهضة المصرية.

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض، ص ٣٦، طبعة بيروت.
أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٤٧، طبعة دار الفكر.
لا مانس : مدينة الطائف، ص ٣٢، الطبعة الفرنسية، ١٩٢٢.

(٣) ابن هشام : السيرة، المجلد ١، ص ٣٣٤، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
اليعقوبي : تاريخ، ج ١، ص ٢٤٣، ويذكر أهمية الأدم الطائفية.

(٤) عبد العزيز سالم : تاريخ العرب فى العصر الجاهلي، ص ٣٧٦، طبعة دار النهضة العربية.
أحمد الشريف : مكّة والمدينة، ص ١٤٧، طبعة دار الفكر.
طه حسين : اسلاميات، ص ١٦ — ١٨، الطبعة الأولى، طبعة دار الآداب، ١٩٦٧.

(٥) القرآن الكريم : سورة الزخرف، آية رقم (٣١).
ولقد أشار ابن كثير فى كتاب تفسير القرآن العظيم إلى هذه الآية فقال: إن انزال القرآن على رجل عظيم كبير فى أعينهم من القريتين ويعنون مكة والطائف، والرجلان أرادوا بها الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي، ويقول الظاهر انهم كانوا يعنون رجلاً كبيراً من أية البلدين كان، وهذا يدل على ما كان للطائف من أهمية فى نظر أهل مكة وقتذاك.
أبو الفداء ابن كثير : تفسير القرآن العظيم، المجلد الرابع، ص ١٢٦ — ١٢٧ طبعة دار احياء الكتب العربية.

السيادة فى البطون القرشية كالأخنس بن شريق، حليف بنى زهرة الذى كان مسموع الكلمة فيها مطاعا، كما كانت قريش تشرك رجال الطائف فيما يهمّها من الأمور الكبيرة، وقد كان عروة بن مسعود الثقفي أحد الرسل الذين بعثت بهم قريش لمفاوضة النبي صلى الله عليه وسلم عند نزوله الحديبية(١).

يتّضح لنا من الدراسة تعدد الصلات والعلاقات بين الطرفين واشتراك ثقيف فى تجارة قريش حتى صار لها دور فعّال فى تجارة الشمال والجنوب، حتى إن الطائف أخذت تنافس مكة فى التجارة وإن كانت مكة تتمتع بمركز قوي(٢). هذه العلاقات تعزّزت بين الجانبين لما كان بينهما من روابط ومصالح اقتصادية مشتركة إذ كانت كل منهما مركزا اقتصاديا مزدهرا قبل الإسلام بحكم كونها محطة من محطات التجارة بين اليمن وبلاد الشام من جهة ومركزا للتبادل التجاري المحلي مع القبائل العربية المجاورة من جهة أخرى(٣). فالطائف ومكة كلتاهما تكمل الأخرى حيث انتشرت الزراعة الواسعة والصناعة فى الأولى، فى حين احتفظت الأخرى بمكانتها التجارية والدينية معا، والزراعة والصناعة عنصران هامان من عناصر التجارة، إذ لولاهما لم تقم هناك تجارة. لذا، نجد عددا ليس بالقليل من أغنياء الطائف يتعاملون بالتجارة واقراض المال مع تجّار مكة، ولهذه العلاقات أثرها فى استثمارات أهل مكة لأموالهم فى زراعة وصناعة الطائف، ونتيجة لذلك ظهرت الملكيات الزراعية فى الطائف للقرشيين الأثرياء الذين كانوا يؤمون هذه المدينة خلال فصل الصيف للترويح عن النفس حيث الضياع والدور والبساتين والجو المنعش هناك(٤).

(١) الواقدى: المغازي ، جـ ٢، ص ٥٩٤، طبعة أكسفورد.
أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٤٧ — ١٤٨، طبعة دار الفكر.

(٢) ابن المجاور : تاريخ المستبصر، ص ٢١ — ٢٢. طبعة ليدن، ١٩٥١.
مونتجمرى وات : محمد فى مكة، ص ١٧ — ١٨، تعريب شعبان بركات، طبعة المكتبة المصرية، ١٩٥٢.

(٣) مونتجمرى وات : محمد فى مكة، ص ١٧ — ١٨، تعريب شعبان بركات،
احسان العمد : الحجاج بن يوسف الثقفي، ص ٧٩، طبعة بيروت.

(٤) ابن المجاور : تاريخ المستبصر، ص ٢١ — ٢٢، طبعة ليدن.
أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ٢٤، طبعة دار الفكر.
احسان العمد : الحجاج بن يوسف الثقفي، ص ٧٩.

وكان لقرب المدينتين من بعضهما بعضا ووجود القبيلتين القويتن فيهما أثر فى زيادة الصلة بينهما، لكن ذلك لم يمنع من وقوع التنافس بينهما فى مسائل الحسب والنسب وميادين الشرف والتجارة، قال ابن خلدون فى تاريخه: «قريش وملكهم فى مكة، وكانت ثقيف جيرانهم بالطائف يساجلونهم فى مذاهب العروبية وينازعونهم الشرف، وكانوا من أوفر قبائل هوازن»(١). كل ذلك أدى إلى زيادة الصلة بينهما وأصبحتا أشبه بمجمع تجاري مشترك، إذ لا يمكن لمكة أن تقوم بدور دون الطائف التى تمدها بتجارة التصدير، وأصبحت الأسواق مركزا تجاريا هاما لهما لكن الأرجح أن هذه العلاقات لم تتوطد إلا بعد حروب الفجار التى وقعت بين قريش وكنانة من جهة وهوازن وثقيف من جهة أخرى(٢). وسنفرد بابا لهذه الحروب فيما بعد.

والعلاقة الثانية، بين ثقيف وهوازن ومجموعة قبائل قيس عيلان علاقات أسرية، فهم جمياً ينتمون لجدّ واحد(٣)، وتبع ذلك توطيد العلاقات بينهم ومنها العلاقات الاقتصادية المبنية على العلاقة الأسرية والقبلية. ولم تشر المصادر إلى أن هناك علاقة اقتصادية واضحة بين ثقيف ومجموعة قبائل قيس عيلان، وهذا موقف مشترك بين كل المجتمعات البدوية فى شبه الجزيرة العربية تجاه مجاوريها من البدو، لكن الثقفيين استطاعوا إيصال منتجاتهم إلى كلّ القبائل المحتاجة لها عن طريق الأسواق التى تشترك فيها القبائل، ولقد كان لهوازن ومجموعة قبائل قيس عيلان دور ومكان فى الأسواق، وسنبيّن ذلك فى فصل حروب الفجار(٤).

والعلاقة بين الطائف والمدينة (يثرب)، كانت على قدر كبير من التقارب، سياسيا واجتماعيا،وامتد ذلك إلى الحياة الاقتصادية وقد قربت بينهماحرفة الزراعة وحضارة المدن لأن كليهما صاحب زراعة وحضر(٥). وهناك تشابه فى المصلحة، لذا

---

(١) ابن خلدون : كتاب العبر، المجلد ٢، ص ٦٩٩، طبعة دار الكتاب اللبناني ١٩٦٦.

(٢) جواد علي : المفصل فى تاريخ العرب، ج ٥، ص ٣٨٠ وما بعدها.

(٣) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٥٩ — ٢٦٦.

(٤) ابن حبيب : كتاب المحبر، ص ٢٦٧.

لا مانس : مدينة الطائف، ص ٤، الطبعة الفرنسية، ١٩٢٢.

(٥) فيليب حتى : تاريخ العرب المطوّل، ج ١، ص ١٤٦.

حاولت الأحلاف التقرّب إلى الأوس وانشاء نوع من الحلف بينها ضد بنى مالك، لأن الصراع كان قائما بين الأثنين، فلم ترض الأوس بذلك وطالبت الأحلاف بوجوب المصالحة وإنهاء النزاع لأن ذلك يجلب الكوارث على الطرفين(١). لكن الأرجح أن بين الأوس وأحلاف الطائف تشابها فى الظروف الاجتماعية والقبلية، ولأن الأوس أقلية من الناحية العددية، ولو أنهم لم يكونوا أقل من الخزرج من ناحية القوة، ولأن الأوس مهدّدة بالخزرج، هذا التشابه يكاد يكون له دور فى خلق مثل هذه العلاقة بينهما.

الأسواق التجارية فى العصر الجاهلي الأخير ومركز الطائف منها:

كان للعرب فى العصر الجاهلي الأخير وصدر الإسلام أسواق يعتمدونها فى شهور السنة المختلفة، ولعل السبب فى اختلافهم فى تاريخ قيام الأسواق، ان العرب لم يكونوا يلتزمون كل سنة يوما معيّنا لاقامة السوق و يوما لتقويضها وقد تختلف العادة من سنة إلى أخرى، ومن هنا كان التعاون، وإن كان يسيرا(٢). وكان العرب يتنقلون من بعضها إلى بعض وتحضرها سائر القبائل العربية، البعيد منها والقريب، لغرض البيع والشراء، واقامة المناظرات الأدبية والفكرية حيث يلتقى فيها اليمني والعراقي والعماني والشامي والنجدي والحجازي وتؤمها تجارة قريش وغيرها من الأمم الأخرى، كل منها تعرض ماللديها من بضاعة(٣). وبذلك توثقت الصلات والعلاقات التجارية عن طريقها مما جعل قسماً منها ثابتاً، مثل عكاظ ومجنة وذى المجاز حيث تلتقى فيها العرب للمبادلة والمتاجرة والمناظرة معا(٤).

ولقد كانت منتجات الطائف الزراعية والصناعية كثيرة تفيض عن حاجاتها

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، المجلد ١، ص ٦٨٦، طبعة بيروت.
مونتجمرى وات : محمد فى مكة، ص ٢١٩ — ٢٢٠، تعريب: شعبان بركات.

(٢) القلقشندي : نهاية الارب، ص ٤٦٤، مطبعة الشركة العربية.
سعيد الأفغاني : أسواق العرب، ص ٢١٧ — ٢٢٥، طبعة دار الفكر، ١٩٦٠
ابن حبيب : كتاب المحبر، ص ٢٦٦ وما بعدها.

(٣) القلقشندي : نهاية الارب، ص ٤٦٤، الشركة العربية للطباعة.

(٤) عبد الله بن خميس : المجاز بين اليمامة والحجاز، ص ٢٤٢ — ٢٤٣.

المحلية لذا كان فائضها وهو كثير يأخذ طريقه إلى هذه الأسواق التجارية، سواء مباشرة عن طريق أهلها أو بواسطة القوافل المكية المتاجرة معها(١).

ومن أشهر هذه الأسواق عكاظ ومَجَنة وذى المَجَاز ودومة الجندل(٢). ويضيف عليها ابن حبيب فى كتاب المحبر صحار ودبا والشحر وعدن والرابية، وتقع فى مناطق مختلفة من بلاد العرب وتقوم بأوقات متباينة(٣). وسنقصر الكلام على أهمها والاشارة إلى بقية الأسواق الأخرى، وهي:

اولا: سوق عكاظ *

كانت عكاظ أعظم أسواق العرب، وكانت تقوم فى سهل منبسط بين مكة والطائف، فهي أقرب إلى الطائف منها إلى مكة، حيث تقع جنوبه بمسافة تبلغ عشرة كيلو مترات(٤). وتختلف المصادر فى تحديد موقع عكاظ، فذكرت بعضها أنها تقع بين نخلة والطائف، وهي أرض فيها نخل لثقيف بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال(٥). بينما يذكر الأزرقي بأنها وراء قرن المنازل بمرحلة على طريق صنعاء فى عمل الطائف وهي سوق لقيس عيلان وثقيف وأرضها لنصر(٦). أما الرحالة ومنهم خير الدين الزركلي فيذكر أنها تقع فى وادى ليّة فى محلة تسمى اليوم «القهاوى» ويؤيد هذا القول الأمير شكيب أرسلان، أما عبد الله فلبّي فيرجح السيل الصغير موقعا لعكاظ(٧). أما الأفغاني فيذكر أنها كانت

---

(١) لا مانس : مدينة الطائف، ص ٣٢، الطبعة الفرنسية، سنة ١٩٢٢.

(٢) الأزرقي : أخبار مكة، ج ١، ص ١٨٨، طبعة دار الأندلس.

(٣) ابن حبيب : كتاب المحبر، ص ٢٦٥ ومابعدها.

* هناك عدة مؤلفات تناولت عكاظ من بينها أحدثها سوق عكاظ لعلي حافظ وصدر من المكتبة الصغيرة عام ١٣٩٦هـ وسوق عكاظ فى التاريخ والأدب، أصدره نادي الطائف الأدبي عام ١٣٩٦هـ وسوق عكاظ فى الجاهلية والإسلام لناصر الرشيد وصدر عام ١٣٩٧هـ ومن الذين درسوا موقع عكاظ وتاريخه دراسة جيدة سابقة للمؤلفات المشار إليها حمد الجاسر وعبد الرحمن عزام وابن بلهيد.

(٤) الأصفهاني : بلاد العرب، ص ٣٠ — ٣١، تحقيق صالح العلي وحمد الجاسر، طبعة دار اليمامة.

(٥) ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ١٤٢، طبعة بيروت.

(٦) الأزرقي : أخبار مكة، ج ١، ص ١٩٠، طبعة الأندلس، بيروت.

(٧) الزركلي : ما رأيت وما سمعت، ص ٧٩.
شكيب أرسلان : الارتسامات اللطاف، ص ١١٠.

على أرض واسعة تمتد من جنوب العشيرة إلى السيل الصغير(١). وهكذا نجد أن الأكثرية تجمع على أنها فى أعلى نجد. أما موعد قيام هذه السوق فى كل سنة مع بداية هلال ذى القعدة وتستمر لمدة عشرين يوما(٢). وعكاظ كانت أشبه بمعرض عام فى شبه جزيرة العرب، وكانت سوقا عظيمة يقصدها العرب من كافة أنحاء الجزيرة، وكانت قبائل مصر أكثر القبائل تواجدا فيها لوقوعها فى منطقتها(٣). ولقد ساعد على نمو هذه السوق قيامها فى الأشهر الحرم التى كان يحرم فيها القتال ويأمن الناس فيها على أموالهم وأنفسهم(٤). وقد حتمت الضرورات الاقتصادية أن تحاط الأسواق بما يضمن للناس الأمن فيها. وبهذه السوق كانت تباع مختلف التجارات والسلع الثمينة التى كانت تحملها قوافل التجارة من الشمال والجنوب والشرق والغرب وكان لتجارة قريش نصيب أكبر فيها لقربها من مكة وسيطرتها على تجارتها، وحتى البضائع المسروقة والمسلوبة كانت تباع فيها، هذا بالاضافة إلى قيام المناظرات والمباهاة والمسابقات فى قول الشعر والخطابة والبلاغة. وكثيرا ما كانت تعقد فيها مجالس الصلح والتحكيم بين القبائل فتحل المشاكل المعقدة، وفيها تحمل الديون والاتاوات إلى أصحابها. ومع أن عكاظ كانت تقوم فى الأشهر الحرم فانها لم تنج من قيام الحروب فيها كحرب الفجار مثلا(٥). وكان لمنتجات الطائف المختلفة من زراعية وصناعية مكانة كبيرة فيها وبخاصة عن طريق قريش آنذاك.

ومن المرجح أن هذه السوق قد قامت فى القرن الخامس الميلادي وعمرت أكثر من قرنين ونصف واستمرت حتى ظهور الإسلام وبعده(٦).

محمد حسين هيكل : منزل الوحي، ص ٣٨٠.

(١) سعيد الأفغاني : أسواق العرب، ص ٢٨٨.

(٢) الأزرقي : أخبار مكة، ج ١، ص ١٨٧، طبعة دار الأندلس، بيروت.
وإن كان ابن حبيب يذكر أن السوق تقوم فى منتصف ذى القعدة وتستمر إلى نهايته.
ابن حبيب : كتاب المحبر، ص ٢٦٧.

(٣) الأزرقي : أخبار مكة، ج ١، ص ١٨٨.
عبد الله بن خميس : المجاز بين اليمامة والحجاز، ص ٢٤٢ — ٢٤٩.

(٤) الأشهر الحرم هي أربعة : رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرّم لا يجوز فيها القتال.
اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١١٠، طبعة بيروت.
ابن هشام : السيرة، المجلد ١ — ٢، ص ٤٣،طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٥) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٤ — ٨٧، طبعة دار الفكر.

(٦) عبد الله بن خميس : المجاز بين اليمامة والحجاز. ص ٢٤٧.

ثانيا: سوق مجنة وذي المجاز

أما مجنة، فتقع فى مر الظهران و يشرف عليها جبلا شامة وطفيل، وهي على بعد عدة كيلومترات من مكة ولا تبعد كثيرا عن الطائف، وكانت سوقا لكنانة، كما كانت تقصدها القبائل العربية فى الأيام العشرة الأخيرة من ذى القعدة(١).

وذو المجاز، سوق كانت لهذيل على مقربة من عرفة، أقرب لمكة من الطائف وتقوم فى أول يوم من ذى الحجة إلى يوم التروية، ثم يخرجون يوم التروية من ذى المجاز إلى عرفة، وكان يوم التروية آخر يوم من أيام أسواقهم(٢).

وهناك أسواق أخرى تقوم فى مواعيد مختلفة من السنة مثل دومة الجندل وصمار ودبا والشحر وعدن والرابية وصنعاء وحضرموت يؤمها الناس للبيع والشراء والمبادلة(٣).

أهمية مركز الطائف من الأسواق:

للموقع الجغرافي أهمية بالغة فى تحديد مركز الاقليم أو المدينة من الناحية الاقتصادية، لا سيا إذا كان ذلك الاقليم واقعا أو تلك المدينة واقعة فى منطقة تحيط بها القبائل من جهات مختلفة، وهذا ماينطبق على الطائف، بالاضافة إلى منتجاتها الزراعية وكيف كانت تلعب دورا هاما وبارزا وبخاصة الاسواق الهامة مثل عكاظ ومجنة وذى المجاز التى كانت كلها فى المنطقة الواقعة بين الطائف ومكة(٤). فالطائف مدينة حجازية أرضها خصبة ومياهها وفيرة وبذلك كانت أرضا زراعية منتجة لمختلف الأصناف الزراعية كالتمر والعنب والفاكهة المتعددة الأنواع والحبوب المختلفة بجانب الماشية والحيوانات(٥). أما انتاجها الصناعي فكان

(١) الأزرقي : أخبار مكة، ج ١، ص ١٩١، طبعة بيروت.

(٢) ابن حبيب : كتاب المحبر، ص ٢٦٨.
الأزرقي : أخبار مكة، ج ١، ص ١٩١، طبعة بيروت.

(٣) سعيد الأفغاني : أسواق العرب، ص ٢٢٤.

(٤) الأصفهاني : بلاد العرب، ص ٣٠ — ٣١، تحقيق: صالح العلي.

(٥) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص ١٢٠ — ١٢١، تحقيق النجدى.
عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ١٨٨ وما بعدها. طبعة القاهرة، ١٩٦٤.

الأدم وهي الجلود المدبوغة المصنعة تصنيعاً جيّدا، وبذلك كانت سلعة أكثر رواجا فى تلك الأسواق حتى قيل ان عكاظا كانت لا تتعدى بضائعه منتجات الطائف واليمن وبعض منتجات فارس والروم، ولتوفر الأمن والاستقرار والحرية لقيامها فى الأشهر الحرم، أهمية خاصة مما يتيح للبضاعة المعروضة أن تباع وتحقّق أكبر قدر ممكن من الربح، هذه الأرباح التى انعكست على أصحاب البضائع فوفرت لهم عملة التبادل وجعلتهم فى وضع اقتصادي يحسد عليه، ولقد أدرك أهل الطائف ذلك، لذا دافعوا عن بلدهم دفاعا مستميتا فى ساعات الخطر واشتداد الأزمات(١). ولقد نافس الثقفيون أهل مكة تجارتهم وحاولوا ابعادهم عن هذه الأسواق، فكانت حرب الفجار التى وقعت بينهم واشتركت ثقيف فيها بجانب هوازن ضد كنانة وقريش وان بدت هذه الحرب، لأول وهلة، حربا سبّبتها العصبيّة القبليّة والعادات الثأريّة(٢).

وكانت ثقيف قبيلة تاجرة طرحت سلعها فى أسواق القبائل الأخرى وشاركت أهل مكة تجارة هذه الأسواق واحتلت مكانة مرموقة بينها(٣).

حروب الفجار : أسبابها ونتائجها

الفجار بكسر الفاء، بمعنى المفاجرة، كالقتال والمقاتلة، وذلك أنه كان قتالا فى الشهر الحرام، ففجروا فيه جميعا فسمي الفجار(٤). والتسمية جاءت من وقوع هذه الحرب فى الشهور التى يحرمون فيها سفك الدماء وهي أربعة: رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرّم(٥). وهي فجاران الأول ثلاثة أيام وهي ليست حربا

---

(١) لا مانس : مدينة الطائف، ص ١٠ — ١١، الطبعة الفرنسية ١٩٢٢.

(٢) السهيلي : الروض الأنف، ج ١، ص ٢١١، طبعة القاهرة، ١٩٧١.

(٣) مونتجمرى : محمّد فى مكة، ص ٢١٩، تعريب: شعبان بركات.

(٤) ابن هشام : السيرة، مجلد ١، ص ١٨٤، طبعة الحلبي،١٩٥٥.
السهيلي : الروض الأنف، ج ١، ص ٢١١، طبعة القاهرة. تحقيق: عبد الرحمن الوكيل.

(٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١١٠، طبعة بيروت.
الأزرقي : أخبار مكة، ج ١، ص ١٩٢، طبعة الأندلس، بيروت.
السهيلي : الروض الأنف، ج ١، ص ٦٣ — ٦٤، طبعة القاهرة.

بالمعنى المعروف لهذه الكلمة، انما كانت مناوشات ومهاترات وقعت لأسباب عرفية تافهة وبسيطة انتهت إما بالمصالحة والتراجع أو باحتمال دماء القتلى(١).

فى اليوم الأول، وقعت الخصومة بسبب تطاول بدر بن معشر الغفاري وهو من كنانة على الناس بأن جلس بعكاظ فى الموسم والعرب مجتمعة فيه فمد رجله وقال: أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز منى فليضربها بالسيف. ونتيجة لهذا التحدّي وثب عليه رجل من هوازن اسمه الأحمر بن هوازن فضربه بالسيف على ركبته فقطعها، فتحاور الحيان أهل الضارب والمضروب حتى كاد أن يكون بينهما الدماء، لكنهم تراجعوا بعد أن عرفوا أن المشكلة بسيطة ولا تستحق الخصومة والقتال(١)، حتى إن ابن الأثير لم ير فى ذكره أمرا يستحق الذكر(٣).

وفى اليوم الثاني، وقعت الخصومة والقتال بسبب عبث شباب من قريش وكنانة بامرأة من بنى عامر بن صعصعة كانت جميلة ووسيمة وعليها برقع، فأرادوا كشف برقعها فامتنعت فثارت ونادت إلى عامر ونادى الشباب قومهم، فالتحموا فى قتال عاطفي لايستدعى ذلك، فوقعت بينهم دماء يسيرة انتهت بتوسط حرب بن أميّة والحارث بن أمية باحتمال دماء القوم ودفع الدية(٤).

واليوم الثالث وقع بسبب رجل من كنانة كان عليه دين لرجل من بنى هوازن ولم يعطه شيئا منه، ولما لم يجد بدا من تحصيل هذا الدين جاء بقرد إلى سوق عكاظ ونادى: من يبيعنى بمثل هذا القرد بما لى على فلان بن فلانة

---

(١) أبو الفضل ابراهيم : أيام العرب فى الجاهلية، ص ٣٢٢، طبعة الحلبي المصرية.
جواد علي : المفصّل فى تاريخ العرب، مجلد ٥، ص ٣٨٠.

(٢) الأصفهاني : كتاب الأغاني، ج ٢٢، ص ٦١، طبعة دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٠.
ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج ٥، ص ٢٥١.
أبو الفضل : أيام العرب فى الجاهلية، ص ٣٢٢ — ٣٢٣.
جواد علي : المفصل، مجلد ٥، ص ٣٨٠ — ٣٨١.

(٣) ابن الأثير : الكامل، مجلد ١، ص ٥٨٨، طبعة بيروت.

(٤) الاصفهاني : الأغاني، ج ٢٢، ص ٦٢، طبعة دار الثقافة، بيروت ١٩٦٠.
أبو الفضل : أيام العرب فى الجاهلية، ص ٣٢٤.
جواد علي : المفصل، مجلد ٥، ص ٣٨١، طبعة بيروت.
ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج ٥، ص ٢٥٢.

الكناني، فأغاظ الأمر رجلا من كنانة فضرب القرد بالسيف وقتله فاشتبك الطرفان، كنانة وهوازن حتى تحاجزوا ولم يقع بينهما قتلى فأصلح عبد الله بن جدعان، أحد أثرياء مكة بينهما(١).

ومدة الفجار الثاني كانت خمسة أيام وقعت فى أربع سنين وكانت بعد الفيل بعشرين سنة، وبعد موت عبد المطلب باثنتي عشرة سنة، وانتهت سنة ٥٨٩م (٢). وتذكر المصادر أن الرسول صلى الله عليه وسلم حضر يوم عكاظ مع أعمامه وكان يناولهم النبل، قال ابن هشام: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت أنبل على أعمامى، أى أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموا بها(٣). وقد اختلفت المصادر فى تحديد عمر الرسول وقت وقوع هذه الحرب، فبينما يذكر ابن هشام أن عمره كان ١٤ — ١٥ سنة، يخالفه اليعقوبي فيذكر أن عمره كان بين ١٧ — ٢٠ سنة، أما صاحب الأغاني فيؤكد أن عمره كان أربع عشرة سنة(٤).

والأرجح أن هذه الحروب بدأت والرسول عمره ١٤ سنة وانتهت وهو فى التاسعة عشرة أو العشرين.

كان الذى هاج هذه الحروب رجلا خليعا سكّيرا فاسقا هو البراض بن قيس بن رافع الكناني(٥). أتعب قومه فخلعوه وتبرّأوا منه، وصار يتنقل من قبيلة إلى

(١) ابن الأثير : الكامل، مجلد ١، ص ٥٨٨ — ٥٨٩، طبعة بيروت.
الأصفهاني : كتاب الأغاني، ج ٢٢، ص ٦٢، طبعة دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٠.
جواد علي : المفصل، مجلد ٥، ص ٣٨١، طبعة بيروت.
أبو الفضل : أيام العرب فى الجاهلية، ص ٣٢٥، طبعة الحلبي القاهرية.
ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٢٥٢.

(٢) ابن الأثير : الكامل، مجلد ١، ص ٥٨٩.
أبو الفضل : أيام العرب فى الجاهلية، ص ٣٢٢.
الأصفهاني : الأغاني، مجلد ٢٢، ص ٦٣، طبعة بيروت.

(٣) ابن هشام : إلسيرة، المجلد ١، ص ١٨٦، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٤) ابن هشام : السيرة، المجلد ١، ص ١٨٤ — ١٨٧.
اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ٢،ص ١٥، طبعة بيروت.
الأصفهاني : الأغاني، مجلد ٢٢، ص ٦٣، طبعة بيروت.

(٥) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٨٦، تحقيق : عبد السلام هارون.
أبو الفضل : أيام العرب، ص ٣٢٦.

أخرى يطلب الحماية والجوار، لكن الجميع لفظوه وتعبوا منه فذهب إلى مكة مستجيرا بحرب بن أمية، فحالفه وأحسن جواره، ولربما أن اجارته من قبل حرب بن أمية كانت فيها مصلحة له لاثارة الخلافات مع مجموعة قبائل قيس عيلان لانتزاع السيطرة منهم على طريق العراق التجاري مع الحجاز. لكنه شرب وعاد سيرته الأولى فخلعه حرب فخرج من مكة وذهب إلى الحيرة عارضا على النعمان بن المنذر حماية لطيمته التى كان يرسلها كل عام إلى عكاظ(١). وعندما سمع بذلك عروة الرحال وهو يومئذ رجل هوازن(٢)، احتقره وطلب من النعمان أن يجير هو لطيمته فقبل النعمان، لكن البراض تعقّبه وغافله وقتله واستاق اللطيمة إلى مكة ولما بلغ هوازن وكنانة مقتل عروة هاج الطرفان واشتبكا فى قتال استمر أربع سنين، وكانت أيامه خمسة هي: يوم نخلة، وشمطة والعبلاء وعكاظ والحريرة، انتهت هذه الحروب بالصلح وعودة العلاقات بين كنانة وقيس عيلان كما كانت فى السابق(٣).

ولا بدّ لنا من استعراض هذه الأيام الخمسة لنبيّن دور ثقيف فى هذه الحروب وسبب اشتراكها فيها.

فقد سمّي اليوم الأول «يوم نخلة» نسبة إلى موقع نخلة الذى وقع فيه القتال، وهو موضع على ليلة من مكة فيها نخل وكروم(٤). وقعت هذه الحرب بعد سماع هوازن بمقتل عروة الرحال من قبل البراض بن قيس، وكان نتيجة القتال أن دخلت قريش الحرم بعد أن أدركت هزيمتها حتى تأمن به، واعتبر هذا اليوم من أيام قيس عيلان على كنانة وقريش(٥).

(١) ابن الأثير : الكامل، مجلد ١، ص ٥٩٠.
جواد علي : المفصل، مجلد ٥، ص ٣٨١ — ٣٨٢.

(٢) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٨٦.

(٣) ابن الأثير : الكامل، مجلد ١، ص ٥٩٠ — ٥٩٥.
أبو الفضل : أيام العرب فى الجاهلية، ص ٣٢٦، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٧.
الأصفهاني : الأغاني ج ٢٢، ص ٦٤ — ٧٩، طبعة الثقافة، بيروت ١٩٦٠.
ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج ٥، ص ٢٥٦ — ٢٥٨.

(٤) البكري : معجم ما استعجم، المجلد الثالث، ص ١٣٠٤ — ١٣٠٥ تحقيق مصطفى السقا.

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ص ٥٩٢ — ٥٩٣.

واليوم الثاني يوم شمطة وهو نسبة إلى موضع قريب من عكاظ(١). وترأس المقاتلين سادات ذلك الوقت المعروفون. فعلى كنانة كلها «حرب بن أمية» ومعه عبد الله بن جدعان وهشام بن المغيرة(٢)، وعلى هوازن وسليم كلها مسعود بن معتب الثقفي واشتركت معهم قبائل أخرى مثل: بنو نصر وبنو جشم وفهم وعدوان وكلها من مجموعة قبائل قيس عيلان(٣). وبسبب تجاور منازل هذه القبائل. فبنو نصر كانوا يسكنون وادى ليّة شرقي الطائف(٤). وجشم مواطنهم بين تهامة ونجد(٥). وعدوان كانت منازلهم شرق الطائف(٦)، وسليم كانت منازلهم فى عالية نجد(٧). هذا التجاور خلق لهذه القبائل تشابها فى المصلحة، لا سيا وأن طريق العراق التجاري كان يمر بأراضى قيس عيلان. وكانت الدائرة فى أول النهار لكنانة على هوازن، لكن صمود هوازن قلب موازين المعركة لصالحها فانكشفت كنانة، واستمر القتال فيها، ولم يقتل من قريش أحد، فكان هذا اليوم لهوازن على كنانة وقريش(٨).

واليوم الثالث، هو يوم العبلاء، والعبلاء علم على صخرة بيضاء إلى جنب عكاظ(٩). ولقد عادت هوازن وكنانة إلى الحرب، فجمع القوم بعضهم إلى بعض

= جواد علي : المفصل ، مجلد ٥، ص ٣٨٢.
أبو الفضل ابراهيم : أيام العرب فى الجاهلية، ص ٣٢٩ — ٣٣٠.

(١) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٣، ص ٣٦٣، طبعة بيروت.
(٢) ابن الأثير : الكامل، المجلد الأول، ص ٥٩٣.
(٣) ابن الأثير : الكامل، المجلد الأول، ص ٥٩٣.
جواد علي : المفصل، مجلد ٥، ص ٣٨٢.
(٤) عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب، مجلد ٣، ص ١٨٨١، طبعة بيروت.
(٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٨٩.
(٦) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٦٢.
(٧) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٤٣.
(٨) ابن الأثير : الكامل، المجلد الأول، ص ٥٩٣.
جواد علي : المفصل، مجلد ٥، ص ٣٨٢.
أبو الفضل : أيام العرب فى الجاهلية، ص ٣٣١ — ٣٣٢.
(٩) الأصفهاني : كتاب الأغاني، ج ٢٢، ص ٧١، طبعة دار الثقافة، بيروت.
جواد علي : المفصل، مجلد ٥، ص ٣٨٣.
أبو الفضل : أيام العرب فى الجاهلية، ص ٣٣٣. =

والتقوا على قرن الحول بالعبلاء، وهو موضع قريب من عكاظ والرؤساء يومئذ على ما كانوا عليه يوم شمطة وفيه انهزمت كنانة(١). وفى هذا اليوم قتل العوام بن خويلد والد الزبير بن العوّام. قتله مرة بن معتب الثقفي، وفى ذلك يقول رجل من ثقيف(٢).

منّا الذى ترك العوام مجندلا تنتاب الطير لحما بين أحجار

واليوم الرابع من أيامهم كان يوم عكاظ وهو يوم استعداد كنانة للانتقام من هوازن على أثر هزيمتها فى العبلاء، فالتقوا فى هذا الموضع، وكان الرؤساء بحالهم، وحمل عبد الله بن جدعان يومئذ ألف رجل من كنانة على ألف بعير وخافت قريش أن يجرى عليها ما جرى يوم العبلاء من هزيمة، فقيّد حرب وسفيان وأبو سفيان بنى أمية بن عبد شمس أنفسهم وقالوا لا نبرح مكاننا هذا حتى نموت(٣). وقد اشتركت فى هذه الحرب سائر بطون كنانة والاحابيش وهم بنو الحارث بن عبد مناة وعليهم الحليس بن زيد وسفيان بن عوف، وكذلك سائر بطون قيس عيلان مثل هوازن وثقيف ونصر وفهم وعدوان وسليم، وكانت حربا ضروسا انتهت بهزيمة مجموعة قبائل قيس عيلان وانتصار كنانة عليها، وقد اشترك من ثقيف مسعود بن معتب الثقفي الذى أخرج معه أولاده عروة ولوحة ونويرة والأسود فكانوا يدورون وهم غلمان فى قبائل قيس يأخذون بأيديهم إلى خباء أمهم، ذلك الخباء الذى ضربه مسعود بن معتب لتدخله قريش وتأمن على روحها وهو نوع من الاستعلاء والاستصغار بقوة قريش، وكانت امرأة مسعود هي

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج ٦، ص ١٠٧.
الأصفهاني : الأغاني، ج ٢٢، ص ٧١.
جواد علي : المفصل، ج ٥، ص ٣٨٣.
أبو الفضل : أيام العرب فى الجاهلية، ص ٣٣٣.

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج ٦، ص ١٠٧.
أبو الفضل : أيام العرب فى الجاهلية، ص ٣٣٣.

(٣) الأصفهاني : الأغاني، ج ٢٢، ص ٧٣ — ٧٤، طبعة دار الثقافة.
جواد علي : المفصّل ، مجلد ٥ ، ص ٣٨٣.
أبو الفضل : أيام العرب فى الجاهلية، ص ٣٣٤ — ٣٣٥.

سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف، لكن هذا الخباء كان لقيس بعد هزيمتها، فقيل لذلك الموضع مدار قيس استهزاء بها(١).

واليوم الخامس يوم الحريُرة، والحريرة موقع بين الأبواء ومكة قرب نخلة(٢). والرؤساء بحالهم ماعدا بلعاء بن قيس فانه قد مات فحل محله أخوه جثامة بن قيس، وبعد قتال بينهم اتفقوا على الصلح وتسوية الديات وانصرف الناس عن الحرب(٣). ومن قتلى هذه الحرب العوّام بن خويلد وحزام بن خويلد وأحيحة بن أحيحة ومعمّر بن حبيب، ومن قتلى قيس الصمة وهو أبو دريد بن الصمة رجل هوازن المعروف الذى قتل فى حنين(٤).

وخلاصة القول أن حرب الفجار الأولى كانت مناوشات ومهاترات، وقعت لأسباب عرفية تافهة وبسيطة وانتهت بالمصالحة والتراجع أو باحتمال دماء القتلى كما بيّنا سابقا. فان الحرب الثانية لم تحدث لأسباب عرفية بسيطة كما هو معروف، وانما لعبت عوامل المنافسة للسيطرة على الطرق التجارية دورا بارزا فيها، لكن هذه المنافسة أخذت طابع الحرب القبلية بسبب مقتل البرّاض بن قيس الكناني لعروة الرحال رجل هوازن آنذاك، ولأن العادات والتقاليد والعرف عند العرب فى العصر الجاهلي أن الثأر لا يكون من شخص القاتل إلا إذا كان من بمكانة وقدر ومستوى المقتول. فالبرّاض رجل خليع وسكير وفاسق. والخليع فى نظر القبيلة فرد منفصل عنها لا تربطه بها أية رابطة، فكيف تحدث مثل هذه

---

(١) المصادر والصفحات ذاتها.

(٢) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٢، ص ٢٥٠، طبعة بيروت.
جواد علي : المفصّل، مجلد ٥، ص ٣٨٥.
أبو الفضل : أيام العرب في الجاهلية، ص ٣٣٧.
الأصفهاني : الأغاني، ج ٢٢، ص ٧٨ — ٧٩.

(٣) المصادر السابقة ذاتها.
بلعاء بن قيس هو من بنى الشداخ بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وجثامة بن قيس أخوه، وكان شاعرا وفارسا كبيرا.
انظر ابن حزم ، الجمهرة، ص ١٨٠ — ١٨١.

(٤) الأصفهاني : الأغاني ، ج ٢٢، ص ٧٨.
الواقدي : المغازى ، جـ ٣ ، ص ٩١٥.

الحرب من أجله؟. إن العرف والعصبية القبلية كانتا السبب المباشر لقيام مثل هذه الحرب.

و يذكر الدكتور أحمد الشريف(1). أن الأخذ بالثأر كان أمرا مفروضا على القبيلة، مهما كلّف ذلك من جهد ومال. ولم يفرقوا بين القتل الخطأ والقتل العمد وانهم كانوا يعالجون القتل بالقتل، حتى صار الأخذ بالثأر عقيدة ثابتة، والغرض منه حماية القبيلة، فالقبيلة إذا لم تأخذ بثأرها تسقط بين القبائل.

وخلاصة القول إن هذه الحرب دفعت إليها العصبية القبلية وطلب الثأر والمصلحة وغير ذلك من الأسباب التى كانت الحرب تقوم بسببها بين قبائل شبه الجزيرة العربية. هذا بالاضافة إلى العوامل الاقتصادية.

وأغلب الظن أن هذا الطريق – طريق العراق الحجاز – كانت تحت سيطرة قيس عيلان وبعد أن أنشأ قصي بن كلاب قوّة قريش واستولى على مكة وأقام خلفه عبد مناف ثم هاشم واخوته تنظيم تجارة مكة مع الشام والعراق واليمن وبقية أجزاء الوسط والشمال فى شبه جزيرة العرب، شعرت قيس عيلان بالطمع فى الاستيلاء على طريق العراق الذى يخترق أراضيها(2)، وبخاصة أن التجارة مع العراق تأتى بمكاسب وفيرة، ولقد كان أبناء عبد مناف هم أصحاب الفضل فى تنظيم هذه التجارة ووضع الترتيبات اللازمة مع القبائل التى تمر طرق التجارة فى أراضيها ثم مع حكام فلسطين وجنوب الشام من ناحية وبلاد الحيرة والعراق من ناحية أخرى(3). ولقد قام هاشم واخوته أبناء عبد مناف بتنظيم هذه التجارة تنظيما كاملا بالسياسة الماهرة التى رسموها للوصول إلى هذه الغاية(4)، والتى تتلخص فى:

---

(1) انظر أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ٣٤ وما بعدها، طبعة دار الفكر.

(2) ابن خرداذبه : المسالك والممالك، ص ١٩٠، طبعة بغداد.
جواد علي : المفصل، ج ٤، ص ٣٨ وما بعدها.

(3) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ١٣٦ – ١٣٧. تحقيق : مصطفى السقا. طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٣٦، ١٥٦ – ١٥٧.

(4) جواد علي : المفصل، ج ٤، ص ٣٨ وما بعدها.

أولا — تحويل مكة إلى أكبر مركز للتجارة فى شبه جزيرة العرب، مستندا فى ذلك إلى المركز الجغرافي الممتاز فى منتصف الطريق التجاري الهام بين اليمن والشام(١). هذا الطريق الذى استطاع أولاد عبد مناف ترتيب وتنظيم القوافل التجارية فيه، فأصبحت لها رحلتان هما رحلة الصيف إلى الشمال، ورحلة الشتاء إلى اليمن. وقد ذكر القرآن الكريم خبر هاتين الرحلتين فى معرض تعداد فضل الله على قريش(٢). قال تعالى: «لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا ربّ هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف»(٣). وقد كان تجار مكة يحملون بضائع هذا الطريق إلى الشام والجنوب بعد خروجهم من مكة، وقد اعتمد كل من الرّوم والفرس على هذا الطريق(٤).

وكذلك إلى المركز الديني الممتاز لمكة فى شبه الجزيرة كلها، فوجود الكعبة كان يجتذب إليها الحجاج من كافة نواحى شبه الجزيرة، حيث أن الحج إلى الكعبة فرض الهي قديم ومعترف به، وان الناس يحجون إلى البيت جميعا، وقد نظم عبد المطلب بن هاشم هذه الناحية الدينية تنظيما كبيرا، وكان بنو عبد مناف يرون لأنفسهم حق الحرمة والميزة على العرب بسبب اختصاصهم بحماية وإدارة البيت الحرام ومنه اكتسبت قريش بين قبائل العرب منزلة خاصة وتقاسمت البطون الكبرى من قريش المسؤوليات الهامة فى مكة كالسقاية والرفادة والسدانة(٥). وظلت هذه الوظائف متوارثة فيها حتى ظهور الإسلام، لذا كانت قريش تعتبر نفسها هم أهل البيت وأولياؤه(٦). كما قال تعالى: « وما

(١) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ١٨٧، كلمة مكة.
أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ٩٥.

(٢) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ٢٠٥.

(٣) القرآن الكريم : سورة قريش رقم ١٠٦، الآيات من ١ — ٤.

(٤) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ٢٠٦.

(٥) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ١٣٧، ٨٥، طبعة الحلبي ١٩٥٥.
ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج ٣، ص ٣١٣، ٣١٥.
أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٢١، طبعة دار الفكر بدمشق.
أحمد كمال : الطريق إلى المدائن، ص ١٨٩، طبعة بيروت.

(٦) ابن هشام : السيرة، المجلد ١، ص ١٢٤ — ١٢٥، طبعة الحلبي ١٩٥٥.
ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ١٨٢، وما بعدها، طبعة بيروت.
أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٣٤ — ١٣٥... ١٨٦.

هـم إلا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياؤه، إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون(١).

ثم اعتماد الكثير من قبائل وسط الجزيرة على مكة فى كل ما كانوا يحتاجون إليه من بضائع ومصنوعات، فمكة اختصت بالتجارة لأنها تقع فى واد غير ذى زرع وأنها تعتمد فى حياتها على مايجلب إليها من الخارج وما يستطيع أهلها أن يحققوه لأنفسهم من منافع عن طريق البيع والشراء، ولذا اختصت مكة بالتجارة ووضع أهلها القوانين لتنظيم الحياة عندهم وتوفير الأمن وحفظ الحقوق وحماية مايفد إليها من الأذى(٢).

ثانيا – عقد اتفاقيات مع كل القبائل التى تمر طرق التجارة فى منازلها على أساس أن تسمح هذه القبائل بمرور قوافل التجارة المكية تحت خفارة تلك القبائل، مقابل أن يقوم رؤساء القوافل المكية بكل العمليات التجارية اللازمة لهذه القبائل(٣).

ثالثا – عقد الاتفاقيات مع حكام الحيرة وجنوب الشام وفلسطين واليمن والحبشة، لضمان دخول القوافل المكية إلى هذه البلاد والقيام بالعمليات التجارية فيها، وقد رحّبت هذه البلاد بذلك لأنها كانت بحاجة إلى المتاجرة أو البضائع التى كانت قوافل قريش تأتى بها إلى اليمن وجنوب الجزيرة العربية(٤). وبطبيعة الحال، انضمت إلى شبكة الاتفاقات قبائل أخرى كثيرة لم تكن تمر بمنازلها طرق تجارية وذلك للاستفادة من الخدمات التى تقدمها للقوافل المكية،

(١) القرآن الكريم، سورة الأنفال، آية رقم ٣٤.

(٢) جواد علي : المفصل، ج ٤، ص ٧١.
أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٢٥ – ١٢٦، ١٨٦ – ١٨٧.

(٣) جواد علي : المفصل ، ج٤، ص ٧١.
أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٣٦ – ١٣٧.

(٤) جواد علي : المفصل، ج ٤ ، ص ٧١.
أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٥٥ – ١٥٩.
كانت هناك علاقات تجارية مباشرة بين مكة والحبشة وكان ميناء الجار – على البحر الأحمر يعتبر ميناءهم الخاص وكانت تخرج منه السفن الذاهبة إلى الحبشة والعائدة منها إلى مكة.
انظر ياقوت : معجم البلدان، المجلد ٢، ص ٩٢ – ٩٣، كلمة جار.

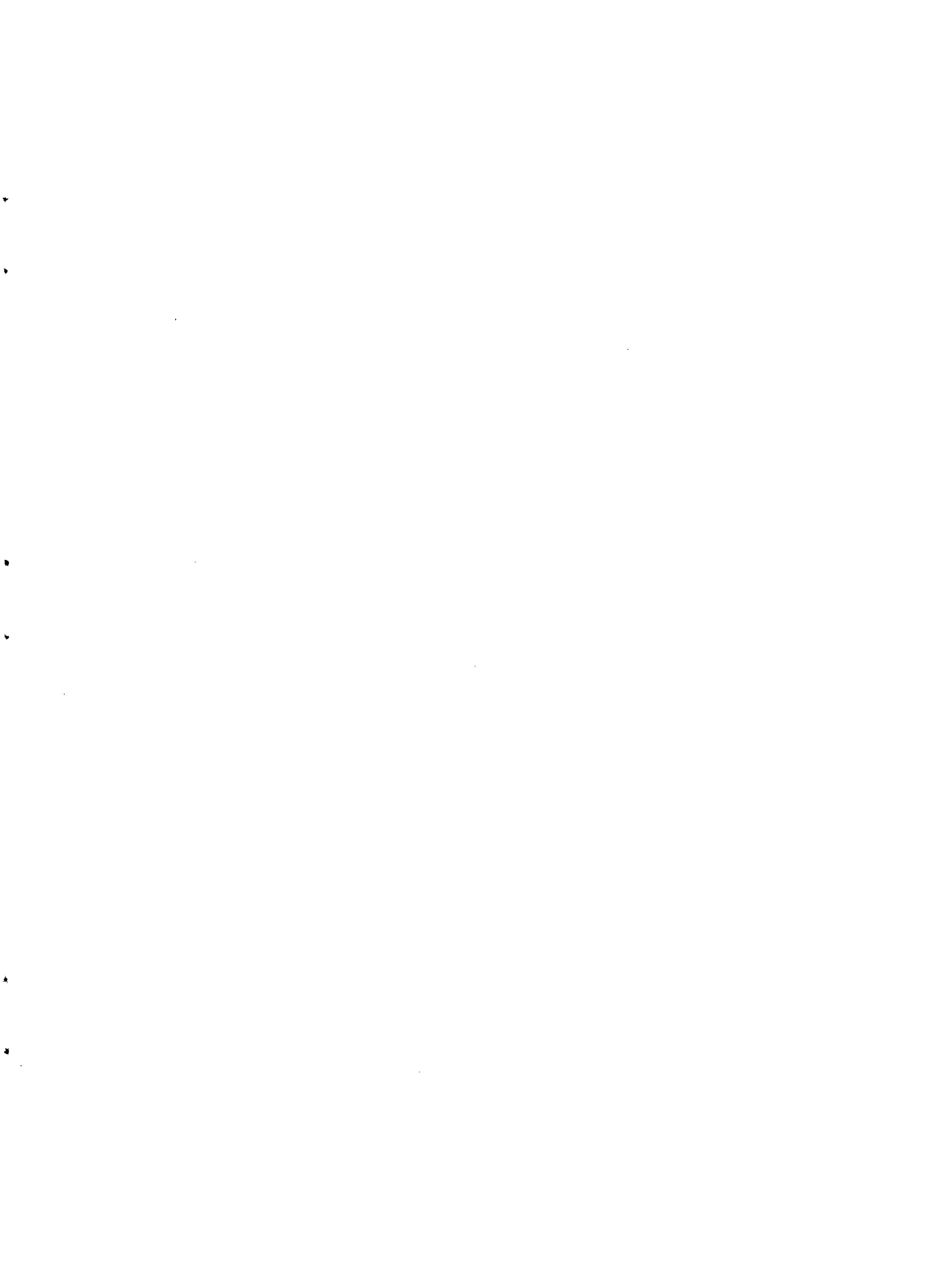
ومعنى ذلك أن سياسة أبناء عبد مناف جعلت مكة مركز التجارة العربية كلها، مما زاد فى ثراء أهلها وجعل قريشا زعيمة مجموعة قبائل كنانة وهي فرع من الياس بن مضر(١). ومن الطبيعي فى هذه الحالة أن تطمع قيس عيلان فى أن تحل محل قريش فى ذلك المركز، لذا تصدّت لها قريش بزعامة كبار بيوتها وبخاصة بنى أمية، وقد انجلت حرب الفجار الثانية عن تثبيت مركز مكة وقريش كقاعدة للتجارة العربية قبل الإسلام، وتحول مكة إلى أغنى بلاد شبه الجزيرة، ونتيجة لذلك أصبحت قريش أقوى وأهم قبائل العرب فى وسط وشمال وغرب شبه الجزيرة كلها(٢). زد على ذلك أن أهل مكة لم يدعوا الفرصة لأهل الطائف أن ينغصوا عيشهم مرّة أخرى حين تمكنوا من التغلغل إلى الطائف وبسط سلطانهم عليها، وأقاموا بها أعمالا اقتصادية خاصة ومشتركة وبذلك حوّلوا هذه المدينة (الطائف) إلى مكان صار فى حكم التابع لسادات قريش(٣).

---

(١) ابن حزم : الجمهرة، ص ١٠.

(٢) جواد علي : المفصل، ج ٤، ص ٧١، ١٥٣.
أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٥٠.
سعيد الأفغاني : أسواق العرب، ص ٢٥.

(٣) دائرة المعارف الاسلامية : مجلد ١٥، ص ٥٥ — ٥٦، ترجمة:عبد الحميد يونس.
جواد علي : المفصل، ٤، ص ١٥٣، طبعة بيروت.



علاقة قبيلة ثقيف السياسية
بالمدن والقبائل فى الحجاز وشبه الجزيرة العربية

لا شكّ أن «ثقيف» قبيلة كبيرة، وكان يضمها بطنان كبيران هما عوف وجشم وتحت كل منهما بطون متعددة، ومن بطون جشم بنو غاضرة التى غضبت من أخوتها بنى مالك والتحقت وحالفت بنى عمومتها، عوف على اخوتها بنى مالك لحزازات كانت بينهم، وسموا منذ ذلك الوقت بالأحلاف، وبذلك أصبح الأحلاف وبنو مالك هما الطرفان الرئيسيان اللذان يكونان قبيلة ثقيف(١). ولما كانوا متفقين فى حربهم ضد بنى عامر بن صعصعة — وهي قبيلة كبيرة فى هوازن سبق لها أن تغلبّت على الطائف بعد أن أخرجت بنى عدوان منها — حتى تم لهم الاستيلاء على الطائف بعد انتصارهم على بنى عامر فخلصت لهم(٢). كان كل فريق منهم — بنو مالك والأحلاف — يرى أن مجهوده الحربي، وتضحيته الغالية أكبر مما بذله غيره، فهو الأحق بما يختاره من الأماكن والمواقع، ومن هنا نشأت الضغائن بين الطرفين. وبعد استيلاء الأحلاف على منطقة جلدان التابعة لبنى نصر بن معاوية بن هوازن والواقعة بين وادى ليّة وبسل فى أرض الطائف(٣)، وتحويلها إلى أرض زراعية تابعة لهم، أصابهم الثراء منها، فكثرت خيلهم وأموالهم وبذلك جعلوا لأنفسهم صفة قبلية مستقلة. فغضب من ذلك بنو نصر، وقاتلوهم عليها. ولجت الحرب بينهما وكان رأس بنى نصر عفيف بن عوف بن عباد النصري ثم اليربوعي، ورأس الأحلاف مسعود بن معتب الثقفي. فاغتنم

---

(١) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٦.
ابن قتيبة : المعارف، ص ٩١، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٠.

(٢) البكري : معجم ما استعجم، ج ٢، ص ٦٧.
القلقشندي : نهاية الأرب، ص ١٩٨ — ١٩٩.

(٣) الهمداني : الصفة، ص ١٢٠ — ١٢١، تحقيق — النجدي.
ياقوت : معجم البلدان، المجلد الثاني، ص ١٥٠ — ١٥١، طبعة بيروت.

جندب بن عوف بن الحارث بن مالك بن حطيط بن جشم زعيم بنو مالك الفرصة وحالف بنى يربوع على الأحلاف فكان أول أيامهم هو يوم الطائف(١). انتصرت فيه الأحلاف وأخرجوا أعدائهم من بنى مالك إلى وادى نخب(٢). وقتل من بنى مالك وبنى يربوع خلق كثير فى شعاب ذلك الجبل الذى يقال له الأنان(٣). ثم توالت الحروب بينهم، ومن أشهر أيامهم يوم غمر ذى كندة وهو موضع قريب من نخلة، ويوم كروبة، قريبة من جلدان، وكان من نتيجتها انتصار الأحلاف على أعدائها، ثم افترقوا بعد هذه الحروب فسارت بنو مالك تبتغي الحلف من دوس وخثعم وغيرها على الأحلاف، وخرجت الأحلاف إلى المدينة (يثرب) تبتغى الحلف من الأوس على بنى مالك، فقدم مسعود بن متعب الثقفي على أحيحة بن الجلاح أحد بنى عمرو بن عوف من الأوس، وكان أشرف الأوس فى زمانه، فطلب منه الحلف، فقال له أحيحة: والله ماخرج رجل من قوم إلى قوم قط لحلف أو غيره إلا أقر لأولئك القوم بشر ما أنف منه قومه. فقال له مسعود بن معتب: انى أخوك، وكان صديقا له، فقال له: أخوك الذى تركته وراءك، فارجع إليه وصالحه، ولو جدع أنفك وأذنك، فان أحدا لن يبرّ لك فى قومك إذا حالفته، فانصرف عنه بعد أن زوّده بسلاح وأعطاه رجلا كان يبنى الآطام، فبنى لمسعود بن معتب اطما، فكان أول أطم بنى فى الطائف، ثمّ بنيت الآطام بعده بالطائف(٤). ولم يكن بعد ذلك بينهم حرب تذكر. وقيلت فى حربهم

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١، ص ٦٨٥، طبعة بيروت.

(٢) فى الكامل لابن الأثير جاءت (لحب) وليس (نخب) ج ١،ص ٦٨٥، طبعة بيروت.
بينما فى البكري: معجم ما استعجم، مجلد ٢، ص ١٩٧، جاءت:
نخب: وهو واد بعد الانان فى موضع الطائف.

(٣) الأنان: موضع على حدود الطائف قبل نخب، ينسب إليه فجّ الأنان، وسمي بالأنان لكثرة أنين الجرحى فى معركة بين الأحلاف وبنى مالك وحلفائهم بنى يربوع من بنى نصر بن معاوية بن هوازن.
البكري: معجم ما استعجم — المجلد الثاني، ص ١٩٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، المجلد ١، ص ٦٨٦، طبعة بيروت.
الآطام: الأطم هو الحصن المبني بالحجارة، وهو بناء مرتفع وجمعه آطام، وقيل أن كل بيت مربع مسطح هو أطم، وكانت مثل هذه الآطام فى المدينة واليمن.
وفى الحديث إن بلالا كان يؤذن من على أطم.
ابن منظور: لسان العرب — المجلد الأول — ص ٧١ — ٧٢، كلمة أطم.

أشعار كثيرة، من ذلك قول محبر وهو ربيعة بن سفيان الثقفي في قصيدته(١):

وما كنتُ ممن أرثَ الشر بينهم	ولكنّ مسعوداً جناهَا وجندُبا
قريعَيْ ثقيفٍ أنشبا الشرّ بينهم	فلم يَكُ عنها منزعُ حين أنشبا
عناقاً ضروساً بين عوفٍ ومالكٍ	شديداً لظاهَا تَتْرُكُ الطفلَ أشيبا
مضرّمةً شباً أشبا وقودَها	بأيديهما ما أورياها وأثقبا
أصابت براءاً من طوائف مالكٍ	وعوفٍ بما جرّا عليها وأجلبا
فأسقط أحبالَ النساءِ بصوته	عفيف إذا نادى بنصرٍ فطرّبا

من ذلك نستنتج أن ساكني الطائف وما حولها من ثقيف هم أبناء عوف بن ثقيف الذين منهم بنو معتب، وبنو غيره، وبنو عقدة، وبنو غاضرة التي هم انضمت إليهم بعد انفصالها من بني مالك. أما من كان شرقي الطائف فهم بنو جشم بن ثقيف ومنهم حبيب وبنو اليسار بن مالك(٢).

وبهذا الانتصار للأحلاف على بني مالك قويت شوكتهم، مما أجبر بني مالك على أن يقتسموا معهم السلطان السياسي، فكّون الأحلاف حلفا لهم مع هوازن في بادىء الأمر، ثم تقاربوا مع قريش وتعاونوا معها اقتصاديا ودخلوا معهم أيضا في علاقة نسب(٣).

وكنتيجة لما سبق فان روح التنافس بين الأحلاف وبني مالك كان ظاهراً أكثر من ظهوره في الجماعات العربية الأخرى، ففي معركة حنين لم نجد التعاون ظاهرا بينهم(٤). وهناك حادثة مقتل مسعود بن عروة الثقفي على يد أوس بن عوف من بني مالك، نتيجة عرض مسعود لهم ضرورة الدخول في الإسلام، فقد قتلوه ليظهروا مدى خطئه في خيانة قضية بلده، وبالتالي لربما يوجه الاتهام إلى الأحلاف ككل(٥)، ناهيك عن أن القواعد الأخلاقية والعادات والتقاليد القاسية

(١) ابن الأثير : الكامل، المجلد الأول، ص ٦٨٦، طبعة بيروت.
(٢) عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب، ج ١، ص ١٤٧، طبعة دار الملايين، بيروت.
(٣) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٦ — ٢٦٧.
(٤) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٦٣، طبعة بيروت.
الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٨٨٥ وما بعدها. طبعة أكسفورد.
(٥) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٦٠ وما بعدها.

التى حكمت المجتمع العربي فى العصر الجاهلي الأخير تكفلت باستمرار اثارة الأحقاد الدفينة وما نراه فى مقتل المغيرة بن شعبة لرفاقه السبعة من بنى مالك بعد عودتهم من زيارة المقوقس، حاكم الإسكندرية، مايدعم الرأى القائل بوجود مثل هذه المنافسة بينهم، ولو أن الواقدي يؤكد بأن هذه الحادثة حصلت بسبب الغيرة منهم لتقديم مكانتهم عليه واهتمام المقوقس بهم أكثر من المغيرة(١). وحتى بعد الهزيمة فى حنين وحصار الطائف أرسلوا وفودهم لإعلان إسلامهم بوفدين متساويين ثلاثة من الأحلاف هم: عبد ياليل والحكم بن عمرو بن وهب بن معتب وشرحبيل بن عيلان بن سلمة بن معتب، وثلاثة من بني مالك هم: عثمان بن أبى العاص وأوس ابن عوف ونمير بن خرشة(٢). وحتى الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد أنزل كل فريق منهم فى مكان منفصل عن الآخر(٣).

هكذا كانت الطائف منقسمة بين هاتين القبيلتين الكبيرتين — الأحلاف وبنى مالك — بينهما حروب.. وأيام ومنافسات على الرئاسة والزعامة.. وقد أدى ذلك إلى عدم تمتع المدينة بالاستقلال الاقتصادي والسياسي، ولو كانت، ظاهريا، متحدة أمام جيرانها الطامعين بأرضها وخيراتها، فى حين إن قريشا ومجتمع مكة كانا مختلفين كلياً عن مجتمع الطائف، ليس فقط فى ساعة الخطر، لأن تعاون أهل مكة وتآلفهم، واهتمامهم بشئون مدينتهم ومصالحهم كان ظاهرة فريدة فى مدن الحجاز كلها وشبه الجزيرة بعامة، وهنا يظهر دور دار الندوة والملأ ووجود الكعبة وأثرها الديني والسياسي والاقتصادي فى قريش(٤).

وكانت العلاقة بين ثقيف وقريش قد توثقت بقيام تعاون سياسي بينهما فى العصر الجاهلي الأخير، نتيجة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية(٥). واستمر هذا التعاون بينهما قائما حتى قيام الدعوة الإسلامية حيث وقفت كل منهما موقف

---

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٩٦ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٩٦٣، طبعة أكسفورد.

(٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٩٦٥.

(٤) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١١٤ وما بعدها، وص ١٢٨، ١٧٠ وما بعدها — طبعة دار الفكر بدمشق.

(٥) ابن حبيب : كتاب المنمق، ص ٢٨٠، طبعة حيدر أباد، ١٩٦٤.
احسان العمد : الحجاج بن يوسف الثقفي، ص ٨٠، طبعة بيروت، ١٩٧٣.

المعارض من الدعوة، وبخاصة أصحاب الأموال فى مكة والطائف(١). فيذكر ابن هشام: «لما حضرت الوليد الوفاة دعا بنيه وكانوا ثلاثة: هشام بن الوليد والوليد ابن الوليد وخالد بن الوليد، فقال لهم: أوصيكم بثلاث، فلا تضيعوا فيهن: دمى فى خزاعة فلا تطلنه، وربای فى ثقيف فلا تدعوه حتى تأخذه، وعقرى عند أبى أزيهر فلا يفوتنكم به»(٢). وعندما أسلم أهل الطائف كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فى ربا الوليد الذى كان فى ثقيف، لما كان أبوه أوصاه به(٣)، وخاصة بعد نزول الآية، قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين»(٤). وهذا يظهر لنا مدى العلاقة التى كانت قائمة بين قريش وثقيف. ولم تنقطع هذه العلاقة بينهما إلا حينما فتحت مكة ودخلت قريش الإسلام واشتركت فى محاربة هوازن وثقيف فى غزوة حنين وحصار الطائف(٥). ثم عادت هذه العلاقات بينهما ثانية تحت ظل الإسلام الذى أسقط الأحلاف والعصبية وأحل محلها تعاون الجماعة الإسلامية ككل وأصبح المسلمون كوحدة واحدة.

أما العلاقة بين ثقيف وأهل المدينة (يثرب)، كما بيّنا سابقا، فكان هناك شيء من التقارب نتيجة تشابه الظروف الاقتصادية فيما بينهما، لذا اتجهت كتلة الأحلاف من ثقيف نحو الأوس لعقد حلف سياسي بينهما ضد بنى مالك، لكن الأوس رفضت هذا الحلف لأنه سوف يجلب الكوارث على الطرفين، إذ ليس من مصلحة الأوس بناء علاقات عدائية مع جيرانها(٦). انظر ما سبق، صفحة ٧٢.

وكانت علاقة ثقيف ببقية قبائل قيس عيلان علاقة أسرية أكثر منها علاقة سياسية لأنهم جميعا ينتمون لجدّ واحد(٧). لذا كانت علاقاتهم قوية، ونحن نجد ان

---

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٢، ص ٣٢٨، طبعة دار المعارف.

(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٤١١، تحقيق : السقا. طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٣) المصدر والجزء ذاتها، ص ٤١٤.

(٤) القرآن الكريم — سورة البقرة — آية رقم ٢٧٨.

(٥) فلهاوزن : تاريخ الدولة الأموية، ص ٤، طبعة القاهرة، ١٩٦٨.

(٦) ابن الأثير : الكامل — المجلد الأول، ص ٦٨٦.

(٧) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٥٩ — ٢٦٩.

ثقيفا تقف بجانب قيس عيلان ضد كنانة فى حروب الفجار، رغم ما كان بينهما وبين قريش من علاقات تجارية واجتماعية وسياسية(١).

وهكذا، فقد كانت علاقة ثقيف بالقبائل العربية تخضع للظروف ذاتها التى سادت كل القبائل العربية الأخرى، إما علاقة حرب أو علاقة سلم، تمليها مصلحة القبيلة. وكانت هذه سنّة الحياة ولبيعة المجتمع القبلى الجاهلى، ولم تكن ثقيف إلا إحدى وحدات هذا المجتمع القبلى، ومايسرى عليها يسرى على الآخرين.

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ١٦،ص ٥٦، ترجمة : عبد الحميد يونس.
مصعب الزبيري : نسب قريش، ج ٦، ص ٢٠١، طبعة دار المعارف.
فيليب حتى : تاريخ العرب المطول، ج ١، ص ١٤٣ — ١٤٤.

علاقة ثقيف الخارجية
مع الدول القائمة على أطراف شبه الجزيرة العربية

العلاقات بين قبيلة ثقيف والقبائل العربية الأخرى، تختلف تماما عن العلاقات بينها وبين الدول القائمة على أطراف شبه الجزيرة العربية والعالم الخارجي. وأهمها دولة الروم فى الشمال والفرس فى الشمال الشرقي، واليمن فى الجنوب، والحبشة فى شرق أفريقية. هذه العلاقة التى كان قوامها المصلحة الاقتصادية والتجارة بالدرجة الأولى. ولكن لابد من أن نذكر بأن العلاقة بين قريش وثقيف كان لها دور كبير وفعال فى اتصال ثقيف بالعالم الخارجي باعتبارها إحدى قبائل الحجاز وتعيش فى إحدى مدنه(١).

وكانت صلات مكة التجارية كبيرة بالطائف التى تنتج مقادير كبيرة من الزبيب والنبيذ والحبوب والفواكة وغيرها، وقد كان المكيّون يشركون أهل الطائف فى قوافلهم التجارية(٢)، كما أعارت قريش اهتماما كبيرا لتجارتها بمنتجات الطائف الزراعية والصناعية، لذا قويت الصلة التجارية بينهما أملا فى تحقيق المصلحة المشتركة بين الطرفين. ومن الطبيعي أن مكة أنشأت لها علاقات تجارية كبيرة مع الجنوب باليمن، وعقدت معهم الاتفاقيات التجارية للمتاجرة فى أراضيهم . وبالفعل سيطرت قوافلها التجارية على نقل هذه التجارة(٣). وقد أشركت الثقفيين فى تلك القوافل،وعن طريق تجار مكةقويت الصلة بين ثقيف واليمن، فمثلما أرسلت مكة ومجموعة من القبائل الأخرى وفودها للتهنئة إلى سيف

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥ — ٥٦، ترجمة عبد الحميد يونس.
مونتجمرى وات : محمّد في مكة، ص ١٧. المكتبة المصرية، تعريب شعبان بركات.

(٢) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ٢١١، طبعة دار الفكر.
أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ٢٤، طبعة دار الفكر.

(٣) أحمد الشريف : مكة والمدينة ص ١٥٦. طبعة دار الفكر.

بن ذى يزن سنة ٥٧٥م بانتصاره على الأحباش، أرسلت ثقيف أيضا وفدا باسمها ممثلا فى مسعود بن معتب الثقفي(١)، ثم تمت بعد ذلك العلاقات الاقتصادية من خلال العلاقات السياسية هذه العلاقة الاقتصادية بين اليمن والطائف دعمتها مكانة الطائف الاقتصادية(٢). وبذلك وصلت منتجات الطائف المتعددة إلى اليمن عن طريق القرشيين أولا ثمّ الثقفيين بعد ذلك.

كما أنشأت الطائف علاقات تجارية وثيقة مع الحيرة التابعة للفرس. ولقد كان المنذر بن النعمان، ملك الحيرة، يبعث بلطيمة، كل سنة، إلى سوق عكاظ، كما بيّنا ذلك فى حرب الفجار. وتحدثنا المصادر أن من مشاهير أهل الطائف الحارث بن كلدة الشقفي الذى رحل إلى بلاد فارس وتعلّم الطب فى جنديسابور(٣)، ثم عاد إلى بلاده(٤). ولقد كان على جانب كبير من العقل والذكاء. ويصور لنا ابن عبد ربه فى كتاب العقد الفريد خبر قدومه على كسرى ومحاورته. فقد أراد كسرى النيل من العرب، ولكن الحارث دافع بطريقة تدل على ذكائه وقوة عارضته وكانت المحاورة فى قصة ممتعة جدا أدت إلى تغيير نظرة كسرى للعرب(٥). ثم قويت العلاقة بينه وبينهم، خاصة بعد قيام مملكة الحيرة(٦)

---

(١) الازرقي : أخبار مكة، ج ١، ص ١٤٩، طبعة الأندلس — بيروت.

(٢) جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ٤، ص ١٥٣.

(٣) جند يسابور : هي عاصمة خوزستان فى حكم الساسانيين، بناها سابور بن أردشير واسكنها سبي الروم وطائفة من جنده، وهي مدينة خصيبة فيها النخيل والزروع والمياه. وقد كان فيها مدرسة للطب يدرس فيها منهج غالين الروماني وهو جالينوس كما يسميه العرب الذى مات سنة ٢٠٠م والذى كان يعتبر حجة فى الطب. فتحت هذه المدينة من قبل المسلمين سنة ١٩ هـ، واثناء فتحها كان بها جماعة من أهل العلم.
انظر :
ياقوت : معجم البلدان — المجلد ٢، ص ١٧٠ — ١٧١، طبعة بيروت.
اوليرى : امسالك الثقافة الاغريقية إلى العرب، ص ٢٠، ٢١، ٥٠، ٨٠ نقله للعربية د. تمام حسان — مكتبة الأنجلو المصرية.

(٤) ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء، ص ٥٤، طبعة القاهرة، ١٩٥٥.
ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، ص ١٣ — ١٧. طبعة دار الفكر — بيروت، ١٩٥٦.

(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج ٨، ص ٧٧.

(٦) جواد علي : المفصل، ج ١، ص ١٦١ — ١٦٢، طبعة بغداد.

ثم قصة غيلان بن سلمة الثقفي حين قدم إلى بلاد العراق فى العصر الجاهلي الأخير، وكانت العراق يومذاك خاضعة لكسرى، قدم بتجارة، ودارت بينه وبين كسرى محاورة أيضا دلت على الذكاء واللباقة انتهت بأن اشترى منه كسرى تجارته بأضعاف ثمنها وكساه وبعث معه وفداً من الفرس لمشاهدة الطائف وتقوية العلاقة بينهما(١). والأرجح أن هذا التقارب الذى فعلته فارس ما هو إلا رغبة منها فى قيام العلاقة مع العرب منافسة الروم بذلك، حيث كان الصراع بين الامبراطوريتين، البيزنطية والفارسية، على أشدّه فى ذلك العهد، حيث الرغبة الشديدة فى مد نفوذها السياسي إلى داخل شبه الجزيرة العربية(٢). ولقد استمرت هذه العلاقة بين الفرس وثقيف. فترى الشاعر أمية بن أبى الصلت الثقفي يذهب إلى اليمن ويمدح الفرس هناك لمساعدتهم سيف بن ذى يزن عند استرداده عرش اليمن من الأحباش. وفى ذلك يقول(٣):

ليطلب الوترأمثال بن ذى يزن	ريّم فى البحر للأعداء أحوالا
يمم قيصر لما حان رحلته	فلم يجد عنده بعض الذى سالا
ثم انثنى نحو كسرى بعد عاشرة	من السنين يهين النفس والمالا
حتى أتى ببنى الاحرار يحملهم	انك عمرى لقد أسرعت قلقالا
لله درّهم من عصبة خرجوا	ما ان رأى لهم فى الناس أمثالا

ويقصد الشاعر ببنى الأحرار، الفرس. والقلقال، شدة الحركة فيهم(٤). وبذلك توطدت العلاقات التجارية بين البلدين وكان من جرّاء ذلك أن استقدمت الطائف الكثير من المعماريين والمهندسين الفرس لبناء الآطام والقصور هنالك(٥).

أما صلات ثقيف ببلاد الشام، فقد ولّدتها علاقتهم مع تجّار مكة، فقد كان

(١) الأصفهاني : الأغاني، ج ١٢، ص ٤٦، طبعة الساسي المصرية.
(٢) أحمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ١٥١، طبعة دار الفكر.
(٣) ابن هشام : السيرة — المجلد الأول، ص ٦٥، تحقيق : السقا. مطبعة الحلبي، ١٩٥٥.
(٤) كذلك انظر المصدر نفسه، هامش رقم ٩.
(٥) لا مانس : مدينة الطائف ، ص ١٠ — ١١، الطبعة الفرنسية، ١٩٢٢

لأمية بن أبى الصلت رحلات متعددة إلى الشام مع تجار قريش، وخاصة مع أبى سفيان فى قوافله التجارية. وقد اتخذوا من التجارة وسيلة لكسب المال فاتصلوا بمدن الشام كبصرى وغزّة وأيلة، ولقد اهتم الرومان بتجارة الحجاز وإن كثيرا من البيوت الرومانية قد انشئت فى مكة لغرض المبادلات التجارية(١). وقد صدّرت الطائف إلى بلاد الشام الجلود المصنعة والزبيب والخمور وغيرها، وقد ضمن تنوع منتجات الطائف استمرار هذه التجارة حتى ظهور الإسلام وبعده(٢).

ويبدو أن نشاط أهل الطائف التجاري قد أمتد حتى وصل إلى مصر، فتذكر بعض المصادر أن نفرا من بنى مالك ذهب إلى المقوقس، حاكم الاسكندرية، وأهدوا إليه هدايا، وان المغيرة بن شعبة كان الوحيد بينهم من الأحلاف، وكانت تلك زيارة تجارية وودّية فى الوقت ذاته، فقبلها المقوقس وأكرم رجال بنى مالك وقرّبهم منه ومنحهم الهدايا بالمقابل، لكنه لم يعر للمغيرة بن شعبة الأهمية نفسها، فحقد عليهم وغدر بهم وقتلهم جميعا فى طريق عودتهم، ثم وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم وأعلن إسلامه(٣). ولربما كانت تجارتهم أيضا مع مصر تتم عن طريق أهل مكة، فقد ذكر أن عبد الله بن جدعان، أحد تجار مكة الأثرياء كان يتردد على مصر ببضاعته ثم يعود إلى عكاظ(٤).

أما الحبشة، فقد كانت لها صلات تجارية مع بلاد الحجاز، وكان من أعظم ما يأتى النجاشي من مكة الأدم المصنوعة فى الطائف حيث اختصت الطائف بهذه الصناعة، وكان ميناء الجار، على البحر الأحمر يعتبر ميناء الأحباش الخاص، فمنه تصدّر وتورد البضائع منها وإليها، ولربما كان لتجار ثقيف العاملين مع تجار

---

(١) سيعد الأفغاني : أسواق العرب فى الجاهلية والاسلام، ص ٢٥.

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٩.
أحمد أمين : فجر الاسلام، ص ١٥.

(٣) الواقدي : المغازى، ج ٢، ص ٥٩٦.

(٤) سعيد الأفغاني : أسواق العرب، ص ٢٥.
عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة وهو من أثرياء مكة وتجارها، وصاحب الضيافات فيها.
ابن هشام : السيرة ، المجلد ١، ص ٢٦١، ٦٣٥، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

مكة دور فى هذه التجارة، ولو أن المصادر لم تشر صراحة إلى دور الثقفيين بشكل مستقل(١).

ونتيجة لهذا الارتباط التجاري بالعالم الخارجي، فقد تأثرت ثقيف بحضارة هذه البلاد، وساهم رجالها بنقل ما شاهدوه من معالم تلك البلاد إلى بلادهم كتعلم عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة حرفة صناعة الحرب باليمن(٢). كما نقل غيلان بن سلمة العمارة الفارسية إلى الطائف حين استقدم البنائين من بلاد فارس بعد علاقته بكسرى لبناء الآطام والقصور(٣). كما أدخل أمية بن أبى الصلت شاعر ثقيف الكثير من الكلمات والألفاظ الأجنبية إلى اللغة العربية، استعملها العرب فيما بعد، مثل كلمة « السلطيط» و«ساهور» و «يغمد». و يعنى بالسلطيط الله عزّ وجل، حيث قال:

والسلطيط فوق الأرض مقتدر (٤).

ولقد عبرّ عروة بن مسعود الثقفي عن أبعاد علاقة ثقيف واتصالتها بالعالم الخارجي فى نصيحته لقريش يوم «الحديبية»، حيث قال لهم: «يامعشر قريش انى جئت كسرى فى ملكه، وقيصر فى ملكه، والنجاشي فى ملكه، وانى مارأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه»(٥).

ومن دراستنا لعلاقة ثقيف بكل من فارس والروم، نجد أن الأحلاف اتجهوا نحو فارس وصنعوا معها أمتن وأوثق العلاقات، بينما اتجه بنو مالك نحو الشام ومصر ولقوا الاهتمام والرعاية هناك.

والحقيقة ان الصراع بين الامبراطوريتين الفارسية والرومانية انعكس على

---

(١) ابن هشام : السيرة ، المجلد الأول، ص ٣٣٣، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
انظر ياقوت : معجم البلدان، المجلد الثاني، ص ٩٢ — ٩٣، كلمة الحجار.
أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ٣٨ وما بعدها.

(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٧٨، تحقيق السقا. طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٣) الأصفهاني : الأغاني، ج ١٢، ص ٤٦، طبعة الساسي المصرية.

(٤) الأصفهاني : الأغاني، ج ٤، ص ١٢٤ — ١٢٥، طبعة دار الثقافة، بيروت.

(٥) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٣١٤، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

المتصارعين فى الطائف لكسب ومدّ النفوذ إلى داخل شبه الجزيرة العربية، فقد كان كل منهما يرغب رغبة شديدة فى ذلك.

(الطائف فى عصر الرسول)

الباب الثاني : مدينة الطائف في عصر الرسول (ص)

الفصل الأول

ديانة قبيلة ثقيف وارتباطها بالنشاط الديني العام للقبائل في موسم الحج

حفلت شبه جزيرة العرب فى الفترة الأخيرة من العصر الجاهلي، قبل مطلع الفجر الإسلامي بالعديد من العقائد والملل، السماوية منها أو غير السماوية، لتصب فى عقل الجاهلية الجماعي قادمة من أطراف شبه الجزيرة مع التجار والمهاجرين، فمن بين النهرين أتت الصابئة مع أتباعها من عبّادالكواكب والملائكة الزاعمين أنهم على دين نوح من درب حفيده صابيء بن شيت(١). ومع المبشرين والهاربين جاءت المسيحية بفروعها المختلفة من يعقوبية ونسطورية وديصانية، فدانت بدينها إياد وربيعة وبكر والغالبية من كلب والحيريين من تمائمة ولخمية(٢). أما اليهودية فقد تسرّبت إلى كندة من يهود يثرب الذين هاجروا لشبه الجزيرة بعد تحطيم هيكلهم فى فلسطين سنة ٧٠م أثناء الاحتلال الروماني لها، وإلى حمير فى الجنوب(٣). أما فى مكة وما حولها، فقد استقرت عقيدة الحنيفية التاريخية الموروثة العائدة بأصلها إلى اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام، وحول البيت الذى بنياه استقرت بفرعيها عبد الدار وعبد مناف تلهث من تطواف حولها سبعا وتنحر الذبائح تقرّبا وتزلّفا، وتقسم ولد اسماعيل وتفرّقوا فى البلاد، وكان

---

(١) السهيلي : الروض الأنف، جـ ١، ص ١٣، طبعة القاهرة، ١٩٧١م.
الشهرستاني : الملل والنحل، جـ ٣، ص١٠٣ ومابعدها.
ابن حزم : الفصل، ص ٨٨ — ٨٩.

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل، جـ ٢، ٢٥.
ابن حزم : الفصل، جـ ١، ص ٢٩ ومابعدها.
ابن حزم : الجمهرة، ص ٤٩١، تحقيق : عبد السلام هارون.

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل، جـ ٢، ص ١٤ — ١٦ تحقيق عبد العزيز الوكيل.

كل من يخرج منهم من مكة يحمل حجرا منها صبا وصبابة بالبيت، فنشأت من ذلك الأنصاب والأزلام(١).

أما عبادة الأصنام التى انتشرت بعد ذلك حول الكعبة فتعود إلى أحد أحفاد اسماعيل بن ابراهيم وهو عمرو بن لحي الخزاعي الذى أتى بعد رحلة من الشام بصنم من العقيق الأحمر يدعى «هبل» وأخذ يعلّم الناس أن صنمه هذا شفيع من الله، وسارت القبائل بعد ذلك على سيرته فكانت كل منها تنحت للآله الصورة التى تراها لتضعها فى فناء الكعبة، ورغم ذلك بقي البعض يتمسك بحنيفيته الخالصة، أمثال أمية بن أبى الصلت الثقفي وغيره، وكان معتنقوها اقلية ضئيلة جدا(٢).

وهكذا فقد تأثر مجتمع الحجاز بهذا التعدد الديني. إلا أن الوثنية كانت عامة فى بلاد العرب(٣).

ومن هذا كله يتبين لنا تعدد الديانات فى بلاد العرب، رغم أن الوثنية كانت سائدة فى شبه الجزيرة بعامة والحجاز بخاصة.

فأصحاب الديانات السماوية هم اليهود والنصارى. أما اليهود فقد كانوا جاليات كبيرة العدد متعددة الفروع، منتشرة فى يثرب والطريق المؤدية إلى الشام وقبائلهم الرئيسية ثلاث هي: قينقاع وقريظة والنضير(٤). ويذكر ولفنستون: أن اليهود وفدوا إلى بلاد الحجاز مهاجرين من فلسطين على أثر احتلال الرومان لها سنة ٧٠ (ق.م) واستقروا فى منطقة الحجاز الشمالية القريبة من بلاد الشام، وبمرور الزمن اصطبغوا بالصبغة العربية وكانوا شديدى التمسك بدينهم(٥). وكان

(١) ابن الكلبي : الأصنام، ص ٦ — ٨ طبعة الدار القومية، ١٩٢٤.
اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٥٤ — ٢٥٥، طبعة بيروت.

(٢) المصدران السابقان نفسها.

(٣) الألوسي : بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٢٤٠.
فيليب حتى : تاريخ العرب، ج ١، ص ١٣٧.

(٤) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٥١٢ — ٥١٦، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٥٧، طبعة بيروت.
و لفنستون : تاريخ اليهود، ص ١٤ — ١٦. طبعة الاعتماد بمصر، ١٩٢٧

كتابهم التوراة وهو أول كتاب نزل من السماء على موسى، وهم يدعون أن الشريعة واحدة، ابتدأت بموسى وتمت به(١).

أما النصارى فهم أمة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام الذى بعث بعد موسى وكانت له آيات ظاهرة، وكتابهم الانجيل، وكانت مدة دعوة المسيح ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام(٢). ورغم أن المسيحية كانت دينا بسيطا سهلا، لكن التعقيد طرأ عليها بعد ذلك حتى أصبح من العسير فهم مبادئها فيما بعد(٣).

وقد عرفت النصرانية طريقها إلى شبه جزيرة العرب، فانتشرت فى تغلب وغسان وقضاعة فى الشمال وبلاد اليمن فى الجنوب(٤). وفى المناطق القريبة من بلاد الشام وكذلك فى بنى تميم وطى ومذحج فى اليمن(٥).

ومن الذين تأثروا بالمسيحية قس بن ساعدة وعدى بن زيد وورقة بن نوفل وكانت لهم مسحة خاصة فى شعرهم عليها طابع الدين ومتأثرة بتعاليمه(٦).

وكان بين العرب الأحناف وهم المنقادون إلى الله المائلون عن العقائد الزائفة، فهم أناس مستنيرون فطنوا إلى سوء حالتهم الدينية، فحاولوا الابتعاد عن الوثنية ودعوا إلى عبادة الله، واعتقدوا بالبعث والحساب، فعرفت هذه النزعة بالتحنّف، وأصحابها بالحنفاء أو التائبين المتعرفين(٧). ولقد ورد لفظ التحنّف فى القرآن الكريم. قال تعالى: «ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا

---

(١) الشهرستاني : الملل والنحل، ج ١، ص ١٤ — ١٦. تحقيق عبد العزيز الوكيل.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥.
ابن حزم : الفصل، ج ١، ص ٢٩ وما بعدها.

(٣) أحمد شلبي : مقارنة الأديان — كتاب المسيحية، ص ١٩، ط ٣، سنة ١٩٦٧.

(٤) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٥٧ طبعة بيروت.
ويذكر ابن هشام فى السيرة، المجلد الأول، ص ٣١ — ٣٣ أنه كان بمنطقة نجران مركز للنصرانية.

(٥) اليعقوبي : تاريخ ، ج ١، ص ٢٥٧.
ابن حزم : الجمهرة ، ص ١٩١.

(٦) أحمد أمين : فجر الاسلام، ص ٢٧ —٢٨. طبعة ١٠، سنة ١٩٦٥.

(٧) الشهرستاني : الملل والنحل، ج ٣، ص ٨٦.
ابن هشام : السيرة — المجلد الأول، ص ٢٢٣، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

مسلما وما كان من المشركين»(١). وفى قوله تعالى: «انى وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين»(٢).

ومن العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر و ينتظر النبوة ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل، فقد كان يسند ظهره إلى الكعبة و يقول: أيها الناس هلمّوا إليّ فانه لم يبق على دين ابراهيم أحد غيرى. وكذلك قس بن ساعدة الإيادى الذى كان يقول:

كلا بل هو الله إله واحد — ليس بمولود ولا والد
أعاد وأبدى — وإليه المآب غدا

وكذلك عامر بن الظرب العدواني، حكيم العرب، الذى حرّم على نفسه الخمر وكان يعتقد بالبعث والحساب(٣).

أما أمية بن أبى الصلت فقد كان شاعرا مطبوعا فى منطقة الطائف بخاصة والحجاز بعامة، وتحت اسمه شاعت مجموعة الأشعار التى تعبر عن اهتمام بالغ بالمسائل الدينية والأخلاقية حتى إنه كان يطمع فى النبوّة، فقد قرأ كتب الأديان الأولى وتأثر بها ولبس المسوح تعبدا وحرم الخمر وشك فى الأوثان وذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفية(٤). ونظرا لأنه كان يطمع فى النبوّة و يأمل أن تكون فيه فقد حقد، عندما بعث النبى صلى الله عليه وسلم وهو الذى يقول(٥).

كل دين يوم القيامة عند الله — إلاّ دين الحنيفة زور

من هذا يتبين لنا أن الحنيفية كانت موجودة فى مكة، وكان معتنقوها أقلية وموجودة كذلك فى الطائف بنطاق ضيق جدا، باعتبار الطائف مدينة مجاورة لمكة(٦). والعرب جميعا كانوا يعتقدون بوجود إله وأنه رب الوجود، ودليل ذلك

(١) القرآن الكريم : سورة آل عمران، آية رقم ٦٦.
(٢) المصدر نفسه : سورة الانعام ، آية رقم ٧٩.
(٣) الشهرستاني : الملل والنحل، ج ٣، ص ٨٦ — ٨٧. تحقيق عبد العزيز الوكيل.
(٤) الأصفهاني : كتاب الأغاني، ج ٤، ص ١٢٥ — ١٢٦، طبعة دار الثقافة بيروت.
(٥) الشهرستاني : الملل والنحل، ج ٣، ص ٨٦.
(٦) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٢٢٢ — ٢٢٣، تحقيق السقا، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

حجهم إلى الكعبة باعتبارها بيت الله الذى أقام قواعده ابراهيم واسماعيل عليهما السلام. وأن الله جعله مثابة للناس جميعا وآمنا. وفى القرآن الكريم مايشير إلى ذلك: إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين، فيه آيات بيّنات مقام ابراهيم، ومن دخله كان آمنا، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا(١). وتتضمن هذه الآيات قرينة قوية على أن الحج إلى البيت على المستطيع هو استمرار لغرض إلهي قديم على الناس معترف به ويمارس من بعضهم وان الحج كان عاما وغير مخصص بطائفة معينة، وهذا يدل على أنه كان مفروضا قبل الإسلام(٢).

وخلاصة القول أن الحنيفية هي نوع من الشعور بالوحدة وتعبير عن الميل الروحي للدين الواحد، كما جاء فى القرآن الكريم: «ملة ابيكم ابراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل»(٣).

أما الديانات غير السماوية كالزرادشتية والمانوية والمزدكية فقد تسربت إلى بلاد العرب. فالزرادشتية نسبة إلى زرادشت بن يوشب وكان مقامه باصطخر وانه نبي الفرس القدماء، وهذه الديانة هي رمزية، تقول بأن العالم فى قوتين هما الخير والشر، و يرمز لإله الخير بالنور ولإله الشر بالظلمة و يعتبر أتباع الزرادشتية النار لا على أنها العنصر المحرق بل أنها مصدر النور الذى هو أساس الخير(٤). كذلك من مبادئه: إن أشرف عمل للانسان الزراعة والعناية بالماشية، فحبب الزراعة وتربية الماشية، وكذلك للانسان حياتان أولى فى الدنيا، وحياة أخرى بعد الموت وأن القيامة قريبة وأن نهاية الحياة ليست بعيدة(٥). هذه الديانة كانت

---

(١) القرآن الكريم : سورة آل عمران، آية رقم ٩٦ — ٩٧.
(٢) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٧٣ — ١٧٤، طبعة دار الفكر.
(٣) القرآن الكريم : سورة الحج، آية ٧٨.
ابن هشام : السيرة — المجلد الأول، ص ٢٢٢ وما بعدها، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
(٤) الشهرستاني : الملل والنحل، ج ٢، ص ٤٠ وما بعدها.
ابن حزم : الفصل فى الملل والنحل، ج ١، ص ٥٨ — ٥٩.
أحمد أمين : فجر الاسلام، ص ٩٨ وما بعدها.
(٥) أحمد أمين : فجر الاسلام، ص ١٠١ — ١٠٢.

سائدة فى فارس وفى شرق بلاد العرب وخاصة فى جهة البحرين القريبة من الفرس(١).

أما المانوية فهم أصحاب مانى بن فاتك الحكيم الذى ظهر فى وقت سابور بن أردشير وذلك بعد عيسى بن مريم عليه السلام وقد حاولت هذه الطائفة التوفيق بين المسيحية والوثنية فى الشرق وأخذت عقائدها وطقوسها عن التوراة والفارسية القديمة(٢). وهم الذين يقولون بالآثينية وهي العقيدة الأساسية لديانة الفرس، ومن ثم يقولون بوجود مصدرين الهين لهذا العالم: أحدهما إله الخير ويرمزون له بالنور، والثاني إله الشر ويرمزون له بالظلمة، وهذا الإله هو الذى صدر عنه هذا العالم المادى(٣). وانتشرت فى الشرق، ولا سيا فى بلاد الفرس والهند، ولم تنتقل إلى بلاد العرب إلا فى القرن الحادى عشر الميلادى(٤).

أم المزدكية، فهم أصحاب مزدك وهو الذى ظهر فى أيام قباذ والد انوشروان(٥). وكان يقول أيضا بالنور والظلمة، ولكن أكبر ما امتاز به تعاليمه الاشتراكية فى المال والمساواة والنساء، بالاضافة إلى تعاليمه الروحية، كالقناعة والزهد وعدم ذبح الحيوان، وقد اعتنق مذهبه الآلاف قبل الاسلام(٦). وقد كان لآراء مزدك أثر فى العرب وبقيت حتى فى عهد الدولة الأموية والعبّاسية(٧).

أما الصابئة فهم عبّاد الكواكب والذين زعموا أن الشمس ملك من الملائكة

---

(١) نفس المصدر، ص ١٠٣

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل، ج ٢، ص ٤٩.
ابن حزم : الفصل، ص ٤٦ — ٤٨.

(٣) أحمد أمين : فجر الاسلام، ص ١٠٤.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) الشهرستاني : الملل والنحل، ج ٢، ص ٥٤ — ٥٥.
ابن حزم : الفصل، ج ١، ص ٧٣ — ٧٥.

(٦) أحمد أمين : فجر الاسلام، ص ١٠٩ — ١١٠.
الشهرستاني : الملل والنحل، ج ٢، ص ٥٤ — ٥٥.

(٧) القلقشندي : نهاية الارب، ص ٤٥٢.
أحمد أمين : فجر الاسلام، ص ١١٢.
محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الاسلام، ص ١٧١.

ولها نفس وعقل، وأن القمر يستحق التعظيم والعبادة وبه تعرف الأزمان والساعات(١). وهذا المذهب هو من مذاهب المجوسية، وقد كانوا موجودين فى شبه جزيرة العرب، وقد ذكر ابن حزم أن المجوسية قد ظهرت فى بنى تميم وأن لقيط بن زرارة كان قد تمجس(٢).

ومن هذا كله يتبين لنا تعدد الديانات فى بلاد العرب، لكن الوثنية كانت هي الغالبة، وخاصة فى منطقة الحجاز، لذا عبدوا الأصنام والأوثان وحجوا إليها واعتقدوا أنها كانت تقرّبهم إلى الله زلفى، قال تعالى: «وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»(٣). إلا أن هذه العبادة لم تكن عبادة ذاتية انما كانت وسيلة للتقرب إلى الله، وهذا دليل على أن أهل مكة لم ينسوا دين ابراهيم تماما حتى حينما كانوا فى ظلمات يعمهون، وان الهتهم المتعددة لم تشغلهم عن الكعبة بيت أبيهم ابراهيم وان عبادتهم للأصنام لم تكن جدّية وأنها لم تتعمّق فى قلوبهم، ويقول ابن الكلبي: انهم يوحدونه بالتلبية ويدخلون معه آلهتهم ويجعلون ملكها بيده(٤). ويقول تعالى فى كتابه المجيد: «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون»(٥). ويفسّر ابن الكلبي ذلك فيقول: أى ما يوحدوننى بمعرفة حق، إلا جعلوا معى شريكا فى خلقى(٦). وفى التفسير يقول ابن كثير: «إن المشركين كانوا يقولون فى تلبيتهم، لبيك، لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك»(٧). أى أنهم كانت لديهم فكرة غير واضحة عن وجود الله، لذا فانهم يجعلون معه شركاء.

---

(١) الشهرستاني : الملل والنحل، ج ٣، ص ١٠٣.
ابن حزم : الفصل، ص ٨٨ — ٨٩.

(٢) ابن حزم : الجمهرة، ص ٤٩١، تحقيق عبد السلام هارون.
القلقشندي : نهاية الارب، ص ٤٥٢.

(٣) القرآن الكريم : سورة الزمر، آية رقم ٣.

(٤) ابن الكلبي : الأصنام، ص ٧، تحقيق أحمد زكي.

(٥) القرآن الكريم : سورة يوسف، آية رقم ١٠٦

(٦) ابن الكلبي : الأصنام، ص ٠٧

(٧) ابن كثير : كتاب التفسير، المجلد الثاني، ص ٢٦٤، تحقيق الصابوني.
ط ١، مكتبة دار القرآن الكريم — الكويت.

وكان «هبل أعظم الأصنام شأنا، وهو منصوب على بئر فى جوف الكعبة وهو من العقيق الأحمر على صورة إنسان، وكان أول من نصبه هو خزيمة بن مدركة ابن الياس بن مضر، فكان يقال له «هبل خزيمة»»(١). وقد كان للعرب ثلثمائة وستون صنما حول الكعبة وضعتها قريش للانتفاع من العرب وقت الحج(٢). وكان لأهل كل دار فى مكة صنم يعبدونه و يتمسحون به و يقدمون له التعظيم فى السفر والعودة(٣).

وكانت العرب تستقسم بالأزلام فى كل أمورها، وهي القداح ولا يكون لها سفر ولا مقام ولا نكاح ولا معرفة حال إلا رجعت إلى القداح وهي سبعة لها أمناء منهم(٤). فاذا أراد أحدهم قضاء أمر لجأ إلى القداح فضربها فان خرج قدح بنعم، مضى إلى غايته وان خرج بلا، عدل عن المضي فيه، و يذكر ابن الكلبي أن فى جوف الكعبة أمام هبل سبعة من القداح، إذا اختصموا فى أمر أو أرادوا سفرا أو عملا أتوا هبل فاستقسموا بهذا القداح عنده(٥). ولم يكن هبل وحده معبود العرب، فقد انتشرت الأصنام فى أنحاء شبه الجزيرة ووضعت بأشكال مختلفة، سواع فى ينبع وكانت سدنته بنو لحيان، وود فى دومة الجندل اتخذته كلب، و يغوث فى مذحج وأهل جرش، و يعوق بأرض اليمن، ونسر فى حمير(٦). هذه الأصنام التى ذكرها القرآن الكريم عندما قص الله تبارك وتعالى خبرها على الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: «وقالوا لا تذرن آلهتكم، ولا تذرن ودا وسواعا ولا يغوث و يعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا»(٧).

ومن الأصنام الرئيسية فى شبه جزيرة العرب ثلاثة أصبحت آلهة للعرب هي

---

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٨٢، طبعة الحلبي، ١٩٥٥

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ١، ص ٧٠ — ٧١.

(٣) ابن الكلبي : الأصنام، ص ٣٣، تحقيق أحمد زكي.

(٤) اليعقوبي : تاريخ، ج ١، ص ٢٥٩، طبعة بيروت.
ابن الكلبي : الأصنام، ص ٢٨ — ٢٩.

(٥) ابن الكلبي : الأصنام، ص ٢٧ وما بعدها.

(٦) نفس المصدر السابق، ص ٨ وما بعدها.
ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٧٨ — ٧٩. طبعة الحلبي.

(٧) القرآن الكريم : سورة نوح، آية رقم ٢٣.

اللات فى الطائف والعزّى بنخلة ومناة على ساحل البحر بقديد بين مكة والمدينة(١). وهي التى ذكرها القرآن الكريم فى سورة النجم، قال تعالى: «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى»(٢).

وكان لكل صنم من هذه الأصنام سدنة يقومون برعايته وأداء الطقوس الدينية له ولكل من هذه الأصنام تلبية خاصة، وكان سدنة اللات بنو عتاب بن مالك من ثقيف(٣). و يقال آل أبى العاص بن أبى يسار بن مالك من ثقيف(٤). وكانت تلبية ثقيف لهذا الصنم: لبيك اللهم، إن ثقيفا قد أتوك وقد أخلفوا المال وقد رجوك(٥). وهي عند ثقيف تسبق كل الأصنام، وكانوا قد بنوا عليها بناء وكانت قريش وجميع العرب تعظمها(٦).

---

(١) ابن هشام : السيرة — المجلد الأول، ص ٨٣ — ٨٥.
ابن الكلبي : الأصنام، ص ١٤ — ١٧، تحقيق أحمد زكي.
ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ١١٦، طبعة بيروت.
ابن حبيب : كتاب المحبر، ص ٣١٥.
ويذكر ابن حزم أن العزّى كانت شجرة بنخلة، عندها وثن، تعبدها غطفان وكانت قريش تعظمها وخالد بن الوليد هو الذى قطع الشجرة وهدم البيت وكسر الوثن.
ابن حزم : الجمهرة، ص ٤٩١.

(٢) القرآن الكريم : سورة النجم، آية رقم ٢١.

(٣) ابن الكلبي : الأصنام، ص ١٦.
ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٨٥، طبعة الحلبي.
ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٢، ص ١٩٢.

(٤) ابن حزم : الجمهرة، ص ٤٩١.
عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب، ج ١، ص ١٤٨ — ١٥١.
جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ٥ ، ص ٩١ — ٩٣.

(٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ١ ص ٢٥٥، طبعة بيروت.
ابن حبيب : المحبر، ص ٣١١ — ٣١٢.
القلقشندي : نهاية الأرب، ص ٣١٥.
الزركلي : الأعلام، ج ٢، ص ٨٥.

(٦) ابن الكلبي : الأصنام، ص ١٦.
أحمد شلبي : التاريخ الاسلامي، ج ١، ص ٩٥، ط ٥، ١٩٧٠.

وما دام اللات صنم ثقيف الرئيسي وأكثر معبوداتهم تقديسا، فلابد لنا من الكتابة فى تاريخها وأهميته بالنسبة لهم.

فالروايات متعددة حول ذكر اللات وتاريخ وجودها، واحدى هذه الروايات تذكر أنها وضعت فى الطائف بعد شيوع الأصنام فى الحجاز بعد أن نقلها عمرو بن لحي الخزاعي(١). ورواية تقول أنها صخرة لرجل من ثقيف كان يلت السويق للحجاج، فلما مات أخبرهم عمرو بن لحي (الذى جعلته العرب ربا لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة) أنه لم يمت وانما دخل الصخرة فأمرهم بعبادتهم وأن يبنوا عليها بيتا يسمى اللات(٢). أما ابن الكلبي فيقول إن اللات كانت صخرة مربعة وكان يهودي يلت عندها السويق(٣). ويبدو أن هذه الرواية ماوضعت إلا لتعظيم اللات.

فاللات هو صنم من الأصنام القديمة المشهورة عند العرب، وقد جاء ذكره فى القرآن الكريم كما مرّ بنا سابقا. وقد كان على شكل صخرة مربعة بالطائف يسترونها بالثياب ويهدون لها الهدايا والنذور ويعلقون عليها القلائد والسيوف وكانوا يطوفون حوله ويسمونه الربة(٤). وكانوا يمرون عليه فى السفر والعودة ويحلقون رؤوسهم عندها تعظيما وتقديسا له(٥). وكانوا يعظمونه تعظيم أهل مكة للكعبة، لا بل يضاهون بيتها بالكعبة(٦). وتحت صخرة اللات كانت حفرة

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٧٧، طبعة الحلبي.
اليعقوبي : تاريخ ج ١، ص ٢٥٤ — ٢٥٥، طبعة بيروت.

(٢) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ٤، طبعة بيروت.
السهيلي : الروض الأنف، ج ١، ص ٩٦.
ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٧٧، هامش رقم (٢).

(٣) ابن الكلبي : الأصنام، ص ١٦.
وعلى ذكر السويق، فهو الحنطة أو الشعير المحمّص، الذى يطحن ويمزج بالماء والعسل والسمن ويلتّ بعد رجّه بالماء.
ابن هشام : المجلد الأول، ص ٤٥، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٤) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٦٩، طبعة أكسفورد.

(٥) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٨٣، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٦) نفس المصدر والصفحة.
ابن حبيب : كتاب المحبر، ص ٣١٥.

عرفت بالغبغب حفظت فيها الهدايا والنذور والأموال التى كانت تقدم له، فلما هدمه المغيرة بن شعبة بعد فتح مكة أخذ جزءا من أموالها إليه(١).

وقد ظلت اللات ربة ثقيف حتى أسلمت القبيلة فأحرقت وهدمت من قبل المسلمين واستولى على أموالها.. هذه الأموال التى أخذ المغيرة بن شعبة قسما منها..

إن عبادة اللات من العبادات القديمة، فقد عبدها عرب الشمال كالأنباط وقد اعتبروها أما للآلهة أو سيدة لها عندهم، ومن الأنباط انتقلت إلى تدمر بعد أفول نجم البتراء عاصمتهم وانتقال القوة السياسية إلى العاصمة الجديدة وفيها سمي وهب اللات ابن الملكة الزباء، ملكة تدمر، كما تسمّى بها أناس آخرون وردت اسماؤهم فى نصوص الحجر التى وجدت هناك. وكذلك ذكرت فى اللهجة الصفوية وسميت (هل ت). ولعل هلات أى على نحو ما ينطق بالكلمة فى لهجة القرآن الكريم، والهاء فى الكلمة أداة تعريف فى اللهجة الصفوية، فيكون المراد بذلك اللات، ويظن أن اللات أنثى وهي الشمس بدليل أن الشمس انثى، أى آلهة فى العربية وفى كثير من اللهجات السامية الأخرى أن اللات انثى كذلك(٢). وكان العرب يقولون عن اللات والعزى ومناة أنهن بنات الله وهن يشفعن إليه، فلما بعث الله رسوله أنزل عليه الآية، قال تعالى: «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى»(٣).

وبعد نزول هذه الآية استبشر الكافرون بالفرح لذكر اللات فى الآية، وكان الرسول قد تمنى فى نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه، ويبدو فى

(١) ياقوت : معجم البلدان، ج ٥، ص ٤، مادة اللات، طبعة بيروت.
الواقدي : المغازي،ج ٣، ص ٩٧٢.
وعلى ذكر الغبغب، يقول ابن الكلبي ان الغبغب هو منحر للعزى ينحرون فيه هداياها. ويقول ياقوت هداياهم. ويذكر ابن هشام ان الغبغب هو المنحر ومهراق الدماء للعزى.
ابن الكلبي : الأصنام، ص ٢٠.
ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٨٤، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٢) جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ٥، ص ٩١ — ٩٣.
جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام، ص ١٠٠ — ١٠١.

(٣) القرآن الكريم : سورة النجم، آية رقم ١٨.

الآية لما كان لهذه الأصنام ومنها اللات من أهمية دينية عندهم، وهذه الأهمية معكوسة على مركز الطائف الديني الذى له مكانة عظيمة ومقدسة فى نفوسهم(١).
و يبدو أن أهل مكة كانوا يشتركون فى تعظيم اللات، فنقرأ لابن هشام فى السيرة «ان أمية بن جمح كان يعذب بلالا بالحر والصخرة على صدره و يقول له: لا والله هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو فى ذلك البلاء أحد أحد»(٢). وعندما أصيبت عين زنبرة بعد عتقها قالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزّى وما تنفعان، فردّ الله بصرها(٣). وكانت قريش تعظم اللات والعزى، قال ابن اسحق: ان أبا لهب لقي هندا بنت عتبة بن ربيعة حين فارق قومه، وظاهر عليهم قريشا، فقال: يابنت عتبة، هل نصرت اللات والعزى، وفارقت من فارقهما وظاهر عليهما، قالت: نعم، فجزاك الله خيرا يا أبا عتبة(٤). وفى سفر أبى طالب إلى الشام اصطحب معه النبي صلى الله عليه وسلم وهو لا زال غلاما بعد، فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام كان فيها راهب يدعى بحيراء، فدعاهم إلى طعام فحضروا ولم يحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطلب الراهب حضوره، فأحضره أحد الرجال وقد أقسم باللات والعزى بضرورة حضوره ثم بعد الطعام أخذ الراهب يسأل الرسول و يستحلفه باللات والعزى، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم، تسألنى باللات والعزى، فوالله مابغضت شيئا قط بغضهما، و يقال أنه سأله باللات والعزى اختبارا للرسول(٥).

ومن هذا كله يتبين لنا أن اللات من الأصنام التى كان لها شهرة واسعة بين العرب الشماليين وبين عرب الحجاز وله معابد فى مواضع أخرى من هذه الأنحاء، أما عند ظهور الإسلام فقد كان معبده الرئيسي فى الطائف(٦). وترى

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٢، ص ٣٣٨، طبعة دار المعارف.
(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٣١٨، طبعة الحلبي ١٩٥٥
(٣) ابن هشام : السيرة — المجلد الأول، ص ٣٢٠.
(٤) نفس المصدر السابق، ص ٣٥١.
(٥) نفس المصدر السابق، ص ١٨٢.
(٦) ابن الكلبي : كتاب الأصنام، ص ٣٣، وكذلك ص ١٧ هامش رقم (٨) ص ١٨.
جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ٥، ص ٩٢، طبعة بغداد.

أهميـة اللات عـنـد ثـقيف فى حملة أبرهة الحبشي سنة ٥٧٠م، حيث قصد أبرهة اللات.. معتقدا أنها الكعبة التى يريد هدمها. مما جعل ثقيفا تفزع من الأمر وتبعث معه من يدله على الكعبة خوفا عليه، فأرسلت معه أبو رغال الذى مات فى المغمس وهو مع الحملة، فدفن هناك وظل الناس يرجمون قبره زمنا طويلا(١). قال ابن هشام: عند وصول أبرهة إلى الطائف، قالت له ثقيف: «أيها الملك انما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد — يعنون اللات — انما تريد البيت الذى بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم»(٢). ويسود الاعتقاد أيضا أن اللات ماهي إلا نصب من الأنصاب التى كانت مستعملة لذبح القرابين عنده إلى الأصنام، فنسي الناس أصلها، حتى ظنوا أنها الصنم نفسه، ويؤيد هذا القول ما جاء به ابن الكلبي من أن الغبغب الموجود تحت الصنم كان منحرا ينحرون فيه هداياهم ويسميه ابن هشام المنحر ومهراق الدماء(٣). أو أنها بقايا الوثنية التى كانت تعبد فيها الأحجار وتقدّس ولو لم تكن على شكل إنسان أو حيوان أو شكل آخر مصنوع صنعا فنيا ليكون رمزا للآلهة، ومهما يكن فان الأحجار هي عقيدة فى رأى علماء الأديان وفى نظر معتنقيها تختلف عن وجهة نظرنا إلى هذه الأحجار(٤).

مما سبق يتبيّن لنا الأهمية الدينية للطائف، باعتبارها المركز الديني الثاني فى بلاد الحجاز بعد مكة، وربما كان للناحية الدينية دوراً فى تقريب العلاقات بين قريش وثقيف، باعتبار كل منها يمثل مكانا دينيا مهما ومصدرا لحياتهم الاقتصادية.

ولا بدّ لنا فى هذا البحث أن نتطرق إلى الأشهر الحرم وأهميتها فى المجتمع

---

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٢، ص ١٣٢، طبعة دار المعارف.
وأقدم الروايات التى ذكر فيها أبو رغال ما قاله جرير:
اذا مات الفرزدق فارجموه ... كرجمكم لقبر أبي رغال
ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١، ص ١٣٧.

(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٤٧ — ٤٨، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

(٣) انظر ما سبق ذكره فى هامش صفحة ٩٣، هامش رقم (٥).

(٤) جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ٥، ص ٩١ — ٩٣، طبعة بغداد.

العربي الجاهلي والنتائج التى أدت إليها من جرّاء التزام غالبية القبائل العربية بها. فالأشهر الحرم هي أربعة، ثلاثة منها متتابعة وواحد فرد، فالمتتابعة هي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم. أما الفرد فهو شهر رجب، وسمّيت بهذا الاسم لأن العرب كانوا لا يستحلون فيها القتال ماعدا قبيلتي طي وخثعم فلم تلتزما بها(١). ان الأشهر الحرم كانت نتيجة لضرورة فرضتها ظروف البيئة العربية، لعدم وجود حكومة ذات سيادة وقانون يلتزم به الجميع، مما أدى إلى زيادة الغارات القبلية وفقدان الأمن والاستقرار فى الوقت الذى اعتمد فيه الاعراب على التجارة وما تفرضه من تحرّك وأسفار، مما استدعى وضع مايشبه القانون أو العرف المرعي لوقف الغارات وسيادة الأمن وقت نشاط الرحلات التجارية وقيام الأسواق، ومن هنا تبرز أهمية هذه الأشهر الأربعة التى وضعت كهدنة وعرف وقانون مرعي يسود أثناءها السلام، ويتيسر للناس قضاء مصالحهم، ثم جاء القرآن الكريم(٢). ليصبغ هذه الهدنة بصبغة قدسية، فأصبحت هذه الأشهر جزءا من حياة الناس وكيانهم الاقتصادي والاجتماعي والأدبي والديني، وكانت النتيجة أن أصبح موسم الحج يساهم مساهمة فعالة فى حل المشاكل المعقدة فى المجتمع القبلي آنذاك(٣).

وهكذا لعبت الأشهر الحرم دورا رئيسيا فى استتباب الأمن وتوفير أكبر قدر ممكن من السلام، فكان موسم الحج هو نفسه موسما للأسواق التجارية، ولهذا قصدها الناس لتبادل المنفعة فيما بينهم.

ويبدو أن فترة الأشهر الحرم وما وفرته من أمن ومنفعة أطمعت العرب فى تطويلها فابتدعوا النسيء لينعموا فى أكثر شهور السنة أمنا وسلاما وفائدة، والبيوتات الكبيرة فى الحجاز هي وراء هذه البدعة أمثال حذيفة بن عبد بن

(١) ابن منظور : لسان العرب، المجلد الأول، ص ٦١٦، طبعة بيروت.
اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١١٠، طبعة بيروت.
السهيلي : الروض الأنف، ج ١، ص ٦٣ — ٦٤.

(٢) قال تعالى : «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد».
القرآن الكريم، سورة المائدة، الآية رقم ٩٦.

(٣) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٩٣ ومابعدها، طبعة دار الفكر دمشق.

مالك بن كنانة ابن خزيمة وغيره(١). إلا أنه أسيء استعمال هذه البدعة مؤخرا مما استدعى أن يهاجمها القرآن(٢)، بسبب سوء استعمال الناس لها، حتى لا يتجرّأ الناس على الانتقاص من الحرمات وخرق التقاليد النافعة، فان الأصل فى ابتداعها كان لتحقيق نفع أكبر وغرض أسمى، وقد جاء هجوم القرآن عليها بعد أن قامت الدولة وساد القانون وأصبح المجتمع يتجه إلى مثل غير مثل الجاهلية.

لقد كانت ثقيف فى الطائف جزءا من مجتمع الحجاز وتعيش فى احدى مدنه الهامة، لذا ارتبطت بما ارتبط به العرب فى شبه الجزيرة، فكانت تشارك فى حج البيت الحرام فى الكعبة وتساهم فى حماية الأشهر الحرم، وبذلك تعاونت وتبادلت المنافع وساهمت فى جميع مجالات النشاط الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، لاسيا وأن القبائل العربية فى مجتمع الحجاز كله كانت تحضر الأسواق، بالاضافة إلى من كان يسكن اليمن ونجد ومشارف الشام والعراق، مما أتاح لها المشاركة الفعلية فى الأسواق حيث تبادلت منافع البيع والشراء واستفادت منها مثلما كانت مكة(٣). والقرآن الكريم خير شاهد على ذلك، قال تعالى: «إن الذين كفروا ويصدّون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس، سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد يظلم نذقة من عذاب أليم. وأذّن فى النّاس بالحجّ يأتوك رجالا وعلى كلّ ضامر يأتين من كل فج عميق. ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيّام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير»(٤). وهذه الآيات تتضمن دلالة صريحة على أن العرب جميعهم أو القسم الأكبر منهم كانوا يأتون مكة ويمارسون مع أهلها طقوس الحج ويتبادلون المنافع ويساهمون فى المفاخرة والخطابة وانشاد الشعر، ومنهم من كان يأتى لحل مشاكل مستعصية لا يمكن حلّها إلا فى ظروف مثل

---

(١) ابن هشام : السيرة — المجلد الأول، ص ٤٤ طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٢) قال تعالى : «انما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا، يحلّونه عاما ويحرّمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرّم الله».
القرآن الكريم — سورة التوبة، آية رقم ٣٧.

(٣) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٧٥.

(٤) القرآن الكريم : سورة الحج، الآيات ٢٤، ٢٦، ٢٧.

ظروف الحج وموسمه وأمنه، ولقد ساهمت ثقيف بكل هذه النشاطات باعتبارها جزءا من مجتمع الحجاز آنذاك.

وهكذا، فقد كان العرب يأتون إلى هذه الأسواق من كل الجهات فيتبادلون المنافع و يأمنون فيها على دمائهم وأموالهم و يساهمون مساهمة فعّالة فى حل المشاكل والقضايا المعقّدة(١).

وخلاصة القول، فان الطائف ارتبطت بمكة وتشابهت معها فى صور الحياة المختلفة التى سادت مجتمع الحجاز، ومن هنا جاءت التسمية بالقريتين أو المكيتين وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى: «وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»(٢). وقد ساهمت مواسم الحج مساهمة مباشرة فى ذلك الارتباط، ومن هنا كان دورها بارزا فى مجتمع الحجاز بصفة خاصة ومجتمع شبه الجزيرة بصفة عامة.

---

(١) الأزرقي : أخبار مكة، ج ١، ص ١٨٨، طبعة دار الأندلس ١٩٦٩.
اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٧٠، طبعة بيروت.
أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٨٤، طبعة دار الفكر.

(٢) القرآن الكريم : سورة الزخرف، آية رقم ٣١.

الفصل الثاني

موقف ثقيف من الدعوة الإسلامية قبل الهجرة ومحاولة النبي صلى الله عليه وسلم ضمها إلى جانبه منافسة لمكة

لقد تميّز موقف ثقيف قبل فتح مكة بالعداء للدولة الإسلامية وصاحبها، وقد تمثّل هذا الموقف فى صورتين، الأولى قبل الهجرة والثانية بعد الهجرة. فى الفترة الأولى تمثل بالوقوف بجانب قريش ضد الدعوة دون أن تشتبك بشكل مباشر مع الرسول صلى الله عليه وسلم فرفضت دعوته أثناء عرضه عليها عند زيارته الأولى لمدينتها الطائف، هذه الزيارة التى جاءت بعد هجرة أغلب أصحابه من المسلمين إلى الحبشة وبعد وفاة زوجته خديجة بنت خويلد وعمه أبى طالب. عارضا عليهم الاسلام، طالبا منهم قبوله، لكنه، رغم هذه الزيارة والمشقة التى عانى منها، لم يلق منهم نجاحا وقبولا.

قال ابن اسحاق: «لما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم أخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو بن عمير، وحبيب بن عمرو بن عمير بن عوف ابن عقدة بن ثقيف، وعند أحدهم امرأة من قريش من بنى جمح، فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه. فقال أحدهم هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك. وقال الآخر: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك؟. وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا. لئن كنت رسولا من الله، كما تقول، لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ماينبغى لى أن أكلمك. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خبر ثقيف وقد قال لهم — فيما ذكر لى — إذا فعلتم مافعلتم فاكتموا عنى ...الخ[1].

(١) ابن هشام : السيرة — المجلد الأول، ص ٤١٩، طبعة الحلبي ١٩٥٥.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٢، ص ٣٤٤ — ٣٤٥ طبعة دار المعارف.

ورغم هذا الموقف من سادة ثقيف، فانهم لم يردّوه ردا كريما، بل أغروا به أحداثهم وسفاءهم يسبّونه ويصيحون به ويرمونه بالحجارة، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم ييأس وسط هذه الأزمة القاسية، بل توجه نحو ربّه طالبا منه النصرة، شاكيا له أمره. قال ابن هشام: فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما ذكر لى - : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، ياأرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى؟. إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالى.. الخ(١).

لقد عانى الرسول صلى الله عليه وسلم الكثير فى هذه الرحلة، لكن العقيدة يهون دونها كل جهد وعناء. ولا بدّ لنا من وقفة حول هذه الزيارة التى جاءت بعد اشتداد الأذى عليه من قريش. فمما لا شك فيه أنه صلى الله عليه وسلم اتجه نحو الطائف راغبا بنشر دعوته هناك، باحثا عن مسلمين جدد يجد بينهم الحماية، على الأقل، بعد هذا الذي عانى منه فى مكة، وكان يراوده الأمل بنشر الإسلام هناك وبناء أمة اسلامية كما قامت فيما بعد فى المدينة، وكان يأمل أن يجد فى الطائف قبولا أكثر مما وجد بين القرشيين. وكان يتوقع أن يجد بين الأحلاف تأييدا، ولهذا ذهب بنفسه إليهم، ولربما لعلاقة النسب أثر فى هذه الزيارة، فأمه آمنة بنت وهب جدتها من ثقيف(٢)، ولرّبما أراد أن يكسب الأحلاف من ثقيف ويفهمهم ضرورة التخلّص من سيطرة المكيين المالية عليهم وبخاصة بنى مخزوم الذين كانت لهم أموال ونفوذ بين الثقفيين(٣). كما أن مركز الطائف الاقتصادي وكون قبيلة ثقيف قبيلة كبيرة وآمنة فى مدينتها له أثر فى تفكيره بالذهاب إليهم دون غيرهم، لأن أكثر القبائل كانت مرتبطة بقريش وليس لها أية صفة

(١) ابن هشام : السيرة - المجلد الأول، ص ٤٢٠، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٢) ابن حبيب : كتاب المحبر، ص ٩، ١٧. طبعة دار المعارف العثمانية، ١٩٤٢.

(٣) ابن هشام : السيرة - المجلد الأول، ص ٤٠٩ و ٤١١، طبعة الحلبي. حيث يذكر أن الوليد بن المغيرة بن مخزوم هو أحد كبار المعارضين للدعوة ومن الذين كانت لهم أموال وديون فى الطائف.
وات : محمد فى مكة - ص ٢١٩ وما بعدها تعريب شعبان بركات المطبعة العصرية - بيروت.
أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٢٢ - ١٢٣.

مستقلة، فربما كان يخشى على حياته من التوجه إليهم فى تلك الظروف، كما كانت الطائف أقرب إلى مكة منها إلى المدينة، والمدينة تعجّ آنذاك بالخلافات والنزاعات بين الأوس والخزرج من جهة واليهود من جهة أخرى. ولا نغالى إذا قلنا أنه لو نجحت زيارته للطائف وتفهمت ثقيف الدعوة لربما كانت الطائف هي مدينة الرسول قبل يثرب.

ومهما كانت طبيعة العروض التى عرضها الرسول صلى الله عليه وسلم والأسباب التى دعت الثقفيين إلى رفضها فانها عملت على عودته إلى مكة دون أن يحقق نتيجة تذكر، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتوقع أيضا أن لا يجد التأييد بينهم، لذا ترك أصحابه فى مكة ليستطيعوا تدبُّر أمر عودته إلى مكة فى حالة الفشل، ومن المعروف انه عندما ترك مكة إلى الطائف لم يكن يستطيع العودة إليها إلا إذا ضمن جوار أحد كبار أهل مكة، وبالفعل عندما عاد من الطائف بغير نتيجة بعث إلى الأخنس بن شريق يطلب منه اجارته، لكنه رفض بحجة أن الحليف لا يجير — لأن الأخنس حليف بنى زهرة — فعاود الكرّة وطلب الاجارة من سهيل بن عمرو لكنه لم يجبه أيضا بحجة أن بنى عامر بن لؤى لا تجير على بنى كعب، لذا طلب من المطعم بن عدي فقبل الاجارة ومما لا شك فيه أن الرجل الذى كان وسيطا بين الرسول ومن يطلب الاجارة منهم كان من أصحابه والمخلصين لدعوته(١).

ومهما يكن من أمر، فان الدعوة لم تكن مفاجئة لثقيف عندما خرج إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم فى مدينتهم للإسلام، لأن ثقيفا أخذت تسمع بأمر الدعوة سواء بالطائف نفسها أو من رجالها، أو من خارج الطائف، نتيجة انتشار الدعوة الإسلامية، لذا أخذت تخشى هذا الحدث الجديد، وتنظر إليه نظرة لا تقل عن نظرة أهل مكة إليه(٢). وقد تعجب وفد الثقفيين الذى ذهب إلى الكاهن القضاعي محتكما إليه فى قضية الخلاف حول بئر الماء بين جندب بن

(١) ابن هشام : السيرة — المجلد الأول، ص ٣٨١، طبعة الحلبي ١٩٥٥.
الطبري : الرسل والملوك. ج ٢، ص ٣٤٧، طبعة دار المعارف.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٢، ص ٣٥٠.
ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٢٨٢، طبعة الحلبي، ١٩٥٥

الحارث الثقفي وعبد المطلب، وكان منزل الكاهن بالشام والذى قال لهم: احلف بالضياء والظلم، والبيت والحرم أن الماء ذا الهرم — ويقصد به البئر — للقرشي ذى الكرم وساعتها غضب الثقفيون، وعندها قال الكاهن:

اما ورّب القلص الرواسم   يحملن أزوالن بغي طاسم
ان سناء المجد والمحارم   فى شيبة الحمد سليل هاشم
أبى النبي المرتضى للعالم(١).

وتذكر المصادر أن أمية بن أبى الصلت الثقفي قدم دمشق قبل الإسلام، وكان مطلعا على الكتب القديمة وكان يذهب إلى هناك للمتاجرة مع أبى سفيان بن حرب، وبعد ظهور الإسلام سأل عن خبر محمد صلى الله عليه وسلم فقيل له يزعم أنه نبي، فخرج حتى قدم إليه وسمع منه آيات من القرآن وانصرف، فتبعته قريش تسأله عنه فقال: أشهد أنه على الحق. فقالوا له: هل تتبعه؟. قال: انظر فى أمره وخرج إلى الشام وبعد معركة بدر عاد يريد الإسلام إلا أن مقتل أحد أقاربه جعله يمتنع عن الدخول فيه وبقي فى الطائف حتى مات(٢). لكن الأصفهاني يؤكد بأن أمية بن أبى الصلت كان يذكر أن نبيا من العرب سيرسل، لأنه قرأ فى الكتب القديمة أن نبيا من العرب سيبعث. فكان يرجو أن يكونه، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم قيل له: هذا الذى كنت ترجوه، فقال: انما كنت أرجو أن أكونه(٣). فأنزل الله فيه قوله تعالى: «واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آ ياتنا فانسلخ منها»(٤). وان الرسول صلى الله عليه وسلم قال فى أمية: إن أمية آمن فى شعره وكفر فى قلبه وفى موته. قال أمية: دنا أجلى، وهذه المرضة منيتى، وأنا أعلم أن الحنيفية حق، ولكن الشك يداخلنى فى محمد(٥).

---

(١) البلاذري : أنساب الأشراف، ج ١، ص ٧٤ — ٧٥. تحقيق محمد حيد الله — طبعة دار المعارف.

(٢) الزركلي : كتاب الأعلام، ج ١، ص ٣٦٤.

(٣) الأصفهاني : الأغاني، ج ٤، ص ١٢٦. طبعة دار الثقافة، بيروت ١٩٦٠.

(٤) القرآن الكريم : سورة الأعراف، آية رقم ١٧٥.

(٥) الأصفهاني : الأغاني — ج ٤، ص ١٣٥. طبعة بيروت.

من الثابت أن أول من عارض الدعوة الإسلامية قريش. وعن طريق ظهور الدين الجديد والدعوة الإسلامية بدأت الأخبار تنتشر بين القبائل العربية الأخرى. ولقد كان الكثير من الثقفيين حلفاء لقريش، منهم الأخنس بن شريق الثقفي، فقد كان حليفا لبنى زهرة ولقد سميّ بالأخنس لأنه خنس بالقوم يوم بدر قال لبنى زهرة ناصحا لهم إن الله نجى عيركم وأموالك وصاحبكم، و يقصد به مخرمة بن نوفل، وان محمدا واحد منكم، فاذا كان نبيا سعدتم به، وان كان كاذبا قتله غيركم فطالبهم بالرجوع وقالوا له: كيف نستطيع أن نتدبّر أمر العودة؟. فقال لهم: انني سوف أتظاهر بالسقوط من على بعيرى، وأنتم تدّعون بأني لسعت، فاذا طلبوا منكم المضي قولوا لا نفارق صاحبنا حتى نتبيّن أمره، فاذا مضوا رجعنا، وقد فعلت بنو زهرة واستجابت للأخنس الذى كانت له مكانة كبيرة عندهم، وكان فيهم مطاعا يتيمنون به(١). وهو الذى كان يستمع سرّا إلى الرسول مع أبى جهل، وقد أنزل الله فيه قوله تعالى: «ولا تطع كل حلاف مهين، همّاز مشّاء بنميم، منّاع للخير معتد أثيم»(٢). و يذكر الزمخشري بأن الأخنس جاوز فى الظلم وأصبح كثير الآثام غليظا على الرسول والدعوة، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآيات التى سبق ذكرها(٣).

وقد شارك الثقفيّون مع أهل مكة فى ايذاء الرسول صلى الله عليه وسلم ومنهم عدي بن حمراء الثقفي، وكان جارا للرسول، فكان يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلي حتى اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم حائطا يستر به منهم إذا صلىّ(٤). ولقد كان للأخنس وعدي دور وشعب بمكة(٥).

وكان أبو جهل المخزومي وهو أكثر عداء للدعوة ولشخص الرسول صلى الله

(١) الواقدي : المغازي — ج ١، ص ٤٤ — ٤٥، طبعة أكسفورد.
(مع التصرف بنقل النص).

(٢) القرآن الكريم : سورة القلم، الآيات ١٠، ١١، ١٢.
ابن هشام : السيرة — المجلد الأول، ص ٣٦٠، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٣) الزمخشري : تفسير الكشاف — ج ٤، ص ٥٨٧. طبعة دار الكتاب العربي، بيروت.

(٤) ابن هشام : السيرة — المجلد الأول، ص ٤١٦، طبعة الحلبي.
اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي — ج ٢، ص ٢٤.

(٥) الأزرقي : أخبار مكة — ج ٢، ص ٢٥٦، ٢٨٧ طبعة الأندلس / بيروت.

عليه وسلم بالذات يبدو أنه ساوره التصديق من رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب، قال ابن اسحاق: « قالت عاتكة والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتني. قالت: رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته ألا انفروا بالغدر لمصارعكم فى ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه.. ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقى بيت من بيوت مكة إلا ودخلتها منها فلقة»(١). وإن المغيرة بن شعبة الثقفي قد عرف عنه أن أمر الدعوة الإسلامية حق، وأن محمدا نبي وذلك خلال زياراته لمكة، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد دعا أبا جهل للإسلام وكان معه المغيرة بن شعبة، وقد اعترف أبو جهل بصدق الدعوة للمغيرة، لكن عناده ومكابرته حالا دون تصديق الرسول ودعوته(٢).

مما تقدم يتبين لنا أن قبيلة ثقيف كانت تعرف تماما نبوّة الرسول صلى الله عليه وسلم وان اعتراضها جاء على شخصه بالذات، لانها طمعت أن تكون النبوة فيها، لهذا اعتقد الرسول بأنهم لن ينصروه ولن يقرّوا بدعوته، بعد رفضهم لعرضه، وطلبوا منه مغادرة مدينتهم وأغروا سفهاءهم بايذائه ورميه بالحجارة عند مغادرته لهم(٣).وفى هذا الوقت بالذات نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم آية «والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق...». وقد قرأها الرسول على مسمع من بعض الناس وردها كثيرا، ومن خلال الترديد سمعها من قبيلة عدوان عبد الرحمن بن خالد العدواني، فدعت ثقيف الرجل وسألته ليقرأها، لكن القرشيين الموجودين فى الطائف والذين حضروا المجلس لسماع الآية كذّبوه ورموه بخشن الكلام، فامتنعت بهم وقالت إن قريشا أولى بالتصديق منّا، فكيف نصدّقه وبذلك أيدت ثقيف قريشا فى موقفها من الآية(٤).

---

(١) ابن هشام : السيرة — المجلد الأول، ص ٦٠٧ — ٦٠٨ طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
الواقدي : المغازي — ج ١، ص ٤٢، طبعة أكسفورد.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية — ج ٣، ص ٦٤ — ٦٥.

(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٢، ص ٣٤٤ — ٣٤٥.
اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ٣٦.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية — ج ٣، ص ١٣٦ — ١٣٧، طبعة بيروت.

لقد عارضت مكة والطائف الدعوة الإسلامية، بينما استجابت المدينة بسرعة لهذ الدعوة، ومن أوائل من استجاب للدعوة سويد بن الصامت الذى جاء مكة حاجا أو معتمرا فعرض عليه الرسول الإسلام فقال إن هذا القول حسن ثم انصرف فقدم المدينة على قوم فقتلته الخزرج، ثم إسلام اياس بن معاذ ومقابلة الرسول لرهط من الخزرج عند العقبة وما تبعه من ارسال مصعب بن عمير لتعليم أمور الدين هناك، ثم مجيء ٧٣ رجلا وامرأتين فى بيعة العقبة الثانية(١). لابد لنا من تفسير هذا الموقف، فقد كان هناك بون شاسع بين الأحوال الدينية والسياسية والاجتماعية فى كل من المدينة ومكة. فى هذه الأخيرة كان هناك نظام سياسي واجتماعي واقتصادي متين البنيان واضح المعالم وضعه زعماء قريش ابتداء من قصي بن كلاب ثم ابنه عبد مناف ثم هاشم ثم عبد المطلب، وهذا النظام نجح فى أن يبسط على مكة أمانا واستقرارا جعل منها أكبر قوة سياسية واقتصادية فى الحجاز فى ذلك الحين(٢). هذا إلى أن قريشا رغم اختلاف بطونها وبين ما كان بين هذه البطون من عداوات، كان عند أهلها شعور بأهمية الوحدة وضرورة المحافظة عليها، وذلك للمحافظة على المكاسب السياسية والاقتصادية التى حققتها قريش على يد زعمائها الذين ذكرناهم، ومهما بلغت المنافسة بين بنى هاشم وبنى عبد شمس، وكذلك مهما بلغت المنافسة بين حلف المطيبين وحلف الأحلاف، فان أحدا من الفريقين لم يكن مستعدا للذهاب فى العداوة إلى أن يجعل وحدة قريش كلها فى خطر(٣). فقد كان الجميع يعلمون أن قوة قريش فى وحدة صفوفها وكان أكثر ما أخاف القرشيين فى دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم أنها عرّضت هذه الوحدة للخطر، وهذه ظاهرة من أقوال الكثير من زعماء القرشيين(٤). فيذكر ابن هشام: «ان زعماء قريش من أمثال عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وأبى جهل بن هشام، ومن اجتمع منهم آنذاك قد طلبوا الاجتماع بالرسول، فجاء إليهم وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بدءا، فقالوا له: يامحمد، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وانا والله ما

(١) ابن هشام : السيرة — المجلد الأول، ص ٤٥٤ وما بعدها، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
(٢) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٠٥، ١١١، ١٢٥، طبعة دار الفكر.
(٣) ابن هشام : السيرة — المجلد الأول، ص ١٣٠ — ١٣٢ طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
(٤) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٢٤ — ١٢٥.

نعلم رجلا فى العرب أدخل على قومه مثلما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفّهت الأحلام، وفرّقت الجماعة، فان كنت تطلب مالا جمعنا لك أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وان كنت تطلب الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا، وان كنت مريضا طلبنا لك الطب من أموالنا، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم، قال: «ماجئتكم بهذا، وأنا بعثنى الله رسولا وأمرنى أن أكون بشيرا ونذيرا». وأقوال أخرى كثيرة رددها زعماء قريش بهذا الخصوص(١).

وتكشف هذه المواقف مجتمعة احساس قريش الطاغي بالتجارة والمال. فقد جعلت مبدأ المال عِدلاً للإسلام الحنيف ظناً منها أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقبل به.

فمن الناحية السياسية ارتضت نوعا من التنظيم ألغت فيه الرئاسة القائمة على الزعامة القبلية، فحكمتها العشائر والبطون وتكون منهم ماعرف بالملأ — فوزعت أمور السلطة السياسية بينهم(٢). فكانوا حريصين على مبدأ التناظر بينهم كزعماء وان لا يسود أحدهم على الآخر، من هنا كانت المقاومة خوفا على انتقال السيادة السياسية منهم وبذلك تنتهى زعامة الملأ.

ثم ان الرسول صلى الله عليه وسلم هاجم الوثنية والأصنام فرأت قريش بذلك أنه يهدم مكانتها بين القبائل، فهو ينتقص من الدين الذى أخذت منه زعامتها الروحية بين العرب وعلى أساس هذه الزعامة يقوم مركزها الاقتصادي، وبذلك أدركت أن انفضاض القبائل عنها يعنى فقدانها التنفيذ السياسي والاقتصادي والأدبي معا(٣).

---

(١) ابن هشام : السيرة — المجلد الأول، ص ٢٩٥ — ٢٩٦ طبعة الحلبى، ١٩٥٥.

(٢) ابن هشام : السيبرة — المجلد الأول، ص ١٣٢، طبعة الحلبي.
الألوسي : بلوغ الارب،ص ٢٤٨ — ٢٤٩.
أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٢١، طبعة دار الفكر.
أحمد كمال : الطريق إلى المدائن، ص ١٨٩، طبعة بيروت، ١٩٧٢.

(٣) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ٧٠ وما بعدها.

و يذكر الدكتور طه حسين أن الرسول صلى الله عليه وسلم لو دعا قريشا إلى التوحيد وحده دون أن يمس نظامهم الاجتماعي والاقتصادي لأجابته كثرتهم من غير مشقة ولا جهد، لأن قريشا لم تكن مؤمنة بأوثانها إيمانا خالصا ولا هي حريصة عليها حرصا صادقا، لكنها كانت تتخذ الأوثان وسيلة لا غاية فهي تنتفع منها وتستمد ثروتها الاقتصادية بما كانت تجلب إليها من الثمرات(١).

أما فى المدينة (يثرب) فقد كان الموقف يختلف عن ذلك كل الاختلاف، فأولا لم تكن المدينة وحدة سياسية كما كانت مكة، إذ لم ترزق بزعيم من طراز قصي بن كلاب، فكانت قبيلتا الأوس والخزرج متنافستين متباغضتين لا تكف الحروب والعداوات بينهما، ومع أن الخزرج كانوا أكثر عددا من الأوس، فإن الأوسيين رغم قلة عددهم كانت فيهم ضراوة وشدّة فى الحروب، ولم يكن من اليسير على الخزرج طي الأوس تحت جناحهم(٢).

وزاد فى سوء هذا الموقف تلك السياسة الخطيرة التى كان يهود المدينة يتبعونها، فقد كانوا حريصين أشدّ الحرص على أن يستمر الخلاف بين الأوس والخزرج، فكانوا يوقعون بين الفريقين، وكانوا فى الغالب يحالفون الأوس على الخزرج، فاذا أحسّوا منها اتجاها إلى الاتحاد ضدّ اليهود لجأوا إلى التهديد بالنبي الذى كانوا يتحدثون عن قرب قدومه، و يزعمون أنه سيقود اليهود إلى النصر على خصومهم من غير اليهود فى المدينة وجعلهم سادة البلد(٣). و يذكر ابن هشام أن الرهط من الخزرج قالوا لقومهم بعد مقابلتهم للرسول صلى الله عليه وسلم: « ياقوم هذا والله الذى كانت اليهود تعدكم به، فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدّقوه وقبلوا منه ماعرض عليهم من الإسلام»(٤).

(١) طه حسين : الفتنة الكبرى، ج ١، ص ١١، طبعة دار المعارف ١٩٦٦.

(٢) ابن هشام : السيرة — المجلد الاول، ص ٢٨٨ — ٤٢٧ ، ٥٥٦ — ٥٥٧، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ٢٧٧ و ٣١٧ وما بعدها.
اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ٣٧، يذكر فيها أيام الحرب بينهما.

(٣) ابن هشام : السيرة — المجلد الأول، ص ٤٢٨ — ٤٢٩ طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ٣٢١، وما بعدها.

(٤) ابن هشام : السيرة — المجلد الأول، ص ٤٢٩.
اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ٣٧ — ٣٨، طبعة بيروت.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٢، ص ٣٥٣ — ٣٥٤.

وكان كل من الأوس والخزرج يخافون هذه الدعوة من جانب اليهود، ولا يستطيعون الاتحاد للقضاء على خطرهم للأسباب التى ذكرناها آنفا، ولأنهم ربما كانوا لا يستبعدون أن يظهر بالفعل هذا النبي بين اليهود و يقودهم إلى النصر(١).

اذن، لم تكن هناك فى المدينة وحدة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو عسكرية، بل كان هناك عداء وحروب، ولقد سعت كل من الأوس والخزرج إلى ايجاد أفضل العلاقات مع مكة حفاظا على النفس والمصلحة، إلا أن قريشا كانت لا تقبل أبدا بسياسة المحالفات مع المدينة ومع الأطراف المتنازعة بالذات كي لا تخلق مراكز نفوذ تضر بمصلحتها وطرقها التجارية الهامة، وهذا واضح من رفض قريش محالفة الأوس ووقوف أبى جهل ضد هذه المحالفات(٢). فقريش كانت دائما تتبع سياسة الحياد والتوازن كي لا تعرض مصلحتها للخطر.

من هذا يتضح لنا انه لم يكن هناك فى المدينة مثل ذلك الأمن الشامل الذى ساد مكة بقيادة قصي بن كلاب وأبنائه من بعده، ولا مثل الطائف التى كانت آمنة بقبيلتها القوية ثقيف.

ولهذا، فعندما وصلت الدعوة الإسلامية إلى جمهور المدينة على يد النقباء الذين بايعوا الرسول بيعة العقبة الثانية(٣)، تصور زعماء القبيلتين أن صاحب الدعوة قد يستطيع توحيد صفوفهم وإزالة العداوات من صدورهم واقامة نظام سياسي واجتماعي يضاهي فى صلابته نظام مكة. هذا إلى أن رسل الأوس والخزرج الذين اجتمعوا بالرسول فى بيعة العقبة الثانية كانوا يشعرون أن الله سبحانه وتعالى قد اختصهم بهذا النبي المرتقب من دون اليهود، وأنهم سينالون النصر على أعدائهم هؤلاء بزعامة النبي الكريم الذى آمنوا به والذى توسموا فى كلامه الصدق والعزم والقدرة على جمع الصفوف وتوحيد أهل البلد تحت راية الدعوة الإسلامية التى بلغهم اياها(٤).

---

(١) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ٣٨.

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج ١، ص ٦٧٦ — ٦٧٧، طبعة بيروت.

(٣) ابن هشام : السيرة — المجلد الأول، ص ٤٢٨ — ٤٢٩، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ٣٨، طبعة بيروت.

(٤) ابن هشام : السيرة — المجلد الأول، ص ٤٢٨ — ٤٢٩، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

من خلاصة ماتقدم يتبين لنا كيف أن مكة والطائف وقفت كل منها موقف المعارض خوفا على مصالحها المادية والسياسية من أن تتعرض للخطر، فى حين أن المدينة لم تكن فيها مثل هذه المصلحة، لا بل كانت هي بحاجة إلى من يوحدها ويحفظ مصالحها السياسية والاجتماعية والاقتصادية. لذا استجابت للدعوة الإسلامية قبل مكة والطائف.

اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ٣٨، طبعة بيروت.

الفصل الثالث
موقف ثقيف من الصراع القائم بين مكة والمدينة بعد الهجرة

قلنا فى الفصل السابق ان موقف ثقيف العدائي ضد الرسول ودعوته الإسلامية التى جاء بها تتمثل فى صورتين، الأولى قبل الهجرة، والثانية بعدها. وهذه الفترة الأخيرة امتدت من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم للمدينة حتى حصار الطائف، وخلال هذه الفترة كانت ثقيف تستميت فى مقاومة الدعوة وصاحبها، واشتركت برجالها وسلاحها لمقاومتها، وبرغم كل مابذلته من جهد لمجابهتها، فقد آمن بعض الثقفيين بالاسلام، وهاجروا إلى المدينة، معاندين ثقيفا ومنهم عمّار وعامر ولدا غيلان بن الثقفي أحد وجوه ثقيف الكبار(١).

ولقد اشتركت ثقيف بعد الهجرة، مع قريش، فى حروبها ضد الرسول صلى الله عليه وسلم فساهمت مع قريش فى معركة بدر بتحريض من أبى جهل، وان الأخنس بن شريق الثقفي حاول الاشتراك فى موقعة بدر، إلا أن وصول قافلة —أبى سفيان — إلى مكة سالمة جعله يعود بمن كان معه من بنى زهرة(٢). — انظر القصة فيما سبق، ص ١١٥.

ويذكر أن أمية بن أبى الصلت بعد موقعة بدر عاد من الشام يريد الإسلام لكنه سمع بمقتل أقاربه من الثقفيين فى بدر فامتنع عن الإسلام وبقي فى الطائف

---

(١) ابن حجر : الاصابة فى تمييز الصحابة، ج ٢، ص ٢٥٥، طبعة بغداد
ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٨.

(٢) الواقدي : المغازي، ج ١، ص ٤٤ — ٤٥.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٢، ص ٣٤٨.
ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٦١٩ طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
ابن حبيب : المحبر، ص ٤٥٩.

حتى مات(١). وكان من المحرضين لقريش ضد الرسول بعد بدر، ومن قوله:(٢)

مـــاذا بـبــدر والـعـقـنـقـل مـن مــرازبــة جــحـــاجــح

وبعد أن حلّت الهزيمة بالمشركين فى بدر أخذوا يخططون لمعركة أخرى ينتقمون فيها لقتلاهم من المسلمين، فكانت معركة أحد. ولقد اشتركت نساء ثقيف مع أزواجهن من القرشيين فى قتال المسلمين بهذه المعركة(٣). منهن برزة بنت مسعود الثقفي وهي أم عبد الله الأكبر مع صفوان بن أمية وخرج عمرو بن العاص بامرأته هند بنت منبه الثقفي، وكذلك أبو سفيان ومعه امرأتان من ثقيف هما هند بنت عتبة وأميمة بنت سعد، واشترك الأخنس بن شريق الثقفي بصفته حليفا لبنى زهرة، فهو يتبع قريشا بالولاء وقد قتل ابنه أبو الحكم بن الأخنس فى المعركة(٤). وظلت ثقيف تشارك قريشا وحلفاءها فى معاركهم ضد الرسول حتى فى موقعة الخندق، ولو أننا لم نحصل على اشارة مباشرة لاشتراك ثقيف فى هذه الموقعة، لكن الواقدي يذكر أن قريشا ومن ضوى إليها من العرب اشتركت فى هذه الموقعة، علما بأن قبائل قيس غيلان اشتركت فيها، ومنها سليم وغطفان(٥).

وفى زحمة هذه الأيام التى كانت فيها الغزوات كان هم قريش منصبّا على القضاء على الرسول ودعوته، مجنّدة لهذا حلفاءها، سواء من ثقيف أو القبائل الأخرى وعندما أسلم المغيرة بن شعبة كان اسلامه ضربة كبيرة لقبيلته ثقيف وحليفتها قريش فى الوقت نفسه. وتتلخص قصة اسلام المغيرة فى أنه خرج مع جماعة من ثقيف بني مالك وكان من ذوى الألباب والعقول النيِّرة وخرج معه حليفان: الدمون، وهو رجل كندة والشريد، واسمه عمرو، وقد خرجوا جميعا إلى

(١) الزركلي : كتاب الأعلام، ج ١، ص ٣٦٤.

(٢) الأصفهاني : كتاب الأغاني، ج ٤، ص ١٢٦، طبعة بيروت، ١٩٥٥.
وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن رواية هذه القصيدة.

(٣) الواقدي : المغازي، ج ١، ص ٢٠١.
البلاذري : أنساب الأشراف، ج ١، ص ٣١٢.

(٤) الواقدي : المغازي، ج ١، ص ٢٠٢، ٣٠٨.
ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٦١٩.

(٥) الواقدي: المغازي، ج ٢، ص ٤٤٣ — ٤٤٤.
البلاذري : أنساب الأشراف، ج ١، ص ٣٤٣.

المقوقس حاكم الاسكندرية، إلا أن المقوقس أكرم بنى مالك وأهمل المغيرة، مما أوجد فى نفسه الامتعاض والضجر من هذا التصرّف وعدّه امتهانا لكرامته وهيبته، وعند عودتهم إلى الطائف نزلوا يستريحون فى منطقة يقال لها بيسان فشربوا خمرا كثيرا، لكن المغيرة اعتذر عن الشرب وأخذ يسقيهم حتى إذا ثملوا قتلهم جميعا وأخذ مامعهم من العطايا والهبات والأموال وذهب إلى الرسول مسلما، فقبل الرسول اسلامه، لكنه رفض الأموال التى معه لأنها أموال غدر. هذا الأمر أوجد خلافا كبيرا بين مالك والأحلاف، إلا أن القوم دخلوا بينهم وأصلحوهم شرط أن يدفع عروة بن مسعود، عم المغيرة بن شعبة، ديات القتلى عوضا عنه(١).

وبإسلام المغيرة بن شعبة أصبح واحدا من المسلمين لا علاقة له بقومه ثقيف ولقد شهد مع النبي بيعة الرضوان ووقف مدافعا عن الرسول من أسلم من قومه وهاجر من ثقيف والطائف. وفى سنة ٦هـ وقفت قريش بقوة وحزم تمنع الرسول من دخول الكعبة، خوفا من أن يقبل العرب دعوة الإسلام، ووقفت ثقيف مع قريش ضد الرسول فى هذا الموقف، وقد عبّر عروة بن مسعود الثقفي عن ذلك بقوله: «يامعشر قريش.. ألستم الوالد وأنا الولد وقد استنفرت أهل عكاظ لنصركم وقد استنفرت أنا بنفسى وولدى ومن أطاعنى؟». وكان يومها يطلب منهم أن يرسلوه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مفاوضا فقبلت قريش مطلبه، وهذا يؤكد مدى الصلة أو العلاقة التى تربط بين ثقيف وقريش(٢). وأثناء المفاوضات كان المغيرة يقف إلى جانب الرسول وقد منع عمه عروة من أن يمس لحيته أثناء الحديث بينهم، ولقد تأثر عروة من ذلك الموقف بعد أن عرف أن ابن أخيه هو الذى يقف بجانب الرسول ضد قومه، وبعد المفاوضة وعودة الوفد نصح عروة المشركين بصفة عامة وقريشا، بصفة خاصة، أن مصالحة الرسول ضرورية كي لا يحدث مالا تحمد عقباه بينهم(٣). ولربما كان لإسلام عامر وعمار ولدى

(١) الواقدي : المغازي، ج ٢، ص ٥٩٦ — ٥٩٧ وما بعدها.
لقد حمل عروة بن مسعود الديات وقال مخاطبا المغيرة: لقد ورثتنا العداوة من ثقيف إلى آخر الدهر.
نفس المصدر، ص ٥٩٥ — ٥٩٦، نهاية الصفحة.

(٢) الواقدي : المغازي، ج ٢، ص ٥٩٤.

(٣) نفس المصدر، ص ٥٩٦ — ٥٩٧.

غيلان بن سلمة وحكيم بن الحارث الثقفي والمغيرة بن شعبة أثر أدى إلى احداث ردّ فعل عنيف بين صفوف الثقفيين، خوفا من انحياز المزيد من رجالهم نحو محمد وأصحابه(١). لذا، فقد كان موقف عروة بن مسعود من الصلح مع الرسول وعقد هدنة معه له ما يبرره في ذلك. وبعد صلح الحديبية أسلم قسم من الثقفيين منهم عتبة بن أسيد بن جارية الثقفي، وكان يلقب بأبي بصير، وأبوه كان حليفا لبني زهرة وهو الذي أسلم يوم فتح مكة وشهد مع الرسول موقعة حنين وأعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم مائة بعير(٢). وعتبة هو من أسرة الأخنس بن شريق الثقفي وهو الذي جاء المدينة مسلما بعد الحديبية، لهذا طلب الأخنس من الرسول صلى الله عليه وسلم ردّه ايفاءاً بأحد شروط صلح الحديبية، هذا الطلب كان باسم بني زهرة وليس باعتباره ثقفيا، لأن أبا بصير من قريش بالحلف(٣). ويعتبر هذا أول حادث بعد صلح الحديبية، وايفاء بالعهد، فقد سلّمه الرسول للرجلين اللذين بعثهما الأخنس إليه في الطريق لاستلامه(٤) وكان عتبة يدرك مايضمر له الأخنس لذا غافل الرجلين في الطريق وقتل أحدهما وفرّ هربا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يشكوه الأمر، وسرعان ما عاد أبو بصير إلى الرسول عارضا عليه رغبته بالعودة إليه والحياة في المدينة، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم رفض العرض، فخرج أبو بصير إلى العيص وهو مكان على طريق قريش التجاري ناحية ساحل البحر، وهناك استطاع أن يجمع معه ممن حبستهم قريش في مكة، ولما سمعوا به تسللوا إليه فشكل الجميع قوة ضيّقت على قريش فلا يخرج منهم رجل إلا قتلته ولا تمر عير إلا اختطفوها، وبذلك شدّدوا الخناق على قريش وقوافلها، فطلبت قريش من الرسول إيواءهم في المدينة، وهكذا انتهى شرط الحديبية بالنسبة لهم، فقبل الرسول صلى الله عليه وسلم طلبهم وكتب إلى أبي بصير أن يقدم بأصحابه إلى المدينة، لكن الكتاب وصله وهو يحتضر

---

(١) ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ٢٥٥، طبعة بغداد.
ابن دريد: الاشتقاق، ص ٣٠٢.

(٢) الزركلي: ما رأيت وما سمعت، ص ٦٨.
وات: محمد في المدينة، ص ٧٣ — ٧٤، الطبعة الانجليزية.

(٣) الواقدي: المغازي، ج ٢، ص ٦١١ (والشرط أنه من أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده اليه).

(٤) الواقدي: المغازي، ج ٢، ص ٦٢٥.

فات والكتاب فى يده، فقبره أصحابه هناك وصلّوا عليه وبنوا على قبره مسجدا(١). ثم بدأت بعد ذلك مساهمة الثقفيين مع الرسول فى غزواته المتعددة فاشتركوا فى فتح خيبر ومكّة، ومن الذين اشتركوا معه فى هذه الغزوات يعلى بن سبابة بن عوف بن ثقيف وكذلك أبو حذيفة من ولد عتاب بن مالك الثقفي(٢).

وبالرغم من الشواهد والأدلة التى تحققت لثقيف بصدق الدعوة فانها بقيت معاندة ولم تدخل الإسلام إلا بعد موقعة حنين وحصار الطائف، وعندما يئست تماما أرسلت وفدا رسميا مفاوضا للرسول للدخول فى الدين الجديد والذى انتهى بتوقيع معاهدة الصلح مع المسلمين فى المدينة(٣).

وهكذا انتهت هذه الفترة بفتح مكة، ودخول قريش فى الإسلام، وبذلك بدأت مرحلة أخرى من مراحل علاقة ثقيف بالدعوة الإسلامية، لا سيما وأن حليفتها الأولى قد انتهت معارضتها، فبدأت ثقيف تقيم الامور باتجاه آخر يختلف عما كانت تفكر فيه قبل فتح مكة، حيث أخذت تتطلع إلى أن تحل محل مكة فى زعامة الحجاز. وحشد كل الطاقات الممكنة لمحاربة المسلمين وفتح أبواب مدينتها الحصينة لكل المعادين والهاربين من أهل مكة لتكون لها قوة تستطيع بها مجابهة الواقع الجديد ولتعد نفسها للقيام بهذا الدور الجديد الذى أصبح واقعا أمامها(٤).

يذكر الواقدي: «انه لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة مشت أشراف هوازن بعضها إلى بعض، وثقيف بعضها إلى بعض وحشدوا وبغوا وأظهروا أن قالوا.. والله مالاقى محمد قوما يحسنون القتال، فاجمعوا أمركم فسيروا إليه قبل أن يسير إليكم»(٥).

(١) الواقدي : المغازي ، ج ٢، ص ٦٢٧، ٦٢٩.
(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٣٢٣ — ٣٢٤.
ابن حجر : الاصابة، ج ٣، ص ٦٦٩، ج ٤ ص ٤٣ طبعة بغداد.
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٤، ص ٢٦٣ — ٢٦٦.
(٤) البلاذري : أنساب الأشراف، ج ١، ص ٢٨١.
(٥) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٨٨٥.

وبهذا، نجد أن هوازن وثقيفا ومن والاهما قد أعدوا العدة للمجابهة الفعلية مع الرسول صلى الله عليه وسلم وقد حدث ذلك فعلا فى موقعة حنين والتى سنبحثها فى فصل قادم.

ومن هذا كله يتبين لنا أن قبيلة ثقيف قد أيقنت صدق الدعوة، لكنها لم تدخل الإسلام لأسباب رئيسية ومباشرة بالنسبة لها، منها: طموحها بأن تكون النبوة فيها وبأحد رجالها. ولقد عبّر عن ذلك أمية بن أبى الصلت حين قال: والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف وكان يأمل أن يكون هو الرسول المنتظر(١). وقد جاءت الآية القرآنية معبّرة تماما عن هذا التصوّر فى قوله تعالى: ((واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها))(٢).

ولقد عبّر عن ذلك الوليد بن المغيرة فقال: أينزل على محمد وأترك أنا كبير قريش وسيّدها و يترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف ونحن عظيما القريتين، فأنزل الله تعالى فيه: ((وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم))(٣). وكان فى رأى ثقيف أن كلا من عروة بن مسعود أو كنانة ابن عبد ياليل أو مسعود بن معتب أو الأخنس بن شريق الثقفي أحق بالرسالة من محمد(٤).

لكن الأرجح، على مايبدو، أن دعوة المشركين كانت لمجرد المعارضة المقررة. فقريش عارضت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وهو ابنها، فكيف ثقيف منه؟؟.

وخلاصة القول، ان رابطة العلاقات كانت وطيدة بين مكة والطائف، وعلى وجه الخصوص بين قريش وثقيف، تمثلت هذه العلاقة بالمصاهرات الأسرية والمصلحة الاقتصادية والتجارية، وخاصة مع آل عبد شمس بالذات وهم أشد

(١) ابن حجر : الاصابة، ج ١، ص ١٢٩ — ١٣٠، مطبعة بغداد.
(٢) القرآن الكريم — سورة الأعراف، آية رقم ١٧٥.
(٣) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٣٦١، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
القرآن الكريم — سورة الزخرف، آية رقم ٣١.
(٤) البلاذري : أنساب الأشراف، ج ١، ص ١٣٤.
ابن دريد : الاشتقاق، ص ٣٠٣ — ٣٠٦.

كراهية وعداء للاسلام. هذه الظروف هي التى جعلت ثقيف تقف من الدعوة موقف المعارض لا مجاملة لمكة، بل دفاعا عن المصلحة المشتركة(١). ولم تقبل أن تضع على رأسها رجلا من بنى عبد مناف، وهذا ماعبّر عنه أمية بن أبى الصلت الثقفي حين قال: كيف أتبع الغلام من بنى عبد مناف(٢). وهذا مايفسر خيبة الأمل التى أصيبت بها ثقيف بعد ظهور النبوة فى محمد صلى الله عليه وسلم، بالاضافة إلى طمع ثقيف الواضح فى زعامة الحجاز بعد سقوط مكة ودخولها فى حظيرة الدولة الإسلامية.

وهكذا، وإزاء هذه المواقف المختلفة، سنجد أن ثقيفا وحلفاءها من هوازن تتصدى للإسلام وللرسول بكل ما أوتيت من قوة، أملا فى السيطرة وكسر شوكة الدولة الجديدة، إلى أن ينتهى بها الأمر إلى التسليم بالأمر الواقع ودخول الإسلام طواعية، وعقد معاهدة مع الرسول بهذا الخصوص وهذا ماسنراه فى فصل قادم.

---

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٥٩٧، ج ٧ ص ٢٦٦.
البلاذري : أنساب الأشراف، ج ٥، ص ١٦٠.
ابن المجاور : تاريخ المستبصر، ص ٢١ — ٢٢.
لا مانس : مدينة الطائف، ص ١٣٠ — ١٣٢، الطبعة الفرنسية ١٩٢٢.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٢٤.
ابن حجر : الاصابة، ج ١، ص ١٢٩ — ١٣٠، فقرة أمية بن أبى الصلت الثقفي.

الفصل الرابع
دخول ثقيف فى الإسلام

مرّت فترة دخول ثقيف فى الإسلام بمراحل متعددة. فلقد حملت مكة لواء المعارضة للدعوة قبل أن يفتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما فتحت مكة اعتبرتها قبيلتا هوازن وثقيف فى الطائف ضربة شديدة وقاضية للوثنية فى شبه الجزيرة العربية، وأدركتا أن الضربة التالية ستوجه إليها لا محالة، لا سيما وأنهما تعيشان قريبا من مكة وأن مدينة الطائف مرتبطة ارتباطا كبيرا. فلما استسلمت مكة، وعظم شأن المسلمين، كان على هوازن وثقيف أن يعولوا هم، وأن يحاولوا الانتفاع من قوّة المبادأة، مادام الرسول لا يبدأ بالعدوان، فتهيؤوا للحرب، وحشدوا جموعهم فى حنين لملاقاة الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا ما سنتعرض له فيما بعد. لذا لم تدخل ثقيف الإسلام إلا فى العام التاسع الهجري سلما بموجب معاهدة مكتوبة بينها وبين الرسول، بعد أن واجهت المسلمين بموقعتين، الأولى بمحالفة قبيلة هوازن ومجموعة قبائل قيس عيلان والتى عرفت بموقعة حنين فى شوال سنة ٨ للهجرة، والثانية بعد فشلها فى حنين وهروبها إلى الطائف والاعتصام بمدينتها المحصنة(١). ولابدّ لنا من أن نستعرض كيف كانت النهاية وكيف اعتنقت ثقيف الإسلام.

أولا : معركة حنين :

اشتدت معارضة ثقيف للإسلام وزاد عنادها له وبخاصة بعد سقوط مكة، وأبت الخضوع للدعوة، وقد دفعها إلى ذلك عوامل متعددة، منها الرغبة الواضحة بالانفراد بتجارة الحجاز مع بلاد الشام واليمن وفارس وامكانية استغلال هذه

---

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٣٧ وما بعدها، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٨٨٥ وما بعدها، طبعة أكسفورد.

التجارة لصالحها والتي احتكرتها قريش منذ انتصارها فى حروب الفجار، بالاضافة إلى ما كان يساور «ثقيف» من رغبة حقيقية فى الاستيلاء على أموال القرشيين المستثمرة فى الطائف والتي كان لها الدور البارز فى اقتصاد المدينة حينذاك(١). بالاضافة إلى ماسيتيحه لها انفرادها بهذه التجارة والأموال من قوة لها فى الداخل وتقوية لعلاقاتها الخارجية وتعريف المستوردين بمنتجاتها المحلية بشكل مباشر دون أن يكون لقريش وساطة أو دور فيها(٢). بالاضافة إلى العامل الديني الذى لعب دورا بارزا فى هذه المعارضة، ولا سيما أنها أصبحت تعتقد بأنها حامية الديانة الوثنية بعد سقوط مكة، ومن واجبها حماية هذه الديانة المهددة بالانهيار ولربما كانت تفكر بأن بيت اللات سيصبح بديلا للكعبة وبعدها سيصبح مورداًاقتصاديا آخر لها، مما سيوفر لها مركزا دينيا واقتصاديا معا.

إن استعدادات المشركين من هوازن وثقيف لمواجهة المسلمين بدأت قبل فتح مكة، لأنهم كانوا يعتبرون اتساع نفوذ الرسول بمثابة تهديد لهم، ولعلهم كانوا يبيتون أمرا عندما بدأ النبي تحركه نحو مكة، فلما رأته هوازن وثقيف قد اتجه إلى مكة تلكأوا(٣)، لعل قريشا تكفيهم شرّ القتال، فلما استسلمت مكة، وعظم شأن المسلمين، فتهيأوا للحرب، وحشدوا جموعهم فى حنين يقودهم مالك بن عوف النصري، وبالرغم من أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يضع فى خططه احتلال الطائف وذلك من وجهة نظره الرامية إلى توحيد العرب ونشر الإسلام بينهم. لكن فتح مكة وسيطرة المسلمين عليها جعل هوازن وحلفاءها من الثقفيين يفكرون جديا فى مواجهة الرسول صلى الله عليه وسلم. يذكر الواقدي: لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، مشت أشراف هوازن بعضها إلى بعض، وثقيف بعضها إلى بعض، وحشدوا وبغوا وأظهروا أن قالوا: والله مالاقى محمد قوما يحسنون القتال، فاجمعوا أمركم فسيروا إليه قبل أن يسير اليكم. فأجمعت

---

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٠٩، ٤١١، طبعة الحلبي ١٩٥٩.
دائرة المعارف الاسلامية: مجلد ١٥، ص ٥٥، ترجمة عبد الحميد يونس.
ابن المجاور : تاريخ المستبصر، ص ٢١ — ٢٢.
لا مانس : مدينة الطائف، ص ٣، الطبعة الفرنسية.

(٢) مونتجمرى وات : محمد فى المدينة، ص ٧١، الطبعة الانجليزية.

(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٠.

هوازن أمرها وجمعها مالك بن عوف.. وكان فى ثقيف سيدان لها يومئذ، قارب بن الأسود بن مسعود فى الأحلاف هو الذى قادها، وفى بنى مالك ذو الخمار سبيع بن الحارث»(١).

هذا التصميم على القتال دفعهم إلى محالفة القبائل المجاورة وتحريضها على مقاتلة المسلمين وكسر شوكتهم أو على الأقل الحد من توسعهم بأى ثمن كان. ولهذا اتجهوا نحو مجموعة قبائل قيس عيلان المحيطة بهم والتى لازالت بعيدة عن الإسلام. لقد كادت استجابة القبائل لنداء الحرب ضد الرسول تكون اجتماعية ماعدا كعبا وكلابا وأغلب بنى هلال لأنهم رأوا فى ذلك التحالف مع إجماعية هوازن وثقيف ضد المسلمين مخاطرة ومهلكة لهم(٢). علما بأن قبيلتى كعب وكلاب كانتا من القبائل القوية والتى يحسب لهما حساب كبير فى الحرب، حيث وصف دريد بن الصمة شيخ بنى جشم المعروف غيابهما عن الحرب بأنه غياب الجد والحد، أى الفعالية والقوة والاقدام. ونتيجة هذا التحالف وجد حلف كبير من هذه القبائل وشكل تجمع خطير ضد المسلمين بقيادة رجل هوازن مالك بن عوف النصري، وقد أحيا هذا الموقف فى نفوس القيسيين والثقفيين ذكرى حرب الفجار التى حدثت بسبب التنافس بين مكة والطائف حول زعامة التجارة العربية والتى انتهت بانتصار مكة على الطائف، ولقد أدت تلك الهزيمة إلى غرس روح الحقد فى نفوسهم، مما جعل ثقيفا تفكر جدّيا بالانتقام، فلربما انقلب ميزان القوى لصالحها، وأخيرا تنفرد بالسلطتين السياسية والاقتصادية معا.

إن فتح مكة من قبل المسلمين قد هزّ الثقفيين وملأهم رعبا وفزعا، ولا سيّما أنهم كانوا يعتبرون انتصارات الرسول على أعدائه تعود إلى ضعف المقاومين وعدم استماتتهم فى القتال. لذا بعد فتح مكة أصبحوا أمام الأمر الواقع وأيقنوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لن يتركهم، بل ستكون مدينتهم الطائف هدفه

---

(١) الواقدي : المغازي ج ٣، ص ٨٨٥، طبعة أكسفورد.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٠ — ٧١ طبعة دار المعارف.
ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٣٧، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
ابن الأثير : الكامل، المجلد الثاني، ص ٢٦١، طبعة بيروت.

(٢) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٨٨٦.
ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٣٧، طبعة الحلبي.

الثاني بعد مكة، لذا قرّروا نسيان الماضي وخلافاته وتوحيد صفوفهم لمجابهة الأخطار المحدقة بهم(١). وقرروا أن يكون الهجوم من جانبهم كي لا تؤخذ مدينتهم على حين غرّة، بالوقت نفسه اختاروا مكان وزمان المعركة وليكن وادى حنين مكانا لها وتكون أوطاس نقطة للتجمع فيها(٢). حتى تكون لهم أشبه بقاعدة للانطلاق ضدّ المسلمين، لأن المعركة ستكون بالنسبة لهم حياة أو موت. ومن الناحية الأخرى فان الرسول صلى الله عليه وسلم دخل مكة دون قتال على الوجه العام، فقواته سليمة غير منهكة، وقد انضمت إليه قريش فعظمت قوته ومع هذا اختاروا الهجوم عليه محاولين الانتفاع من المبادأة فكانت جموعهم بقيادة مالك بن عوف النصري كبيرة — لكن كتب السيرة لم تذكر لنا بالضبط تعداد هذا الجمع(٣). — ولكن لا ريب أنه كان كبيرا، ثم أنه لا شك كان يجمع أقوى من بقي فى بلاد العرب على الشرك، وآخر مجموعة يمكن أن تقف فى وجه المسلمين، أمثال مالك بن عوف النصري وقارب بن الأسود وسبيع بن الحارث وعمرو وعوف بني عامر ودريد بن الصمة المتيمن برأيه ومعرفته بالحرب فهو شيخ مجرب فى هذا الميدان(٤).

---

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٠ وما بعدها.
لامانس : مدينة الطائف، ص ١١٠، الطبعة الفرنسية، ١٩٢٢.

(٢) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٨٨٧.
ابن هشام : السيرة — المجلد الثاني، ص ٤٣٧ طبعة الحلبي ١٩٥٥.
أوطاس : واد فى ديار هوازن وفيه كانت موقعة حنين.
البكري : معجم ما استعجم، ج ١، ص ١٣١.
انظر كذلك ما جاء فى الحاشية رقم (٥) من كتاب السيرة لابن هشام، ص ٤٣٧ — ٤٣٨.

(٣) لم تحدثنا كتب السيرة بتعداد هذا الجمع بالضبط، إلا أن بروكلمان يذكر انهم كانوا جيشا من ثلاثين ألف مقاتل، بينما يذكر مونتجمرى وات بأن تعداد المشركين عشرون ألف رجل. والثابت أن جيش المشركين كان يفوق فى عدده جيش المسلمين.
بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية، ص ٦١، طبعة دار الملايين، سنة ١٩٦٨.
مونتجمرى وات : محمد فى المدينة ص ٧٢، الطبعة الانجليزية / طبعة أكسفورد.

(٤) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٨٨٥ وما بعدها.
ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٣٧، طبعة الحلبي.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧١ — ٧٢ طبعة دار المعارف.
ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، المجلد الثاني، ص ٢٦١ وما بعدها.

لقد كانت خطة قائدهم مالك بن عوف النصري أن يخرجوا جميعا بما لهم وعيالهم، ولو كانت الأرض يمكن أن تحمل لحملوها معهم، كل هذا لأن مالكا شاء أن يجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم، ولكن الواقع ما كان ليغني عنهم شيئا وهي وان كانت لهم، لم ينفعهم إلا رجل بسيفه ورمحه، وان كانت عليهم فكأنهم فضحوا فى أهلهم وعيالهم وأموالهم، وهذا هو رأى دريد بن الصمة الشيخ الذى أفنى عمره فى الحرب(١). لقد اشتركت ثقيف فى الحرب بفرعيها الرئيسيين الأحلاف وبنى مالك. وكان لكل منهم قائد، فقائد بنى مالك ذو الخمار سبيع ابن الحارث. أما الأحلاف فكان قائدهم قارب بن الأسود بن مسعود الثقفي. أما قوات النبي صلى الله عليه وسلم فكانت تتألف من جيشه الذى جاء به لفتح مكة وعدده عشرة آلاف مقاتل، ثم قوات قريش الخاصة وعددها ألفان يقود مقدمتهم القائد خالد بن الوليد. ويبدو أن بعض رجال قريش قد خرجوا مع النبي وهم حرب عليه وأكثر رغبة فى هزيمته، ولم يكن ذلك خافيا على الرسول. يذكر ابن هشام: «ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معه ألفان من أهل مكة مع العشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه.. فكانوا اثنى عشر ألفا.. ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه يريد لقاء هوازن»(٢). ويذكر ابن هشام كذلك « فلما انهزم الناس، ورأى من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من جفاة أهل مكة الهزيمة، تكلم رجال منهم بما فى أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر.. وصرخ جبلة بن الحنبل — قال ابن هشام — كلده بن الحنبل وهو مع أخيه صفوان بن أمية مشرك فى المدة التى جعل له رسول الله صلى الله عليه وسلّم: ألا بطل السحر اليوم. فقال له صفوان: اسكت فض الله فاك. فوالله لأن يربنى رجل من قريش أحب إليّ من أن يربنى رجل من هوازن»(٣). ويظهر هنا

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني ص ٤٣٨ وما بعدها. طبعة الحلبي.
الواقدي : المغازى، ج ٣، ص٨٨٧ ومابعدها.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٠ وما بعدها.

(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٤٠، طبعة الحلبي.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٣.

(٣) ابن هشام : السيرة — المجلد الثاني، ص ٤٤٣ — ٤٤٤ طبعة الحلبي.

ما للعصبية القبلية من تأثير فى النفوس فقد فضّل صفوان رجلا من قريش على رجل من هوازن، لأن الرسول كما نعلم قرشي ومن صميمها. وهذا يوضح لنا أيضا ما للعصبية القبلية والمنافسة الشديدة والحقد الكامن بين قريش وهوازن وحلفائها.

قبل أن نذكر هذه الموقعة وأهميتها، لابدّ لنا من أن نبين أن فترة بقاء الرسول فى مكة كانت قصيرة فهي خمسة عشر يوما(١)، قد لا تكفى للاستعداد لمواجهة هذا الموقف العصيب، ولكن كما يبدوا أن المسلمين كانوا يحسّون بقوتهم ولا زال انتصارهم فى مكة ماثلا فى أذهانهم، فتصوروا أنهم لن يغلبوا أبدا بذلك استهانوا بقوة العدو كما سجل ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى «لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليّتم مدبرين»(٢). ولقد عبّر عن هذه الاستهانة رجل من جيش المسلمين حين قال: «لو لقينا بنى شيبان ما بالينا، ولا يغلبنا اليوم أحد من قلة»(٣). وكذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك حين قال: «خير الأصحاب أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف ولا تغلب اثنا عشر ألفا من قلة — كلمتهم واحدة»(٤).

ومما لا شك فيه أن كلا الطرفين كان على علم بما لدى الطرف الآخر من عدة وعدد وتجهيز واستعداد، فقد بعث مالك بن عوف النصري عيونا من رجاله دخلوا بين المسلمين ليخبروه عن مدى استعداد المسلمين وقوتهم للقتال ومنهم ذلك

= الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٤، طبعة دار المعارف.
ويذكر الواقدي أن من خرج مع الرسول من الذين لم يسلموا أو لم يتغلغل الاسلام فى نفوسهم بعد منهم أبو سفيان بن حرب، صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى وسهيل بن عمرو، الحارث بن هشام وعبد الله بن أبى ربيعة ينظرون لمن تكون الدائرة فى الحرب.
الواقدى : المغازي، ج ٣، ص ٨٩٥.
ابن الأثير : الكامل، ٢، ص ٢٦٣.

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٠.
الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٨٨٩.

(٢) القرآن الكريم : سورة التوبة، آية رقم ٢٥.

(٣) الواقدي المغازى، ج ٣، ص ٨٨٩.

(٤) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٨٩٠.

الجاسوس الذى أراد قتل الرسول صلى الله عليه وسلم وهو نائم والذى حاول أبو بردة قتله، إلا أن الرسول نهاه عن قتله حينما قال صلى الله عليه وسلم : «يا أبا برده، إن الله مانعى وحافظى حتى يظهر دينه على الدين كله»(١). ولما علم الرسول صلى الله عليه وسلم بما يفعله مالك أرسل إليهم عبد الله بن أبى حدود الأسلمي وأمره أن يدخل بينهم و يقيم هناك حتى يأخذ كل مايمكن أخذه من أخبارهم و يعود به إلى الرسول والمسلمين، و بالفعل نفّذ عبد الله المهمة بأمانة ونقل للرسول كل الذى رآه وسمعه حتى إن عمر بن الخطاب أفزعه الأمر، فاعتقد أن عبد الله يكذب على الرسول، ومن خلال ردّ الرسول صلى الله عليه وسلم على عمر بن الخطاب يظهر أن الرسول كان مصدّقا وواثقا بالذى نقله له عبد الله بن أبى حدود الأسلمي(٢).

هذا الأسلوب فى جمع المعلومات استخدمه الطرفان لمعرفة ما يملكه كلاهما. ولذا عندما قال أحد المسلمين للرسول ان هوازن جاءت على بكرة أبيها إلى وادى حنين تبسّم الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله(٣).

لقد كان مالك بن عوف النصري فى الثلاثين من عمره وكان من فتيان الصراع والحرب وهو سيد قومه، ومعه دريد بن الصمة شيخ مجرب أفنى عمره فى الحرب لكنه حذّر مالكا من النتيجة الوخيمة التى ربما تلحق به نتيجة تصرفه الخاطىء بجلب النساء والعيال وعدم اشراك كلب وكلاب و بنى هلال فى المعركة، لكن مالكا كان مزهوا بقوته ضاربا عرض الحائط بكل الآراء التى تخالفه فى الهجوم والمعركة و بخاصة بعد أن جمع الناس كلهم وجعل الامدادات

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٣٩ طبعة الحلبي ١٩٥٥.
الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٨٩١ — ٨٩٢.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٢، طبعة دار المعارف.

(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٣٩ — ٤٤٠ طبعة الحلبي ١٩٥٥.
الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٨٩٣.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٣، طبعة دار المعارف.

(٣) الواقدي المغازى، ج ٣، ص ٨٩٣ — ٨٩٤.

تـأتـى إليهـم من كل جانب، وبذلك أيقن أن النصر حليفه لا محالة. ولهذا رفض كـل نصيحة وكل نداء للكف عن الحرب وسحب الناس والأموال والعيال. لقد ذكـرت المـصـادر أن دريد بن الصمة حين نزل الأرض ولمسها بيده، قال: «بأى واد أنتم؟. قـالـوا: بـأوطـاس، قـال: نعم مجال الخيل.. لا حزن ضرس ولا سهل دهـس.. مـالى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير، وثغاء الشاء، وخوار البقر، وبكاء الـصـغير؟. قالوا: ساق مالك من الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم. قال: يامعشر هـوازن، أمـعكم من بنى كلاب بن ربيعة أحد؟. قالوا: لا. قال: فمعكم من بنى كـعـب بـن ربيعة أحد؟. قالوا: لا. قال دريد: لو كان خيرا ماسبقتموهم إليه، ولـو كـان ذكـرا أو شـرفا ما تخلّفوا عنه، فأطيعونى يامعشر هوازن، وارجعوا وافعلوا مـا فـعـل هـؤلاء. فـأبـوا عـليه. قال: فمن شهدها منكم؟. قالوا: عمرو بن عامر، وعـوف بـن عـامر. قال: ذلك الجذعان من عامر، لا يضرّان ولا ينفعان... فقال يـامـالك انك تقاتل رجلا كريما، وقد أصبحت رئيس قومك، وان هذا اليوم كائن لمـا بـعـده مـن الأيـام.. قال مالك: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله وولـده ونـسائه حتى يقاتل عنهم.. قال دريد: مافعلت كعب وكلاب؟. قالوا لم يشهدها منهم أحد. قال: غاب الجد والحد، ولو كان يوم رفعة وعلاء لم تغب عنه كـعب وكلاب. يامالك، انك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئا، فـاذا صـنـعـت فـلا تعصنى فى هذه الخطة، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعليا قومهم وعـزهـم، فان كانت لك لحق بك من وراءك، وكان أهلك لا خوف عليهم، وان كـانـت عـلـيـك ألـفـاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك. فغضب مالك من قوله، وقـال: والله لا أفـعل، ولا أغير أمرا صنعته. انك قد كبرت وكبر علمك، وحدث بـعـدك مـن هو أبصر بالحرب منك.. قال دريد: يامعشر هوازن، والله ماهذا لكم بـرأى هـذا فاضحكم فى عورتكم وممكن منكم عدوكم.. فقالوا: والله لئن عصينا مـالـكـا وهـو شـاب ليقتلن(١). نفسه ونبقى مع دريد.. لما رأى ذلك دريد وأنهم خالفوه. قال: هذا يوم لم أشهده ولم أغب عنه».

مـن خـلال هـذا الحـوار بين مـالـك ودريـد بـن الصمة، نرى أن مالكا كان

---

(١) الواقدي: المغازى، ج ٣، ص ٨٨٧ — ٨٨٩.
الطبري: الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٢ — ٧٣.

مصرّا على الحرب مستعدا لها مؤمّنا كل ما تحتاجه هذه الجموع التى جمعها، متهما دريد ابن الصمة بالكبر وفقدان الحكمة فى أمور الحرب، مزهوا بقوته وتأييد هذه الجموع له، لهذا كان لزاما عليه أن ينصرف بجموعه إلى أرض تهامة الجبلية — بعد أن عرف المسلمين وقوتهم — لذا حسب أنه من شعاب الجبل يستطيع أن يرقب تقدم العدو، ويخفى أوضاع جنوده و يستطيع أن يتحكم فى الممرات الضيقة، ثم يهجم على المسلمين من علٍ كالسيل الجارف فيقوض أركانهم ويهز جموعهم. وفى غمرة هذا الاضطراب سيقتل بعضهم بعضا و بذلك يدرك غرضه ويحقق ماعجزت قريش عن تحقيقه والأحزاب معا(١). وفعلا ما أن وصل جيش المسلمين إلى أوطاس حتى فاجأهم العدو المختفي والمتربص خلف الصخور والأودية والشعاب وشدّوا على الجيش الاسلامي شدة رجل واحد، فأخذ المسلمون بالمفاجأة فحدث ذعر واختلت الصفوف ولم يدر الناس من أين يأتيهم الموت، ولذا كان عامل الذعر بين الصفوف والارتباك القوي عاملا هدّاما فى صفوف المسلمين ولا سيما أن بعض قبائل الموالين للرسول صلى الله عليه وسلم لا زالت حديثة العهد بالاسلام(٢). بالاضافة إلى عامل الغش والتمويه الذى استخدمه مالك فى هذا الهجوم حيث ساق النساء والذرارى وجعلهم صفوفا بعد أن وضع النساء فوق الإبل وراء صفوف الرجال، ثم ساق الإبل والبقر والغنم وراءهم، فلما رأى المسلمون ذلك حسبوه رجالا كلهم مما زاد فى الارتباك والذعر والخوف(٣). وبذلك حلت الهزيمة بالمسلمين فى بادىء الأمر وتشتت جموعهم إلا أن موقف الرسول صلى الله عليه وسلم الحازم كان له الأثر الأكبر فى تثبيت العزائم وانتزاع النصر فى النهاية، وذلك من خلال ثبات النبي صلى الله عليه وسلم ورباطة جأشه وثبات صفوة من رجاله المخلصين أمثال أبى بكر الصديق وعمر بن

---

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٤٢ — ٤٤٣ طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٨٩٥، طبعة أكسفورد.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٤. طبعة دار المعارف.
مونتجمرى وات : محمد في المدينة، ص ٧٠ — ٧١ الطبعة الانجليزية. طبعة أكسفورد.

(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٤٣.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٤.
الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٨٩٧.

(٣) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٨٩٧.

الخطاب وعلي بن أبي طالب والعبّاس بن عبد المطلب وغيرهم(١). وكان لنداء الرسول الموجه للأنصار وتذكيرهم بعودهم ومواقفهم السابقة، هذا النداء الذى وجهه العبّاس نيابة عن الرسول كان له صداه المؤثر فى النفوس، تذكر المصادر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين رأى الناس مارأى: «أين ايها الناس.. قال ياعباس، اصرخ: يامعشر الأنصار.. يا أصحاب السمرة.. فناديت: يامعشر الأنصار، يامعشر أصحاب السمرة قال: فأجابوا: أن لبيك لبيك.. قال: فيذهب الرجل منهم يريد ليثنى بعيره، فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، ثم يقتحم من بعيره فيخلى سبيله فى الناس، ثم يؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة رجل استقبلوا الناس، فاقتتلوا، فكانت الدعوى أول ما كانت: ياللأنصار، ثم جعلت أخيرا: ياللخزرج.. وكانوا صبرا عند الحرب، فأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ركابه، فنظر مجتلد القوم وهم يجتلدون. فقال: الآن حمى الوطيس»(٢). ثم قال للعبّاس: ناولنى حصيات.. فناوله حصيات من الأرض، ثم قال: شاهت الوجوه.. ورمى بها وجوه المشركين، وقال: انهزموا ورب الكعبة(٣). ويذكر الطبري إن جبير بن مطعم قال: «لقد رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم، فنظرت فاذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادى، فلم أشك انها الملائكة، ولم يكن إلا هزيمة القوم»(٤).

مما تقدم يتبين لنا أن ثبات النبي صلى الله عليه وسلم وحده فى تلك المعركة الضارية وحوله مجموعة صغيرة من الأنصار والمهاجرين كان له الأثر الهام فى مجريات الحرب والانتصار حيث اجتمعت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم قوة صغيرة من المهاجرين والأنصار أوقفت هجوم العدو ومكنت جيش المسلمين من

---

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٤٣، طبعة الحلبى .
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٤.
(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٤٥، طبعة الحلبي ١٩٥٥.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٥، طظبعة دار المعارف.
(٣) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٨٩٩.
(٤) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٧.

لمّ شعثه، ونهض النبي صلى الله عليه وسلم على رأس رجاله واتخذ القتال طابع الشدة والعنف وتمكن علي بن أبى طالب من إصابة قائد الجموع — حامل الراية — عندما أصاب عرقوبي جمله، فوقع على عجزه فوثب أحد الأنصار على الرجل فقتله، فكان سقوطه ومصرعه بداية الفوضى فى صفوف المشركين(١). ثم شدّد المسلمون عليهم الهجوم وأوقعوا فيهم القتل مما دفعهم إلى التراجع وقد انهارت قوتهم بعد التراجع ومشاهدة أسراهم مكتفين عند المسلمين(٢)، إلا أن قائدهم مالك استطاع أن يحمى انسحابهم بسيطرته على أحد الممرات الهامة مع قبيلة نصر كسبا للوقت لكن محاولته يبدو أنها كانت غير مجدية(٣). فقد أسر منهم من أسر وقتل عدد كبير منهم قائد بني مالك ذو الخمار سبيع بن الحارث وعثمان بن عبد الله أحد أصحاب راية المشركين وجمع كبير من بنى مالك قدّر بأكثر من مائة قتيل. أما قتلى الأحلاف فكانوا اثنين: وهب واللجلاج وهما من بنى غيرة. ولقد امتعض الرسول صلى الله عليه وسلم من قتل اللجلاج فوصفه بأنه سيد شباب ثقيف(٤). وبذلك تشتت جموع المحاربين من هوازن وثقيف وحلفائهم من نصر وجشم وغيرهم وتحولت هزيمة المسلمين إلى نصر كبير، رغم كل ما بذله رجال هوازن وثقيف قبل أن تنتهى المعركة لصالح المسلمين.

لابدّ لنا من ان نشير أيضا إلى ما ذكره المستشرقون(٥)، من أن أصطحاب النساء والأطفال والأموال كان من أكبر أخطاء مالك بن عوف النصري، حيث لعب الأطفال والنساء دورا بارزا فى الفشل وبخاصة بعد أن اشتد القتال بين الطرفين وصرخت النساء والأطفال وفروا خوفا من الموت، ففر معهم الرجال سعيا وراء النجاة، وهذا ما كان يدركه تماما دريد بن الصمة، لذا حذّر مالكا من الهزيمة وفضيحة الأسر التى سيتعرض لها بعد الهزيمة.

---

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٦.
الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٨٩٨، ٩٠٢ — ٩٠٣.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٦.

(٣) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩١٦

(٤) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٠٧.
بينما يذكر ابن هشام في السيرة — المجلد الثاني ص ٤٤٩ — ٤٥٠ بأن قتلى بني مالك كان سبعون رجلا منهم ذى الخمار سبيع بن الحارث وعثمان بن عبد الله بن ربيعة وهما من أصحاب الراية.

(٥) مونتجمرى وات : محمد فى المدينة، ص ٧٠ وما بعدها. الطبعة الانجليزية.

والواقع - كما تشير المصادر - أن هزيمة المشركين من هوازن وحلفائهم لم ترجع إلى وجود النساء والذرارى معها، فان أصحاب النساء والذرارى مع الجيوش للقتال كان من العادات الشائعة والمعروفة عند العرب فى غزوة أحد اجتمعت حول أبى سفيان قريش والأحابيش وعرب كنانة وتهامة، فخرج بهم يريد المدينة وأصطحب القيان ومعهم المعازف والخمر وخرج معهم نساء كبرائهم لاثارة حماستهم(١). فقد ذكر الواقدي أن صفوان بن أمية قال: «أخرجوا بالظعن. فأنا أول من فعل، فانه أقمن أن يحفظنكم ويذكرنكم قتلى بدر.. فقال عكرمة بن أبى جهل: أنا أول من أجاب إلى مادعوت إليه. وقال عمرو بن العاص مثل ذلك.. فصاحت هند بنت عتبة: أنك والله سلمت يوم بدر فرجعت إلى نسائك، نعم، نخرج فنشهد القتال، فقد ردت القيان من الجحفة فى سفرهم إلى بدر فقتلت الأحبة يومئذ، قال أبو سفيان: لست أخالف قريشا، أنا رجل منها، مافعلت فعلت، فخرجوا بالظعن(٢). لذا، فان خروج النساء مع المقاتلين كان من عوامل تشجيع الرجال على الاستبسال فى القتال واثارة حماستهم وليس عامل ضعف وربما كان خشية دريد بن الصمة على نساء هوازن ناجمة عن تخلّف بنى كعب وبنى كلاب عن المعركة فقال عنها غاب الجد والحد، بينما وصف عوف بن عامر وعمرو بن عامر اللذان اشتركا فى القتال بالجذعين، أى الضعيفان اللذان لا ينفعان ولا يضرّان(٣).

واشتراك النساء فى القتال لم يقتصر على هوازن وحلفائها فحسب، بل إن نساء المسلمين اشتركن فى القتال أيضا، وعلى سبيل المثال لا الحصر أم عمارة وكان فى يدها سيف صارم، وأم سليم ومعها خنجر وقد حزمته على وسطها وكانت تدعو الرسول لقتل الفارين، وأم الحارث وكن يشجعن المسلمين على القتال وعدم الفرار من المعركة(٤).

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٦١ - ٦٢، طبعة الحلبي ١٩٥٥.
(٢) الواقدي : المغازى، ج ١، ص ٢٠٢.
(٣) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٨٨٧.
(٤) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٠٢ - ٩٠٣
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٧.
ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني ص ٤٤٦ طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

إن نصر المسلمين فى حنين يعود إلى الروح المعنوية العالية والثبات الذى أبداه الرسول صلى الله عليه وسلم والصفوة المختارة من الأصحاب(١). فى تقرير مصير المعركة ومع هذا فان النصر كان من عند الله و بإرادته، قال تعالى: «... ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها»(٢). هذه الجنود التى أشار إليها الطبري بأنها نمل أسود مبثوث قد ملأ وادى حنين والتى وصفها بأنها الملائكة التى أدت إلى هزيمة القوم بعدئذ(٣). هذا النصر الذى ترك رعبا وفزعا فى نفوس المشركين حتى دخولهم الطائف منهزمين(٤).

وهكذا انتهت المعركة بهزيمة هوازن وثقيف ومن حالفهما من القبائل الأخرى، وفرّ رجالهم إلى الطائف ونخلة وأوطاس، فلحقت بهم جموع المسلمين وقتلوا منهم من استطاعوا اللحاق بهم وفرّ الآخرون وأسر من النساء والأطفال والجمال والأموال ما لم يكن فى الحسبان، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد وعد أصحابه بهذه الغنائم الكثيرة يوم شاهد جموعها فى أوطاس، و بذلك أصبح النصر مهما وله صدى كبير فى منطقة الحجاز كلها و بلاد العرب باعتبارها أول مواجهة حقيقية بين المسلمين والقبائل أثناء حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، لذا لم يجروء بعدها أحد أن يقف ضد الرسول صلى الله عليه وسلم أدركت القبائل أن لا فائدة من المقاومة ولذلك فان السنة التاسعة للهجرة شهدت بداية قدوم الوفود إلى المدينة من كافة انحاء شبه الجزيرة للتحالف أو عقد الاتفاقيات والمعاهدات والدخول فى الاسلام.

والأرجح أنه مهما كان النصر كبيرا فى حنين فقد كان فتح مكة بداية كبرى لانتهاء عهد الشرك فى الجزيرة وهذا واضح من قوله تعالى: «إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا، فسبّح بحمد ربّك واستغفره انه

(١) الصفوة المختارة هم المائة الصابرة يومئذ، ثلاثة وثلاثون من المهاجرين، وسبعة وستون من الانصار والعباس وأبوسفيان.
الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٠١.

(٢) القرآن الكريم : سورة التوبة، آية رقم ٢٦.

(٣) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٤٩، طبعة الحلبي.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٧.

(٤) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٠٨، ٩٠٩.

كان توّابا»(١). والمقصود هنا بالفتح، فتح مكة، وبعد الفتح رأيت الناس من كل صوب وحدب يدخلون فى دين الله(٢). وهذا يفّسر لنا ما كان لمكة من أهمية كبرى فى مدن الحجاز بصفة خاصة وشبه الجزيرة العربية بصفة عامة.

بقي لنا أن نلق بعض الضوء على الأحداث التى رافقت المعركة، فالقبائل التى اشتركت فيها هوازن وثقيف بفرعيها الأحلاف وبنو مالك وبنو نصر وجشم وبعض بنى هلال، ومن القادة مالك بن عوف النصري الذى نجا من الموت وفرّ إلى الطائف ثم أسلم بعد ذلك، ودريد بن الصمة وكان شيخا كبيرا بلغ المائة والستين من العمر، والذى قتل بعد المعركة — قتله ربيعة بن رفيع السلمي(٣) — ومن بنى مالك قتل حوالى المائة، منهم ذو الخمار سبيع بن الحارث وعثمان بن عبد الله بن ربيعة وهما من حملة الراية وقادة بنى مالك، ومن الأحلاف قتل أثنان هما وهب واللجلاج والذى قال الرسول فى اللجلاج: «قتل اليوم سيد شباب ثقيف»(٤)، بينما ذم قتلى بنى مالك، فقال صلى الله عليه وسلم فى مقتل عثمان بن عبد الله: «أبعده الله أنه كان يبغض قريشا»(٥).

أما من استشهد من المسلمين فى حنين فهم أربعة: أيمن بن عبيد وهو ابن أم أيمن وهو من الأنصار، وسراقة بن الحارث من الأنصار أيضا، ورقيم بن ثابت بن ثعلبة وأبو عامر الأشعري الذى أصيب بأوطاس(٦).

(١) القرآن الكريم — سورة النصر، آية رقم ١ — ٣.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن الكريم، ج ٣ ص ٦٨٦ وما بعدها، طبعة مكة المكرمة.

(٣) ابن هشام: السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٥٣، طبعة الحلبي ١٩٥٥.
الواقدي: المغازى، ج ٣، ص ٩١٤.
الطبري: الرسل والملوك، ص ٧٩. طبعة دار المعارف.

(٤) الواقدي: المغازى، ج ٣، ص ٩٠٧ بينما يذكر ابن هشام فى السيرة المجلد الثاني، ص ٤٥٠ أن اسمه الجلاح.

(٥) الواقدي: المغازى، ج ٣، ص ٩٠٧.
نخلة: واد لهذيل على ليلتين من مكة، وهناك نخلة الشامية وهي واد فيه بستان ابن عامر وعنده تجتمع النخلتان اليمانية والشامية وهما فى بطن مر.
ياقوت: معجم البلدان، المجلد الخامس، ص ٢٧٧، طبعة بيروت.

(٦) ابن هشام: السيرة — المجلد الثاني، ص ٤٥٩، طبعة الحلبي.
الواقدي: المغازى، ج ٣، ص ٩٢٢.
الطبري: الرسل والملوك، ج ٣و ص ٨١، طبعة دار المعارف.

أما السبي فقد كان ستة آلاف، وكانت الإبل أربعة وعشرين ألف بعير والغنم أربعين ألفا أو أكثر، وأربعة آلاف أوقية من الفضة(١). وقد منع الرسول قتل الذراري أثناء المعركة وبعدها(٢).

وخلاصة القول ان موقعة حنين كانت بداية النهاية للمشركين فى الحجاز بخاصة وشبه الجزيرة العربية بعامة، وان ثقيفا اشتركت بفرعيها فى المعركة، لكن بنى مالك استماتت فى المعركة ضد المسلمين وهذا واضح من عدد قتلاهم، بينما لم يكن اشتراك الأحلاف فى المعركة فعلياً ، كما كان فى بنى مالك. فقد قتل أثنان منهم فقط، ولربما يعود هذا إلى رغبة بنى مالك بالانتقام من قريش أملا فى استعادة نفوذهم السياسي والتجاري فى حين ان الأحلاف كانت على علاقة وثيقة مع قريش. لذا فرت من المعركة تاركة رايتها معلقة على شجرة(٣)، فهي خدعت بنى مالك من جهة، ومن جهة ثانية كانت تنوى العودة لساحة المعركة لو انقلب ميزان القوى لصالح المشركين، ولربما دل هذا على الذكاء أثناء الحروب.

ومن خلال تعليق الرسول صلى الله عليه وسلم على قتلى الطرفين، يبدو أنه كان يعبرّ بصراحة عن رأى قريش وأهل مكة حين توثقت علاقتهم بالاحلاف من ثقيف فى حين توثقت علاقة بنى مالك بهوازن ومجموعة قبائل قيس عيلان التى حملت الحقد والكراهية لقريش منذ حرب الفجار.

ثانيا : حصار الطائف :

على أثر الهزيمة التى حلّت بجموع المشركين من هوازن وثقيف وحلفائهما فى وادي حنين،انهزمت هذه الفلول باتجاهات مختلفة،فنهم من عسكر بأوطاس بعد الهزيمة،وأغلب هؤلاء من هوازن وحلفائها من بنى نصر و بنى رئاب. هؤلاء قُتل منهم من قتل وأسر من أسر وفرّ الباقون هربا من المسلمين(٤). ومن الفلول من

(١) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٤٣.
(٢) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٠٥.
(٣) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٠٧.
(٤) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٥٣ وما بعدها، طبعة الحلبي، ١٩٥٥. =

انهزم إلى نخلة وهم بنو غيرة من ثقيف، والذى بعث الرسول صلى الله عليه وسلم وراءهم خيلا تتبعهم، ومنهم من سلك الثنايا وهؤلاء لم تتبعهم خيول المسلمين(١). أما غالبية ثقيف ومن انضم إليهم من غيرهم فقد هربوا إلى الطائف وقد أفزعهم الخوف وأرعبتهم المعركة، ودخلوا مدينتهم التى بنيت حولها الأسوار ذات الأبواب القوية التى تغلق عليها فتجعلها كتلة واحدة صعبة القصم، تحصنوا فيها وأغلقوا أبوابها عليهم وتجهزوا بالمؤن والماء بما يكفيهم لفترة طويلة، ونصبوا عليها المجانيق وأدخلوا فيها الرماة الأشداء الذين اشتهرت بهم مدينتهم، استعدادا للدفاع عنها والاستماتة فى سبيلها(٢). يذكر الواقدي «ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى الطائف، وكانت ثقيف قد رموا حصنهم، ودخلوا فيه منهزمين من أوطاس وأغلقوه عليهم — وهو حصن على مدينتهم له بابان — وصنعوا الصنائع للقتال وتهيأوا وأدخلوا حصنهم ما يصلحهم لسنة لو حصروا»(٣)

بعد هذا الانتصار الذى حقّقه الرسول فى حنين وهزيمة ثقيف ومن انضم إليهم من غيرهم من القبائل الأخرى إلى الطائف، أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم أن الطائف هي آخر قلاع المشركين أهمية فى الحجاز، وبالإمكان أن تصبح قاعدة لكل الخارجين على سلطته والذين لم يؤمنوا بالإسلام بعد. لذا قرّر التوجه فورا إلى الطائف وملاحقة الفارين والمنهزمين إليها لينهى آخر تجمّع قد يقف فى وجه الدعوة الإسلامية أو يعرقل انتشار الإسلام فى شبه الجزيرة كلها.

لقد صمم الرسول صلى الله عليه وسلم على ملاحقتهم، ورغم ما كان لديه من العدة فقد طلب من الطفيل بن عمرو أن يستمد قومه ويلحق به بالطائف، ولقد نفذ الطفيل ما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم ولحق به بأربعمائة من

الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩١٥.
ابن الأثير: الكامل، ج ٣، ص ٢٦٥ — ٢٦٦، طبعة بيروت.
(١) ابن هشام : السيرة — المجلد الثاني، ص ٤٥٣، طبعة الحلبي ١٩٥٥.
بينما يذكرهم الواقدي بأنهم بنو عنزة والأصح ما جاء فى سيرة ابن هشام.
انظر الواقدي : المغزى، ج ٣، ص ٩١٤.
ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٨.
(٢) ابن الأثير الكامل، ج ٢، ص ٢٦٦، طبعة بيروت.
لا مانس : مدينة الطائف، ص ٧٣، الطبعة الفرنسية.
(٣) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٢٤.

قومه(١). ممن يجيدون استخدام الدبابات والمنجنيق لقذف جدران الحصون بمدفعية الحصار الضخمة فى صورة المنجنيق، الذى اشتهر بنو دوس بفنونه واستخدامه فى الحرب.

ولقد استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم الأدلاء على الطريق وكان بمقدمة جيشه خالد بن الوليد، فسلك طريق نخلة اليمانية(٢)، ثم القرن(٣)، فالمليح(٤)، فبحرة الرغاء(٥)، حتى وادى ليّة(٦)، وهناك بنى مسجدا وصلى فيه وأمر بقتل رجل من بنى ليث لقتله رجلا من هذيل، فكان أول دم أقيد به فى الإسلام. وأمر بإحراق قصر مالك بن عوف النصري فحرق(٧). ومن ليّة سلك طريقا يقال لها الضيقة ثم خرج على نخب(٨)، حتى الصادرة، وحرق وهو فى طريقه إلى الطائف حائطا لأحد الثقفيين بسبب رفضه أوامره بالخروج من الحائط(٩). وبذلك

---

(١) الطفيل بن عمرو، هو الطفيل بن طريف بن العاص بن ثعلبة بن فهم بن غنم بن دوس الدوسي. وهو الذى بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ذى الكفين صنم عمرو بن حمه فأحرقه.
الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٢٣.
ابن حجر : الاصابة، ج ٢، ص ٢٢٥ — ٢٢٦، طبعة بغداد.

(٢) نخلة اليمانية : واد على ليلتين من مكة يقع فى بطن مر.
ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ٢٧٧.

(٣) القرن بينها وبين مكة ٤٥١ ميلا وهي ميقات أهل اليمن.
ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٣٣٢.

(٤) المليح : واد بالطائف.
ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ١٩٦.

(٥) بحرة الرغاء : موضع فى لية فى ديار بنى نصر وهى من أعمال الطائف.
ياقوت : معجم البلدان، مجلد ١، ص ٣٤٦.

(٦) وادى ليّة : سبق ذكره فى ص ٨ من هذا البحث.

(٧) الواقدى : المغازى، ج ٣، ص ٩٢٥.
ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٨٢، طبعة الحلبي ١٩٥٥.
يذكر ان قصر مالك هدم من قبل المسلمين.

(٨) نخب : واد بالطائف.
ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ٢٧٥.

(٩) الواقـدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٢٥.
ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٨٢، طبعة الحلبي ١٩٥٥.
يذكر أن الحائط خرب.

ظل الرسول يحصن مؤخرة جيشه حتى وصل الطائف وعسكر قريباً من حصنها وحاصرها بأدوات الحصار التى كانت معه كالمنجنيق وهي أداة ترمى بها الحجارة الكبيرة على الأعداء(١). والدبابة وهي أداة من أدوات الحرب يدخل المحاربون فى جوفها و يدفعونها إلى جدار الحصن فيحدثون ثغرة أو فتحة فيه وهم بداخلها يحميهم سقفها وجوانبها من قبل العدو(٢)، وهي تصنع من خشب وتغشى بجلود البقر و يدخل فيها الرجال و يتصلون بحائط الحصن. وكذلك استخدم فى حصارهم الحسك الذى نشره حول حصنهم أو سور مدينتهم وهو أشبه بالشوك الحديدية أو القصب فيلقى حول العسكر وتمركزهم فيسبب عرقلة فى مسيرتهم لأنه يلصق بأرجلهم أو يدخل فيها مسببا جروحا فيها(٣). بهذه الأدوات الثلاث القوية استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم الحصار وهي أدوات استخدمت لأول مرة فى حصار الطائف، لا كما يذكر «وات» من أدوات الحصار التى استخدمها الرسول ما هي إلا أدوات بدائية جدا أخذها عن البيزنطيين(٤).

وفى بداية الحصار قام الرسول صلى الله عليه وسلم بعملية استطلاعية لامكانية معرفة الأماكن التى ينفذ المسلمون منها إلى الحصن، فأرسل يز يد بن زمعة بن الأسود على فرسه طالبا من ثقيف الأمان بحجة أن يكلمهم، لكن ما أن دنا منهم حتى رموه بالنبال فقتلوه، لكن يعقوب أخا يز يد بن زمعه استطاع أن يكمن وراء الحصن و يقبض على هذيل بن أبى الصلت و يقدمه للنبي ثأرا لأخيه فضرب الرسول صلى الله عليه وسلم عنقه(٥).

إن الحصار والمناوشات بين الطرفين استمرت خمسة عشر يوما(٦). قاوم خلاله بنو ثقيف ومن تحصن معهم بعد الهزيمة فى حنين بعناد واصرار وظلوا يرمون

(١) ابن هشام : السيرة — المجلد الثاني، ص ٤٧٨، طبعة الحلبي ١٩٥٥. حاشية رقم (٦).
(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٨٢، حاشية رقم (١).
(٣) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٢٧، حاشية رقم (٣).
(٤) مونتجمرى وات : محمد فى المدينة، ص ٧٢ — ٧٣. الطبعة الانجليزية. طبعة أكسفورد.
(٥) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٢٦ — ٩٢٧.
(٦) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٣٦.
اختلفت المصادر فى تحديد مدة الحصار، فالطبري يذكر فى ج ٣ ص ٨٢ نصف شهر، بينما يذكر فى =

المسلمين بالنبال، مطمئنين إلى مناعة أسوار مدينتهم ووفرة الغذاء والمؤونة فيها وقد أوقعوا بالمسلمين بعض الخسائر(١).

هذه الاستماتة من ثقيف بالدفاع عن مدينتها جعلت الرسول يفكر فى الطريقة التى يستطيع بها اقتحام جدار المدينة وتهديمه والدخول إليها وبذلك استشار الرسول سلمان الفارسي وهو العارف بحفر الخنادق فأشار عليه بنصب المنجنيق على الأسوار ففعل، وقاتلهم لعدة أيام كان أحدها يوم «الشدخة» حيث دخل المسلمون تحت الدبابة وزحفوا بها إلى جدار المدينة فرمتهم ثقيف بالحديد المحمّى بالنار فحرقت الدبابة وخرج المسلمون من تحتها فانصب عليهم رجال ثقيف بالنبال فقتلوا منهم رجالا وأصابوا آخرين(٢). ورغم الرمي بالمنجنيق والهجوم بالدبابة فان الجولة الهجومية للمسلمين لم تنجح وبذلك لن يستطيعوا التسرب إلى المدينة، وكان لابد من العودة إلى العامل الأصلي، وهو الحصار الذى يستند إلى الهجوم المعنوي الدعائي.

وقبل التطرق إلى الوسائل الأخرى التى استخدمها الرسول ضد ثقيف قبل فك الحصار، لابدّ لنا من الاشارة إلى دور أبى محجن الثقفي فى هذه المجابهة فأبو محجن هو مالك بن حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، وصف بأنه أحد الرماة المهرة الذين استخدمتهم ثقيف على حصن الطائف والذى كان يستخدم المعايل فى المرمى وهي عبارة عن نصال عريضة وطويلة مؤثرة ومميتة إذا استخدمت بمهارة ضد الرجال. وقد قتل أبو محجن بعض رجال المسلمين فيها. وكذلك هو الذى رمى عبد الله بن أبى بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ بسهم أدى إلى

= ص ٨٣ من الجزء نفسه أكثر من عشرين ليلة وهذا الاختلاف يعود لاختلاف الرواة الذين أخذ منهم المؤلف.
أما ابن هشام، فى السيرة ــ المجلد الثاني، ص ٤٨٢ طبعة الحلبي ١٩٥٥ فيذكر أيضا أكثر من عشرين ليلة ثم يعود و يذكر سبع عشرة ليلة.

(١) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٢٧ ــ ٩٢٨.

(٢) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٢٧ ــ ٩٢٨.
ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٨٣، طبعة الحلبي.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٨٤.
ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، المجلد الثاني، ص ٢٦٦، طبعة بيروت.

جرحه واصابته اصابة بليغة، لكنه لم يمت إلا فى خلافة والده. لقد استماتت أبو محجن فى الدفاع عن مدينته مزهوا بقوته ومهارته فى الحرب، زاعما أن المسلمين لم يجدوا رجالا يحسنون القتال غيرهم(١). وهذا واضح من المحاورة التى كانت بينه وبين عمر بن الخطاب، قال أبو محجن وهو على حصن الطائف: «ياعبيد محمد، انكم والله ما لاقيتم أحدا يحسن قتالكم غيرنا، تقيمون ما أقمتم بشر محبس، ثم تنصرفون، لم تدركوا شيئا مما تريدون، نحن قسيّ وأبونا قسا، والله لا نسلم ما حيينا، وقد بنينا طائفا حصينا. فناداه عمر: «ياابن حبيب، والله لنقطعن عليك معاشك حتى تخرج من جحرك هذا، انما أنت ثعلب فى جحر يوشك أن يخرج»(٢). لقد كانت ثقيف تستشير أبا محجن فى أمور الحرب أثناء الحصار. وكان من رجالها المعتمدين والمسموعى الكلمة فيها(٣). وهو الذى أسلم فى خلافة أبى بكر — رضي الله عنه — (٤).

نعود إلى الوسائل التى استخدمها الرسول بعد فشل الهجوم، فقد لجأ الرسول صلى الله عليه وسلم إلى وسيلة أخرى لعلها تجدى بهم فأمر بقطع أعنابهم، وكلف يعلى بن مرة الثقفي بذلك مهددا بتدمير أحد مواردهم الاقتصادية الهامة، فالأعناب غلتهم الرئيسية ومصدر الثروة والغنى لمدينتهم، وطلب من كل رجل أن يقطع خمس حبلات من أعنابهم(٥). ولكن ثقيفا لم تذعن ولم تستجب ولم تتنازل عن عنادها واصرارها، لكنها لما رأت صدق ماعزم عليه المسلمون من القطع طلبوا من الرسول الكف عن قطع أعنابهم مذكرينه بضرورة تركها لله والرحم أى لله وللذى بينهم وبينه. فالرسول حدّثه من ثقيف(٦). ثم التجأ الرسول إلى وسيلة

(١) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٣٠، ٩٣٢، ٩٣٥.
ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٩١، حاشية رقم (٤).
ابن حجر : الاصابة، ج ٤، ص ١٧٣ — ١٧٤، طبعة بغداد.

(٢) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٣٥.

(٣) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٣٢.

(٤) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٣١.

(٥) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٨٤، طبعة دار المعارف.
الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٢٨.
ابن هشام : السيرة — المجلد الثاني، ص ٤٨٣، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

(٦) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٢٨ انظر كذلك الحاشية رقم (٢).
انظر ما سبق من البحث ص ١١٢، هامش رقم (٢).

أخرى عندما كلف المغيرة بن شعبة وأبا سفيان المناداة عليهم ومخاطبة نساء قريش وبنى كنانة فى الطائف. فقد كانت آمنة بنت سفيان عند عروة بن مسعود والفراسية بنت سويد بن ثعلبة عند قارب بن الأسود، لكن المحاولة هي الأخرى لم تجد نفعا بسبب خوف ثقيف على نسائهم من السباء وأخذ المسلمين لهن مالا مغنوما لا يستطيعون استرداده بعد ذلك(١). يقول الماوردي «لأن قتل الرجال وقتل السبي محظور، صار السبي مالا مغنوما لا يستنزلون عنه إلا باستطابة النفوس»(٢). لكن بنى الأسود بن مسعود ردّوا على المغيرة بن شعبة وأبي سفيان طالبين منهم حث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عدم قطع أعنابهم وليدعها لهم، وبذلك استجاب الرسول لطلبهم أملا فى الاقتراب من نفوسهم والتأثير فيها، وانتهت هذه المحاولة لصالح ثقيف.

وقد قام الرسول صلى الله عليه وسلم بمحاولته الأخيرة لدفع ثقيف إلى التخلي عن عنادها واصرارها فطلب من أصحابه ترغيب عبيد ثقيف بالنزول من حصن الطائف والانضمام للمسلمين مقابل عتقهم واعطائهم حريتهم، وقد نجحت هذه المحاولة وكادت تأتي بثمار طيبة فنزل منهم أبو بكرة والمنبعث وكان اسمه المضطجع فسماه الرسول «المنبعث» حين أسلم، والأزرق بن عقبة ووردان وكان عبدا لعبد الله بن ربيعة، ويحسن النبال وابراهيم بن جابر وغيرهم(٣). فلما علمت ثقيف بهذه المحاولة سدّت على الباقين طرق النزول وحبستهم(٤). فلما أسلمت ثقيف طالبت الرسول صلى الله عليه وسلم بردّ هؤلاء العبيد، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم رفض طلبهم قائلا: أولئك عتقاء الله وبذلك اغتاظ الثقفيون على غلمانهم(٥).

---

(١) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٢٩.
ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٨٣ — ٤٨٤، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

(٢) الماوردي : الأحكام السلطانية والولايات الدينية — طبعة الحلبي ١٩٦٦.

(٣) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٣١، وما بعدها.
ابن الأثير : أسد الغابة، ج ٥، ص ٢٠٥، وما بعدها. طبعة طهران.
ابن حجر : الاصابة، ج ٤، ص ٤٥٤، طبعة بغداد.
ابن هشام : السيرة — المجلد الثاني، ص ٤٨٥ — ٤٨٦، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

(٤) البلاذري : أنساب الاشراف ج ١، ص ٤٩٠، طبعة القاهرة، ١٩٥٩.

(٥) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٣٢.
ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٨٥، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

ولقد أراد عيينة بن حصن خداع الرسول صلى الله عليه وسلم وأخذ موافقته بالدخول على ثقيف فى حصنهم ليكلمهم فى الإسلام، فأذن له الرسول صلى الله عليه وسلم لكنه خان الأمانة وحث ثقيفا على عدم الاستسلام وأوحى لهم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم ملّ المقام فى الحصار، ولما عاد ادعى أمام الرسول بأنه حث ثقيفا وحلفاءها على التسليم والدخول فى الاسلام وأخذ الأمان، ولكن ما إن انتهى من حديثه حتى قال له الرسول صلى الله عليه وسلم : كذبت لأن الرسول على صلة مستمرة بالوحي، فهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى فانبرى له عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — وطلب أن يقدمه الرسول ليضرب عنقه، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لا.. سيتحدث الناس بأنى أقتل أصحابى[1]. والحقيقة أن عيينة لم يأت مع الرسول صلى الله عليه وسلم لنصرته — وقد كان له سجل حافل فى خيانة المسلمين ومواقفه الخاطئة منهم، فقد ذكر الواقدي: إن أبا بكر رضي الله عنه أغلظ له يومئذ وقال: ويحك ياعيينة إنما أنت أبدا توضع فى الباطل، كم لنا منك من يوم بنى النضير، وقريظة، وخيبر، تجلب علينا وتقاتلنا بسيفك، ثم أسلمت كما زعمت فتحرّض علينا عدوّنا))[2] — وانما جاء ليصيب جارية يحصل عليها إذا فتح المسلمون الطائف و يأخذها كسباء ليتزوجها، لعله ينجب منها ولدا ذكيا، فان ثقيفا قوم مباركون[3].

وخلال الحصار، استطاع أحد المسلمين من قبيلة دوس وهو مروان بن قيس الدوسي من أسر أحد زعماء قيس وهو أبي بن مالك القشيري ليفتدى به أهله الذين أصابتهم ثقيف، واستطاع بذلك أن يجبرهم على الإفراج عنهم وتسليمهم له[4].

---

(١) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٣٢ — ٩٣٣.

(٢) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٣٣.

(٣) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٣٧.
يذكر ابن هشام فى السيرة — المجلد الثاني — ص ٤٨٥ القصة و يقول : أن ثقيفا قوم مناكير.
و يؤيد ابن الأثير، ج ٢، ص ٢٦٧ الرأى نفسه.

(٤) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٨٥، طبعة الحلبي١٩٥٥.
ابن جزم : جوامع السيرة، ص ٣٤٤، طبعة دار المعارف — القاهرة.

ومهما كانت المحاولات والنتائج، فان الرسول قرّر فك الحصار عن الطائف والعودة إلى «الجعرانة» وذلك من خلال المحاورة التى جرت بين عمر بن الخطاب وأبى محجن والتى انتهت بمخاطبة أبى بكر لعمر بأن يكف عن هذه المحاورة، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأذن له بفتح الطائف، وهذا ما تأكد منه عمر بنفسه من الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن سمع ما ذكرته خويلة من أن الرسول لم يأذن له فى فتح الطائف بعد أن سألته أن يعطيها حلي باو ية بنت غيلان الثقفي ان هو فتح الطائف، فقال لها انه لم يؤذن له فى ذلك. و يذكر ابن هشام فى رؤيا الرسول وتفسير أبى بكر لها فيقول: «وقد بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر الصديق وهو محاصر ثقيفا: يا أبا بكر، إنى رأيت أنى أهديت لى قعبه مملوءة زبدا، فنقرها ديك، فهراق ما فيها. فقال أبو بكر: ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وأنا لا أرى ذلك»(١). وقد أذعن أبو بكر لما قاله الرسول حين قال: «الله ورسوله أعلم، والأمر ينزل عليه من السماء» وكذلك عمر بن الخطاب حين سأل قال: «قد رأينا الحديبية. ودخلنى فى الحديبية من شك مالا يعلمه إلا الله.. والخيرة فيما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولن أراجعه فى شىء فى ذلك الأمر أبدا.. والأمر أمر الله، وهو يوحى إلى نبيه ما يشاء»(٢). ومع هذا، فان بعض المسلمين تضايقوا من الانسحاب فأمر الرسول بالعودة إلى القتال وقد هجم المسلمون بالفعل ثانية على سور الطائف فأصابتهم جراحات كثيرة وبذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «انا قافلون إن شاء الله.. فسروا بذلك وأذعنوا»(٣). أى قبلوا الأمر وأسرعوا فى طاعة الرسول وتم الارتحال والعودة إلى الجعرانة بعد حصار دام خمسة عشر يوما. وبذلك قال رسول الله كلمته المشهورة حين بدأ الارتحال والعودة، قال: « قولوا لا إله إلا الله وحده، صدق وعده،

---

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٨٤، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
الواقدي : المغازى ، ٣، ص ٩٣٦. طبعة أكسفورد.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٨٤ — ٨٥ طبعة دار المعارف.

(٢) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٣٦.

(٣) الواقدي : المغازى، ج٣، ص ٩٣٧.

ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» وبذلك طلب المسلمون من الرسول أن يدعو الله على ثقيف. قال: اللهم اهد ثقيفا وائت بهم(١).

ولا بد لنا من وقفة حول ما كتبه المستشرقون فى مسألة فك الحصار والانسحاب فقد قال مونتجمرى وات: « لذلك نرى أنه بعد مضي خمسة عشر يوما أوقف محمد الحصار، لقد قاوم بنو ثقيف ببسالة وأوقعوا الخسائر فى صفوف المسلمين، لقد رأى محمد بأنه لو استمر فى الحصار، فان رجاله سوف يصابون بالملل، وسوف يكون هناك المزيد من سفك الدماء، وان التوصل إلى اتفاق مع ثقيف فيما بعد سيصبح بعيدا أو صعبا، وأن مركزه فى حنين سيتأثر فى حالة الحصار الطويل»(٢).

صحيح إن الحصار دام خمسة عشر يوما، لكن لم يخسر فيه المسلمون سوى اثني عشر رجلا(٣)، وهذه خسارة لا تذكر بالنسبة لخسارة الجيوش فى المعارك والحروب، وخاصة كحملة مثل حملة حصار الطائف، فقد كان فيها مع الرسول أكثر من اثني عشر ألفا من الرجال. وان الرجال من جيش المسلمين لم يصابوا بالضجر والملل بل على العكس من ذلك هم الذين أرادوا مواصلة القتال وعدم الانسحاب حتى النصر واستسلام ثقيف، وان مركزه فى حنين لم يتأثر فقد استبسل المسلمون فى الدفاع عن الإسلام، مهما كانت النتائج ومهما طال الحصار وان السبايا والغنائم فى الجعرانة كانت فى مأمن من أى أذى أو غارة، فقد أمن الرسول حراستها وأمنها قبل التوجه إلى الطائف، ان سبب الارتحال الرئيسي هو ماجاء على لسان الرسول نفسه من أن الله لم يؤذن له فى الفتح، فقد كان صلى الله عليه وسلم أعلم، والأمر منزل عليه من السماء أو يوحى إليه، أو انه يملك ما نسميه بالعلم اللدني وهو العلم الذى يلقيه الله فى نفس الإنسان بدون تعلّم وادراك مالا يدركه الآخرون من الناس.

---

(١) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٣٧.
ابن الأثير : الكامل، ص ٢٦٧، طبعة بيروت.

(٢) مونتجمرى وات : محمد فى المدينة، ص ٧٤، طبعة أكسفورد الانجليزية.

(٣) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٣٨.
ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٢٦٧.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٨٥.

وبذلك طلب الارتحال والعودة إلى الجعرانة للنظر فى أمر الغنائم التى تركت هناك، تاركا ثقيفا شبه محاصرة من القبائل الأخرى التى أسلمت وبذلك استطاع أن يؤثر فى ثقيف من طرق أخرى. علما بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن فى حسبانه أبدا الانتقام من أهل الطائف وهو الذى أصابه الأذى منهم أكثر من غيرهم أثناء دعوته للإسلام وزيارته للطائف.

صحيح إن فك الحصار أتاح لثقيف أن تتنفس الصعداء، لكن الهزيمة فى حنين والحصار فى الطائف جعلاها فى عزلة عن سائر القبائل العربية الأخرى ومعاداة القبائل لها، وبذلك شدد الخناق عليها وانتهى الأمر بها إلى المحاصرة الضائقة الاقتصادية(1)، مما جعلها تستسلم فى النهاية للأمر الواقع وتدخل فى الإسلام مرغمة، وهذا ما سنبحثه فى فصل قادم.

إن من استشهد يوم الطائف اثنا عشر رجلا من الصحابة والمؤيدين لدعوة الإسلام، سبعة من قريش، وأربعة من الأنصار ورجل من بنى ليث(2)، بينما يذكر الواقدي ان من استشهد من بنى أمية اثنان ومن بنى أسد واحد ومن بنى تيم واحد، ومن بنى مخزوم واحد، ومن بنى عدى واحد، ومن بنى سهم اثنان، ومن بنى سعد بن ليث واحد، ومن الأنصار ثلاثة، فذلك اثنا عشر رجلا(3). وهنا يختلف قليلا عن ابن هشام فى السيرة.

ثالثا: العودة إلى الجعرانة:

كان لانتصار الرسول فى حنين أهمية خاصة، إذ منحته شهرة واسعة باعتبارها المواجهة الحقيقية والرئيسية الوحيدة بينه وبين القبائل أثناء حياته. لذا

---

(1) الواقدي: المغازى، ج ٣، ص ٩٥٥ وما بعدها.
حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام، ج ١، ص ١٤٤ — ١٤٥.
بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية، ص ٦١ — ٦٢ طبعة دار الملايين.

(2) ابن هشام: السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٨٦ — ٤٨٧، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(3) الواقدي: المغازى، ج ٣، ص ٩٣٨.
بينما يذكر الطبري ان من استشهد من الانصار هم أربعة.
الطبري: الرسل والملوك، ج ٣، ص ٨٥، طبعة دارالمعارف.

لم يهتم بأمر الغنائم ولم يشغل رجاله بها، ماعدا جمعها ووضعها فى مكان يقال له الجعرانة(١)، حتى يفرغ من أمر العدو وملاحقته إلى آخر حصن يلتجىء إليه، وبذلك ينهى هذا التمرد ويستأصل البقية الباقية من الشرك ليتفرغ لأمور دينه وإمكانية نشره خارج شبه الجزيرة العربية، استجابة لنداء الله بأن الدين للناس كافة، وليس للعرب وحدهم. وبعد حصار الطائف وما رافقه من أحداث، وبعد أن توفرت لديه القناعة التامة بالانسحاب وفك الحصار، أمر بالرحيل والعودة الى الجعرانة للنظر فى أمر الأسلاب والأسرى والغنائم المختلفة، ولا سيما أنه قد تركها تحت اشراف بديل بن ورقاء الخزاعي، وفيها الكثير من النساء والأطفال(٢). وعند العودة سلك طريق دحنا(٣)، ثم على قرن المنازل(٤). ثم نخلة حتى عاد إلى الجعرانة(٥). ولربماأخذت الغنائم التى خلفها وراءه فى الجعرانة تشغل باله، ولا سيما أن بعض المشكلات قد حدثت بسبب التأخير فى توزيعها، لأن بعض المسلمين الموجودين فى جيش الرسول صلى الله عليه وسلم حاولوا الاحتفاظ ببعض ما استولوا عليه شخصيا، بالاضافة إلى النظر فى أمر الجوارى اللواتى منحن للقادة بعد حنين(٦). وبعد الوصول شرع فى تقسيم الغنائم والسبي بين أصحابه والمؤيدين لدعوته وكل الذين شاركوا فى الحرب والانتصار، وكلف بسر بن سفيان الخزاعي

---

(١) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٣٩.
ابن هشام : السيرة، المجلد الثا ني، ص ٤٨٨، طبعة الحلبي ١٩٥٥.
الجعرانة : موقع بين الطائف ومكة وهي أقرب إلى مكة منه إلى الطائف.
ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٢، ص ١٤٢، طبعة بيروت.

(٢) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٢٣.
ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٢٦٦.
بينما يذكر ابن هشام في السيرة، مجلد ٢ ص ٤٥٩، مسعود بن عمرو الغفارى و يؤ يد الطبري فى تاريخه ج ٣، ص ٨١ ذلك، ولكنه يذكره مسعود بن عمر القاري وليس الغفاري.

(٣) دحنا : مخلاف من مخاليف الطائف.
ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٤٣.

(٤) قرن المنازل : جبيل قرب مكة يحرم منه حجاج نجد.
ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٨، ص ١٦٣.

(٥) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٣٩.

(٦) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٤٤.
ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٩٠، طبعة الحلبي.

بالذهاب إلى مكة وشراء ثياب كسوة للسبايا، فلا يخرج المرء منهم من الجعرانة إلا كاسيا، فنفّذ بسر هذا الأمر(١). ولقد كانت الغنائم والأسلاب كثيرة(٢).

وبتوزيع الغنائم أعطى الرسول المؤلفة قلوبهم أكثر مما يستحقون. فقد أعطاهم من الخمس ليحبّبهم فى الإسلام، وهؤلاء المؤلفة قلوبهم كانوا أشرافا من أشراف الناس يتألفهم ويتألف بهم قومهم منهم: أبو سفيان وابنه معاوية وحكيم بن حزام والحارث بن الحارث بن كلدة والحارث بن هشام وآخرون غيرهم(٣). وهم من سادات قريش قد دخلوا الاسلام بعد فتح مكة. لذا أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقوّى ويعزّز اسلامهم ليكونوا عونا له لمكانتهم بين قومهم، ولقد شاهد ذلك بنو هوازن وبذلك شدّهم الرسول إلى الإسلام ورغّبهم فيه، وكان للثقفيين الذين أسلموا نصيب وافر من هذه العطايا فحصل كل من أسيد بن جارية والنضير بن الحارس بن كلدة — وهو أخو النضر بن الحارث الذى قتله الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بدر — مائة بعير ومخرمة بن نوفل دون المائة وهم من الثقفيين المحالفين لقريش(٤). لكنه لم يعط الأنصار شيئا من الخمس ولذلك فقد أخذوها فى نفوسهم وساورتهم الشكوك، فظنّوا أن الرسول صار فى غنى عنهم بعد أن لقي قومه، فلم يعد يحفل بهم ولا يعنى بشأنهم كما كان من قبل وقالوا: لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه، أما حين القتال فنحن أصحابه وأما حين القسم فقومه وعشيرته. وقد سمع الرسول بذلك فغضب غضبا شديدا، فأمر سعد بن عبادة أن يجمع له الأنصار، فجمعهم وخطبهم تلك الخطبة الهامة(٥). التى قال فيها:

---

(١) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٤٣.

(٢) انظر ص ١٤٥ من هذا البحث، فقرة رقم (٤).

(٣) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٩٢ — ٤٩٣.
الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٤٤.
يذكر أن الرسول أعطاهم أول الناس.

(٤) الواقدي : المغازى، ٣، ص ٩٤٥ — ٩٤٦.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٩٠، طبعة دار المعارف.
ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٢٧٠، طبعة بيروت.

(٥) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٩٨ — ٤٩٩ طبعة الحلبي ١٩٥٥.
ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٢٧١.

«والذى نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار. أكتب لكم بالبحرين كتابا من بعدى تكون لكم خاصة دون الناس.. فهو يومئذ أفضل ما فتح الله عليه من الأنصار. قالوا: وما حاجتنا بالدنيا بعدك يارسول الله؟. قال : أما لا فسترون بعدى أثره، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله، فان موعدكم الحوض، وهو كما بين صنعاء وعمان، وآنيته أكثر من عدد النجوم. اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار. قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا يارسول الله حظا وقسما، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرّقوا»(١).

هذه الخطبة تجلت فيها حسن سياسته وقدرته على جذب النفوس وتأليف القلوب إليه، ومهارته فى اعداد سامعيه، وتهيئتهم لقبول ما يريد أن يلقيه عليهم والتأثر به إلى أبعد حدّ، فقد بين لهم فى هذه الخطبة نعمة الإسلام عليهم، إذ هداهم بعد الضلالة وألف بين قلوبهم بعد العداوة، ثم ذكر لهم بالثناء تصديقهم رسالته وايواءهم اياه ومواساتهم له، ثم عتب فى كياسة وظرف تطلعهم إلى هذا الفيء الذى أفاءه الله عليهم، ففرقه فى حديثي عهد بالاسلام تطييبا لنفوسهم عما أصابهم من القتل والهزيمة، ثم أكد محبته وايثارة اياهم على غيرهم من العرب وأخيرا أعلن اليهم انه منهم ودعا لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم(٢). وبذلك رضي الأنصار وفرحوا وعدُّوا ذلك نصرا كبيرا لهم. وسنبين فى جدول خاص مقدار العطايا التى وزعت.

وما زال الرسول صلى الله عليه وسلم فى الجعرانة، قدم عليه أثناء اقامته وفد هوازن معلنين اسلامهم، مطالبين بالعفو عنهم وردّ ذراريهم وأموالهم إليهم، لا سيما

(١) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٥٨.
وكذلك أشار اليها ابن هشام والطبري وابن الأثير وان لم يوردوا النص كاملا كما أورده الواقدي.
ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٩٩، طبعة الحلبي ١٩٥٥.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٩٣ — ٩٤.
ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٢٧١.

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام، ج ١، ص ١٤٣ — ١٤٤ مطبعة النهضة المصرية.

انه تربطه بهم رابطة متينة، فقد عاش بينهم فى طفولته رضيعا فى كنف مرضعته حليمة السعدية وهي من هوازن، وقد كان لحديث الوفد وذكريات الطفولة وقرابة الرضاعة أثرها فى نفس الرسول صلى الله عليه وسلم فرقّ قلبه لهم وخيّرهم بين أخذ السبى — الأولاد والنساء — وبين الأموال. «**فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ان أحسن الحديث أصدقه وعندى ماترون من المسلمين، فأبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم؟. قالوا: يا رسول الله، خيّرتنا بين أحسابنا وبين أموالنا، وما كنا نعدل بالأحساب شيئا، فردّ علينا أبنائنا ونساءنا**»(١)، حفاظا على الشرف ووصلا للرحم. فأعلن النبي صلى الله عليه وسلم عن تنازله وتنازل بنى هاشم وبنى المطلب جميعا عن حصتهم من سبي هوازن، وبذلك ترك الباب مفتوحا لتنازلات أخرى، فاقتدى به بقية المسلمين، ووعد بالعفو عن الذين لم يحضروا معهم أمثال مالك بن عوف النصري، قائد جموع المشركين فى حنين، وأن يرد إليه أهله ومائة بعير لو جاء مسلما وترك الطائف، وقد سمع مالك فاتى الرسول معتذرا ومسلما وقد وفى الرسول بما وعد به لمالك، وعينه على من أسلم من قومه(٢). وقد اختلف ابن هشام عن الواقدي فى أمر السبي والغنائم فقد ذكر ابن هشام بأن استعادة النساء قد تمت قبل توزيع الإبل والأغنام فى حين رواية الواقدي تختلف عن ذلك فهو يروى العكس، أى أن توزيع الغنائم قد تم قبل استرداد النساء والأطفال(٣)، وقد علق «وات» على ذلك فقال: ان مجرد علم هوازن باقتسام الإبل والأغنام والفضة قد تم، وان الدور آت لاقتسام النساء جعل هوازن تعجل فى الدخول فى تسوية مهما كان الثمن، لأنها كانت تدرك أن فضيحة ستلحق بها وأن الكثير كان يرغب بنساء الطائف أمثال عيينة بن حصن وغيره(٤).

(١) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٥١.
ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٨٩، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٩١، طبعة الحلبي ١٩٥٥.
الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٥٥.

(٣) ابن هشام : السيرة، المجلد لثاني، ص ٤٩٢، طبعة الحلبي ١٩٥٥.
الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٤٤.

(٤) مونتجمرى وات : محمد فى المدينة، ص ٧٥. الطبعة الانجليزية — طبعة أكسفورد.

أعتقد أن «وات» لم يستوعب الرواية الكاملة التى ساقها الواقدي بالنسبة إلى توزيع بعض من السبايا قبل توزيع الغنائم وهن اللائى استردتهن هوازن بعد توزيع الغنائم منهن المرأة التى كانت عند عبد الرحمن بن عوف وعلي وعثمان وطلحة وصفوان ابن أمية وعبد الله بن عمر، ماعدا المرأة التى كانت عند سعد بن أبى وقاص اَختارت أن تبقى مع سعد ولها منه ولد(١). أما باق السبايا — وهي النسبة الكبيرة — فقد استردتها هوازن قبل توزيع الغنائم، لذلك قال الواقدي ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال لوفد هوازن عندما جاءه يطلب السبايا «.. قد استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون»(٢). وعلى أى حال، فلقد كانت استعادة النساء والأطفال في صالح هوازن، لأن الغنائم كانت من حق الغالب(٣)، وبذلك حصلت هوازن وكسبت دون أن تخسر بالمقابل شيئا.

وبقيت نقطة لابد من ذكرها، فان بعض القبائل التى شاركت مع الرسول صلى الله عليه وسلم لم ترض بالتنازل عن حصتها من السبايا أمثال بنى تميم وبنى فزارة وبنى سليم وهذا ما جاء على لسان رجالهم. يذكر الواقدي: «ان الأقرع بن حابس قال: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن: أما أنا وفزارة فلا، وقال عباس بن مرداس السلمي: أما أنا وبنو سليم فلا، قالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله»(٤). لذا فقد ردّ عليهم العبّاس بن مرداس: لقد أضعفتموني، ويقصد لم تعاضدوني بعد أن طلبت ذلك باسمكم.

ومن الثابت أن الجعرانة قد لعبت دورا بارزا فى دخول هوازن فى الإسلام، وبذلك اثبت الرسول مرّة أخرى المهارة الفائقة والحنكة التى أظهرها فى المواقف الصعبة والخطيرة، وبذلك استطاع أن يرضي رغبات هؤلاء ويشبع أحاسيسهم بالفخر وحبّهم للشرف والرفعة.

ورغم قدوم وفد هوازن وإسلامه، ودخول مالك بن عوف النصري فى

---

(١) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٥٢.

(٢) الواقدي المغازى، ج ٣، ص ٩٥٠.

(٣) الماوردي : الأحكام السلطانية، ص ١٣٤، طبعة الحلبي، ١٩٦٦.

(٤) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٥١ — ٩٥٢.

الإسلام.. ورغم الخسارة الكبيرة التى حلّت بثقيف فقد بقيت على عنادها واصرارها ممتنعة فى طائفها لا تقبل الدعوة ولا ترضى الرسول نبيا(١). وازاء هذا الموقف المتشدّد قرّر الرسول صلى الله عليه وسلم محاصرتها، لكن هذه المرة بحلفائها وجيرانها محاصرة اجتماعية واقتصادية، وبذلك عهد إلى هوازن وبنى نصر واستعمل مالكا على لواء يقاتل به ثقيفا(٢). فضيّق عليهم الخناق، فلا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه وأخذه منهم، وقد استمات مالك فى الدفاع عن الرسول والمسلمين، ولاسيما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد وعده بالمال والغنائم وعلى كل مايحصل عليه مقابل الخمس للرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا نوع من الترغيب المادي. فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم عارفاً به تماماً، فبعث مرّة للرسول مائة بعير ومرة ألف شاة(٣). ومن هذه الأعداد ندرك مقدار ما كان يغنم منهم. ونتيجة لذلك دخلت ثقيف فى معارك ابتدأت بالشعر مع أعدائها الجدد وحلفائها القدامى. فقال أبو محجن الثقفي عندما نهبت أغنامه:

نهاب الأعداء جانبنا	ثم تغزونا بنو سلمة
وأتانا مالك بهم	ناقضا للعهد والحرمة
وأتونا فى منازلنا	ولقد كانوا أولى نقمة

فردّ عليه مالك بن عوف النصري، حيث قال:

ما ان رأيت ولا سمعت بمثله	فى الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعلى للجزيل إذا اجتدى	ومتى تشأ يخبرك عما فى غد
وإذا الكتيبة عرّدت أنيابها	بالمشرفي وضرب كل مهنّد
فكأنه ليث على أشباله	وسط الهباءة خادر فى مرصد(٤).

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٨٨، ٩٩.
الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٥٥.

(٢) الواقدى : المغازى، ج ٣، ص ٩٥٥.
ابن هشام : السيرة، المجلد، ص ٤٩١، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

(٣) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٥٥.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٨٨، ٩٩.

(٤) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٥٥ — ٩٥٦.

لقد ترك الرسول صلى الله عليه وسلم الجعرانة بعد أن قضى فيها ثلاث عشرة ليلة فكان رحيله فى يوم الاربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة ليلا إلى مكة ثم ترك مكة عائدا إلى المدينة، واضعا عتاب بن أسيد على مكة وخلف معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري يعلمان الناس القرآن والفقه فى الدين(١).

وأخيرا، لابدّ لنا من وقفة عند بعض الاجراءات والأعمال التى اتخذها الرسول تجاه ثقيف لنتعرف إلى ما كان يستهدفه مستقبلا، وهل تحقّق له ما أراد أم لا.

فمن الناحية العسكرية، استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم كل الوسائل التى توفرت لديه أثناء الحصار كالمنجنيق والدبابة والحسك، لكنه لم يتمكن من فتح الطائف لما كانت تتمتع به المدينة من تحصين وأسوار قوية واستماتة أهلها بالدفاع عنها، ثم الانتهاء من أمر ثقيف بدون حرب وكسب القبائل من عرب جنوب الحجاز وغربه وضمهم لجانبه وجعلهم أعداء لثقيف كما حصل لهوازن ومالك بن عوف النصري. ومن القبائل التى انضمت لمالك هوازن وفهم(٢)، وكذلك كعب بن زهير بن أبي سلمى الذى جاء إلى الرسول تائبا ومسلما فقبل الرسول منه التوبة(٣).وكذلك ما جاء على لسان عبد ياليل وخوفه من حصار المسلمين على مدينته حين قال: **« قد أوطأ الأرض غلبة ونحن فى حصن فى ناحية من الأرض، والإسلام حولنا فاش، والله لو قام على حصننا شهرا لمتنا جوعنا، وما أرى إلا الإسلام، وأنا أخاف يوما مثل يوم مكة»**(٤).وبذلك حول كفاية الطائف بهذا الحصار الاجتماعي والاقتصادي إلى جوع واستجداء، وبذلك أدرك أهل الطائف من أنفسهم بأن كسب ودّ وصداقة الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين أحسن وأكثر فائدة من عداوته بعد أن

= بينما ذكر ابن هشام، مجلد ٢، ص ٤٩٢ فى قول أبى محجن البيت الثالث مخالفا لما ذكره الواقدي حيث يذكر:

وأتونا فى منازلنا ولقد كنا أولى نقمة

(١) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٥٨ — ٩٥٩.

(٢) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٥٥.

(٣) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٠١ وما بعدها، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

(٤) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٦٧

ساءت حالتهم. وهذا ما كان يريده الرسول ويستهدف تحقيقه، ولذلك وضع خطا للرجعة معهم وإمكانية دخولهم الإسلام حيث لم يمعن فى قتلهم وسفك دمائهم ومعاداتهم وبذلك تتعمّق الهوة والحقد بينهم وبين المسلمين وفعلا تحقق له كل ما أراد تقريبا(1). فقد أذعنت ثقيف وانصاعت للأمر الواقع وجاءت تطلب المسالمة والاسلام، وهذا ما سنبحثه فيما بعد.

وبهذه الأحداث انتهت أشد مرحلة من مراحل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصبح سيدا لشبه الجزيرة العربية كلها بلا منازع.

---

(1) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٦٢، طبعة الموسوعات ١٩٠١.
ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٣٥٢، طبعة المعارف بمصر.
بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية، ص ٦١ — ٦٢، طبعة دار الملايين.

يوضح الجدول التالي أسماء من تألفهم النبي صلى الله عليه وسلم) بعد حنين وقبائلهم ومقدار ماناهم من العطايا(١):

أبو سفيان بن حرب	عبد شمس	١٠٠ جمل
يزيد بن أبى سفيان	عبد شمس	١٠٠ جمل
معاوية بن أبى سفيان	عبد شمس	١٠٠ جمل
حكيم بن حزام	أســـــد	١٠٠ جمل
النضير بن الحارث	عبد الدار	١٠٠ جمل
أسد بن حارثة	ثقيف-حليف بني زهرة	١٠٠ جمل
العلاء بن جارية	ثقيف-حليف بني زهرة	١٠٠ جمل
الحارث بن هشام	مخزوم	١٠٠ جمل
صفوان بن أمية	جمح	١٠٠ جمل
سهيل بن عمرو	عامر	١٠٠ جمل
حويطب بن عبد العزى	عامر	١٠٠ جمل
الأقرع بن حابس	تميم	١٠٠ جمل
عيينة بن حصن	غطفان	١٠٠ جمل
مالك بن عوف	هوازن	١٠٠ جمل
مخرمة بن نوفل	زهرة	دون المائة
عمير بن وهب	جمح	دون المائة
هشام بن عمرو	عامر	دون المائة
سعيد بن يربوع	مخزوم	٥٠ جملا
قيس بن عدى	سهم	٥٠ جملا
العبّاس بن مرداس	سليم	أعطاه حتى رضي — لم يذكر العدد.

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٩٤ — ٤٩٦ طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٤٤ — ٩٤٦.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٩٠.

رابعا : اعتناق ثقيف للإسلام :

لم يدم مكوث الرسول صلى الله عليه وسلم بالجعرانة بعد فك الحصار عن الطائف طويلا، فقد بقي ثلاث عشرة ليلة فقط(١). بعدها انتقل إلى مكة لتأدية العمرة والعودة للمدينة مركز الدولة الجديدة، بعد أن رتّب أمور مكة وعين عليها عتاب بن أسيد وهو من بنى أمية بن عبد شمس، لأن فترة المكوث القصيرة فيها بعد الفتح والظروف الملحة لمواجهة هوازن وثقيف فى حنين والطائف لم تسمح له بتعيين وال عليها(٢). ويبدو أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قاصدا هذا التعيين لدعم وتقوية بنى عبد شمس فى مكّة، ولا سيا أنهم من المتنفذين فيها والذين ساهموا فى الفتح وفى موقعة حنين وحصار الطائف ثم هدم بيت اللات بعد اسلام ثقيف(٣).

ورغم الاستقرار والأمن الذى حل بمكة وبطريق التجارة البعيدة، فإن مكّة لم تسترد مكانتها التجارية التى كانت عليها قبل الفتح بسبب التغيرات الجديدة التى جاء بها الاسلام، كمنع الربا وتحريمه ولأن النشاط انتقل إلى المدينة لأنها صارت عاصمة الدولة، وقد أنتقلت اليها أعداد كبيرة من قريش وخاصة أصحاب الطموح الذين يحبّون دائما أن يكونوا قريبين من مركز السلطة، بالاضافة إلى أن الحرمة العامة قد تقررت بخضوع العرب للاسلام، فلم تعد مكة هي المكان الأمين وحده وانما صار الأمن عاما(٤).

وبانتهاء أحداث الجعرانة وإسلام هوازن وقبائل أخرى مثل ثمالة وسلمة وفهم(٥)، أصبحت الزعامة السياسية التى حصل عليها النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة إلى المدينة عامة وشاملة، وأصبح رئيسا لدولة جديدة يأمر فتنفذ أوامره

---

(١) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٥٨.
(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٠٠، طبعة الحلبي ١٩٥٥
(٣) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٠٠، ٩٢٩، ٩٧١.
(٤) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ٥٢٨ — ٥٣٠، طبعة دار الفكر.
(٥) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٩١، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٥٥.

باعتباره النبي الذى ينزل عليه التشريع وهو المنفذ للشريعة الإسلامية. لذا أصبح المسلمون مستعدين لتلبيبة أية أوامر تصدر إليهم لنشر الدعوة فى الداخل والخارج.

وبعد فك الحصار عاشت الطائف فترة قاسية استمرت من ذى القعدة سنة ٨ للهجرة إلى رمضان سنة ٩ للهجرة، وعاشت محنة رهيبة وهي محاصرة، فهي ممنوعة من التجارة والرعي، وقد تخلّى بعض رجالها عنها ودخلوا فى الإسلام أمثال يعلى بن مرة الثقفي والمغيرة بن شعبة، بعد أن أحسوا بعدالة الإسلام وكرهوا فكرة التعصب القبلي ووقفوا مع الرسول ضد مدينتهم وقبيلتهم(١). وبذلك أصبحت الضربات تتوالى على ثقيف واحدة بعد الأخرى. فباسلام المغيرة ويعلى وبجير بن أبى سلمة والعلاء بن جارية وأسيد بن جارية وابنه حبيب بن أسيد بن جارية، وغيرهم من رجال وزعماء ثقيف(٢)، تأثرت المعنويات فى ثقيف وأصبح رؤساؤهم وأولهم عبد ياليل فى حيرة من أمره يستشير هذا وذاك فى مدينته المحاصرة لعله يجد مخرجا للأزمة الخانقة(٣). وزادت الأزمة واشتدت باسلام عروة بن مسعود الثقفي، أحد رجال ثقيف الكبار، والذى لم يكن موجودا فى الطائف أثناء الحصار الذى فرضه عليها الرسول بعد موقعة حنين، فقد كان فى جرش يتعلم صنع الدبابات والمنجنيق والعرادات والضبور مع غيلان بن سلمة الثقفي(٤). فلما عاد من جرش وعلم بالحصار وفتح مكة فكر مليا بالأمر فقذف

---

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٠٠ — ٥٠١ طبعة الحلبي ١٩٥٥.
الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٦٢.
ابن قتيبة : كتاب المعارف، ص ٢٧٦، طبعة القاهرة.

(٢) ابن حجر : الاصابة، ج ١، ص ١٣٨ (بجير).
ابن حجر : الاصابة، ج ٣، ص ٦٦٩ (يعلى).
نفس المصدر : ج ٢، ص ٤٩٧ (العلاء).
نفس المصدر : ج ١، ص ٤٨ (أسيد).
نفس المصدر : ج ١، ص ٣٠٤ (حبيب).

(٣) الواقدي المغازى، ج ٣، ص ٩٦٢.

(٤) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٦٠، لكن ابن هشام فى السيرة مجلد ٢ ص ٤٧٨ يذكر أن غيلان بن سلمة الثقفي كان بمعية عروة بن مسعود فى جرش.

الله فى قلبه الاسلام، فذهب إلى الرسول ليعلن اسلامه وقد تم له ذلك فعلا فى المدينة(١).

ولابد لنا من وقفة عند اسلام عروة بن مسعود الثقفي، فهل حقا أسلم واهتدى قلبه للإسلام بشكل تلقائي؟ أم أراد من الدخول بالاسلام الحصول على مكاسب أو مغانم شخصية له ولقومه الأحلاف؟ أو أراد أن يقطع الطريق على بني مالك لئلا يسبقوه ويتحالفوا مع محمد صلى الله عليه وسلم بعد المحنة التى مرّوا بها، فأراد ان يكون قصب السبق له؟.

من المعروف أن عروة هو أحد الذين فاوضوا الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ممثلا لقريش، ولم يكن الموقف مجرد لقاء عابر، بل كان مناقشة حادة انتهت بتوقيع معاهدة، فلا شك أن عروة تأثر بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وحنكته السياسية ولباقته الكلامية ومعرفته ببواطن الأمور وحججه المقنعة، ولربما ساورت عروة فكرة الدخول فى الاسلام منذ ذلك اللقاء بدليل محاورته لقومه بعد عودته من المفاوضة حيث يقول فى الرسول صلى الله عليه وسلم: «انى قد جئت كسرى فى ملكه، وقيصر فى ملكه، والنجاشي فى ملكه، وانى مارأيت ملكا قط مثل محمد فى أصحابه، ولقد رأيت قوماً لايسلمونه بشيء أبدا»(٢). هذا القول الصادر من عروة يوحى تماما بتأثره بالرسول صلى الله عليه وسلم ولو لم يعلن إسلامه وقتذاك، ولكن تلك الوقفة بقيت عالقة وشاخصة حيّة فى أفكاره.

لذا، بعد عودته من جرش تماثلت الحقيقة أمامه بعدما سمع عن فتح مكة وحصار الطائف فأعلن اسلامه وأدرك أن من واجبه أن يساهم فى تقريب وجهات النظر بين قومه ثقيف والمسلمين وأراد أن يستخدم قوة نفوذه بين قومه لأنهم - حسب تصوره — لا يعصونه فى أمر ولا يردون له طلبا، لمكانته الكبيرة بينهم، وقد عبر عن ذلك صراحة حين حذره الرسول صلى الله عليه وسلم من مغبة

---

(١) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٦٠ — ٩٦١.
ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٢٨٣، طبعة بيروت.

(٢) ابن هشام : السيرة — المجلد الثاني، ص ٣١٤، طبعة الحلبي، ١٩٥٥. والمحاورة طويلة فى الواقدي للاطلاع عليها انظر:
الواقدي : المغازى، ج ٢، ص ٥٩٨ — ٥٩٩.

الذهاب إلى ثقيف، فقال: «أنا أحب اليهم من ابكار أولادهم»(١). إلا أن الرسول كان يدرك تماما أنهم قاتلوه وقد قالها صراحة: «انهم اذن قاتلوك»(٢). وبذلك، وبعد الالحاح الشديد من عروة أذن الرسول صلى الله عليه وسلم له بالخروج إلى الطائف، فوصلها بعد خمس ليال ودخل منزل دون المرور على بيت اللات (الربة)، والمرور على اللات تقليد ديني عندهم للمسافرين والعائدين. ولقد ارتابوا من هذا التصرف، وفسّروا ذلك بكثرة أتعابه فى السفر فأرادوا إختباره فحيّوه بتحية الشرك فأنكر عليهم هذه التحية وطلب منهم أن يحيوه بتحية الإسلام، ثم دعاهم إليه(٣). هنا تبدّل الموقف وشخصت الأبصار وارتابت القلوب ووهنت العزائم وبذلك بدأ يذكر لهم منزلته عندهم و يعدد لهم مناقب الإسلام وأنه لم يدخله إلا بعد أن لمس ذلك فعلا، لكنهم عنّفوه وذكروه باللات وعدم احترامها وسفّهوا آراءه، ثم بدأت المؤامرة تحاك ضده ونفذت فى اليوم التالي عند تأدية الصلاة فقتله أوس بن عوف وهو من بنى مالك(٤)، وقد طلب قبل وفاته أن يدفن مع شهداء الطائف وبذلك ضرب مثلا رائعا لقوة الايمان وصفاء العقيدة ورسوخها فى قلبه.

وبموت عروة بن مسعود الثقفي حزن الرسول صلى الله عليه وسلم وقال فيه مثله كمثل صاحب ياسين فى قومه، يذكر الطبري: «حدثنا ابن بشار، قال:

---

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٣٧، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
الواقدي : المغازى، ٣، ص ٩٦٠.

(٢) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٦٠.
ابن حجر: الاصابة، ج ٢، ص ٤٧٧، طبعة بغداد.

(٣) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٦١.

(٤) اختلفت الرواية فى مقتل عروة فمرة يذكر أن قاتله هو وهب بن جابر، وهو من الأحلاف. ومرة يذكر أن قاتله أوس بن عوف من بنى مالك، وهو يرجح الرواية الأخيرة. و يذكر ابن هشام أن كلا من بني مالك والأحلاف كانوا يفتخرون بقتل عروة بن مسعود، و يؤيد الطبري ما جاء فى ابن هشام.
الواقدي : المغازى، ج ٢، ص ٩٦١.
ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٣٨، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٢، ص ٢١، طبعة دار المعارف المصرية.

حدثنا مؤمل، قال: حدثنا سفيان، عن عاصم الأحول عن أبي مخلد، كان اسم صاحب (يس) حبيب بن مرى»(١). وقد ذكرت معظم المصادر هذا القول(٢).

بعد مقتل عروة بن مسعود لم يتغير الموقف بالنسبة لثقيف وبقيت على موقفها المعادي للاسلام، مع أن الوهن والضعف ازداد فى رؤوس قادتها، ووهذا واضح من المحاورة التى جرت بين عمرو بن أمية، أحد بنى علاج، وبين عبد ياليل عندما قصد الأول الثاني وكان بينهما شيء من الجفاء، إلا أن الحاجة الملحة جعلت كلا منهما يتنازل عن غطرسته وعنفوانه، فعند مقابلة عمرو لعبد ياليل قال له: «قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة، انه قد كان من أمر هذا الرجل ماقد رأيت وقد أسلمت العرب كلها وليست لكم بهم طاقة، وانما نحن فى حصننا هذا، ما بقاؤنا فيه وهذه أطرافنا تصاب.. ولا نأمن من أحد منا يخرج شبرا واحدا من حصننا هذا، فانظروا فى أمركم»(٣).

إن الحصار قد حول مدينتهم إلى سجن كبير بالنسبة لهم، وحوّلها من حالة الرخاء والرفاهية إلى مايشبه الجوع والاستجداء والضائقة الاقتصادية. ولا بدّ لهم من تدارك الأمر والبحث عن حل ينهى لهم هذه الأزمة، وليس أمامهم إلا الصلح أو القتال، والقتال ليس لهم به طاقة، أى لا مقدرة لهم عليه، أما الصلح فهو الأوفق والأحسن، لكن المشكلة بالنسبة لهم كيف يبدأ هذا الصلح؟ ومن هو الذى يقود مفاوضات الصلح؟ وهم الذين قتلوا عروة بن مسعود وأضاعوا كل الفرص التى سنحت لهم. وعلى أي حال، لابد من انهاء الوضع المتردّي بينهم. وبذلك دخل الموقف مرحلة الموافقة النهائية، فائتمرت ثقيف فيما بينها حتى لا يقال إن فلانا أو جماعة معينة انفردت بالحل، وكان الحل أن اتفقوا على اختيار رأسهم الكبير عبد ياليل مبعوثا لهم على رأس الوفد المفاوض مع المدينة(٤). لكن

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٢، ص ٢١، طبعة دار المعارف المصرية.

(٢) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٦١.
ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٢٨٣، طبعة بيروت.
ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٣٨، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

(٣) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٦٢.
ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٣٨، طبعة الحلبي.

(٤) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٦٣.

عبد ياليل أبى أن يفعل فى أول الأمر وخشي أن يصنع به إذا رجع كما صنع بعروة فقال: لست فاعلا حتى تبعثوا معى رجالا، فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بنى مالك فيكونوا ستة والثلاثة من الأحلاف هم عبد ياليل والحكم بن عمرو بن وهب بن معتب وشرحبيل بن غيلان بن سلمة بن معتب، وثلاثة من بنى مالك هم عثمان بن أبى العاص وأوس بن عوف ونمير بن خرشة. و يذكر الواقدي أن الوفد ضم أكثر من هذا العدد وكان من ضمنهم سفيان بن عبد الله(١). ولربما كان لتشكيل الوفد غاية تنم عن تفكير عميق وسليم فى هذه المفاوضات، لأن عبد ياليل كان يخشى القتل من قبل ثقيف، لذا أراد أن يشرك الكل فى هذه المفاوضات ليضمن السلامة له وما قد يحدث بعد العودة(٢).

لكن الأرجح أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى كان يرغب أيضا رغبة شديدة فى اسلام ثقيف و يأمل أن يكون هذا اليوم قريبا، ولقد أدرك الصحابة هذا الموقف تماما من الرسول بدليل تسابق أبى بكر الصديق — رضي الله عنه — والمغيرة بن شعبة فى بشارة الرسول بوصول وفد ثقيف إليه(٣). أضف إلى ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما طلبوا مقابلته وكتابة معاهدة معهم، رحب ترحيبا كبيرا، حيث قال: «لايسألون شرطا ولا كتابا أعطيته أحدا من الناس إلا أعطيتهم»(٤). لأن الغرض والهدف الأول للرسول صلى الله عليه وسلم هو نشر الإسلام والدعوة للدين الجديد بين العرب جميعا. فهذه هي رسالته الأولى. ومهما قدم الرسول لثقيف من امتيازات وشروط فهو يدرك تماما أنها ستصبح فى النهاية جزءا من مجتمع الاسلام وستنصهر فى بوتقته وتتحمل كل الواجبات الملقاة على عاتق المسلمين. وهذا ماحصل فعلا بعد اسلام ثقيف وما سنراه فيما بعد.

= ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٣٩، مطبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(١) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٦٣.
لكن ابن هشام، فى السيرة، مجلد ٢، ص ٥٣٩، لا يذكر إلا هؤلاء الستة فى الوفد.

(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٣٩، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٣) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٦٣ — ٩٦٤.
ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٣٩، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٤) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٦٤.

وهكذا أنزل الوفد فى خيمات ثلاث وسط المسجد، وضيافتهم فى دار المغيرة ابن شعبة بالبقيع، وكان الغرض من نصب الخيم وسط المسجد أن يسمعوا و يروا قراءة القرآن والصلاة وتعاليم الإسلام. ولقد بقي الوفد أياما فى ضيافة الرسول يتدارسون الأمر لعلهم يجدون لهم صيغة موحدة فى نقاش المفاوضات. وأخيرا استقرّ الرأى وبدأت المفاوضات بعرض مطالب ثقيف واستطلاع وجهة نظر الرسول صلى الله عليه وسلم فيها والتى تلخصت فى اباحة الزنا والربا وشرب الخمر وابقاء اللات لهم وأن يعفيهم من الصلاة والصوم(١). فلم يقبل الرسول منهم مطلبا واحدا وقد فنّد مطالبهم وأقنعهم بالحجة والمنطق، وازاء هذا الموقف من قبل الرسول ووضع الثقفيين المتردى فى مدينتهم أذعنوا للرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن ضمن الوفد النجاة وأن الرسول هو الذى سيهدم اللات وسيعفيهم من ذلك، وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذى كتب المعاهدة. وقبل كتابة المعاهدة وافق وفد ثقيف على تمسكهم باقامة الصلاة وأداء الفروض الدينية المعتادة، وأن يولي عليهم رجلا منهم وأن يعفيهم من هدم اللات(٢). وقد ورد نص المعاهدة فى صورتين مختلفتين، احداهما عند الواقدي وابن هشام وأبى عبيد.. أما الصورة الثانية فقد أوردها أبو عبيد القاسم بن سلام، وإليك النصان:

نص المعاهدة كما أوردها الواقدي:

((بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من النبي رسول الله إلى المؤمنين، إن عضاه وج وصيده لا يعضد، ومتى وجد يفعل ذلك يجلد وتنزع ثيابه، فان تعدّى ذلك فانه يؤخذ فيبلغ محمدا، فان هذا أمر النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وكتب خالد بن سعيد بأمر النبي الرسول محمد بن عبد الله. فلا يتعداه أحد، فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ونهى النبي صلى الله عليه وسلّم عن قطع عضاه وج وعن صيده وكان الرجل يوجد يفعل ذلك فتنزع ثيابه واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمى وج سعد بن أبى وقّاص))(٣).

(١) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٦٦ — ٩٦٨.

(٢) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٦٨.

(٣) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٧٣.
وقد ذكر ابن هشام فى السيرة، مجلد ٢، ص ٥٤٢ — ٥٤٣ النص نفسه الذى ذكره الواقدي.

أما نص المعاهدة كما أوردها أبو عبيد:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم لثقيف، كتب: ان لهم ذمة الله الذى لا إله إلا هو وذمة محمد بن عبد الله النبي، على ما كتب عليهم فى هذه الصحيفة: إن واديهم حرام محرم لله كله.. عضاه وصيده، وظلم فيه، وسرق فيه أو اساءة، وثقيف أحق الناس بوج، ولا يعبر طائفهم، ولا يدخله عليهم أحد من المسلمين يغلبهم عليه، وما شاءوا أحدثوا فى طائفهم من بنيان أو سواه بواديهم. لا يحشرون ولا يعشرون ولا يستكرهون بمال ولا نفس وهم أمة من المسلمين يتولجون فى المسلمين حيث شاءوا، وأن تولجوا ولجوا، وما كان لهم من أسير فهو لهم، هم أحق الناس به حتى يفعلوا به ماشاءوا وما كان لهم فى دين من رهن فبلغ أجله فانه لواط مبرأ من الله. وفى حديث يروى عن ابن اسحق ان لياط مبرّأ من الله، وما كان من دين فى رهن وراء عكاظ فانه يقضى إلى عكاظ برأسه، وما كان لثقيف فى دين فى صحفهم اليوم الذى أسلموا عليه فى الناس، فانه لهم وما كان لثقيف من وديعة فى الناس، أو مال، أو نفس غنمها مودعها أو أضاعها، إلا فانها مؤداة، وما كان لثقيف فى نفس غائبة أو مال فإنَّ له من الأمن مالشاهدهم، وما كان لهم من مال بليّة فان له من الأمن مالهم بوج، وما كان لثقيف فى حليف أو تاجر فأسلم فانه له مثل قضية أمر ثقيف، وان طعن طاعن على ثقيف، أو ظلمهم ظالم، فانه لايطاع فيهم فى مال ولا نفس وان الرسول ينصرهم على من ظلمهم، والمؤمنين ومن كرهوا أن يلج عليهم من الناس، فانه لايلج عليهم، وان السوق والبيع بأفنية البيوت، وأنه لايؤمر عليهم إلا بعضهم على بعض، على بنى مالك أميرهم، وعلى الأحلاف أميرهم، وما سقت ثقيف من أعناب قريش فان شطرها لمن سقاها، وما كان لهم من دين فى رهن لم يلط فان وجد أهله قضاء قضوا وان لم يجدوا قضاء فانه إلى جمادى الأولى من عام قابل، فمن بلغ أجله فلم يقضه فانه قد لاطه، وما كان لهم فى الناس من دين فليس عليهم إلا رأسه، وما

كان لهم من أسير باعه ربه فان له بيعه، وما لم يُبع فان فيه ست قلائص، نصفان حقاق وبنات لبون كرام سمان، ومن كان له بيع اشتراه فان له بيعهُ(١).

فاذا نظرنا إلى هذين النصين تبين لنا أن الأول منها، أى نصّ الواقدي وابن هشام لا يكاد يتضمن شيئًا من النصوص السياسية التى تعنينا فى هذا البحث فهو يقتصر على الصيد والشجر والغالب أنه جزء من النص الأصلي، أما نص أبى عبيد فهو نص كامل يتضمن كل مانتوقع أن تتضمنه مثل هذه المعاهدة من النصوص السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومن خلال ماذكره الواقدي فى موضوع المفاوضة بين الرسول صلى الله عليه وسلم ووفد ثقيف فانه ذكر معظم ماتضمنته المعاهدة التى أوردها أبو عبيد(٢)، ولما كان القاسم بن سلام مؤرخا متقدما يوثق فيما ورد وقد وثق نصه بسند قوى يرجع إلى عروة بن الزبير فاننى أفضله وأتناوله هنا بالشرح والدراسة والتحقيق.

وباستعراضنا لما ورد فى هذه المعاهدة يتبين لنا مدى أهمية هذه الامتيازات التى حصلت عليها ثقيف ورغبة الرسول صلى الله عليه وسلم الشديدة فى اسلامهم، كما عبّر صلى الله عليه وسلم أثناء قدوم الوفد إلى المدينة حيث قال: «لا يسألون شرطا ولا كتابا أعطيته أحداً من الناس إلا أعطيتهم»(٣).

نصّت المعاهدة على تنفيذ بنودها واعطاء الأمان لأهلها بذمة الله والرسول وان لا رجوع عن هذه المعاهدة مطلقا. ففى بداية المعاهدة ذكر: ان واديهم حرام محرم لله كله، عضاه وصيده، وظلم فيه، وسرق فيه أو اساءة. وبذلك أعطى صلى الله عليه وسلم لثقيف مركزا مرموقا من الناحية الدينية ورفعها إلى مستوى المدينة المقدّسة، وأعطاها مكانة خاصة تنسيها استقلالها الذاتى الذى فقد بدخولها تحت سلطة الدولة الإسلامية.ولها الاحقية فى مدينتها لا يشاركها فيها أحد وبذلك انتزع حق القرشيين فى مشاركتها أموالها وتجارتها، وأتاح لها أن تبنى وتعمّر وتزرع وتتاجر بحرّية مطلقة، وليس لأحد حق الاعتراض عليها أو دخول مدينتها بدون

---

(١) أبو عبيد : كتاب الأموال ج ٢، ص ١٩٠ — ١٩٢ المطبعة التجارية الكبرى ١٣٥٣ هـ.

(٢) الواقدي : المغازى، ٣، ص ٩٦٦ — ٩٦٩.

(٣) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٦٣.

اذن منها. وبذلك سد الباب فى وجه الأطماع الخارجية للقبائل بالطائف، ولا سيما أن هذه المدينة نظر إليها منذ القدم نظرة الحسد، وبذلك حصلت ثقيف على الأمان الذى كانت بحاجة ماسة إليه، ولم تحصل عليه حتى أيام عزّها وقوّتها. وأصبحت أمة مشاركة فى أموالها وتجارتها مرهونة بموافقتها هي أولا(١). وأباحت المعاهدة لثقيف حق دخول أراضى الدولة الإسلامية، لأنها أصبحت جزءا منها، ولا يكون هذا الدخول مرهونا بمكان ولا بزمان علما بأن المعاهدة منعت غيرهم من دخول مدينتهم إلا بموافقتهم، وبذلك أعطي امتياز لها لم يحصل عليه الآخرون.

وكذلك لا تؤخذ منهم صدقات المواشى إلا بمكانهم يأتهم المصدق — جابى الضريبة — إلى ديارهم ولا يحق له أن يأمرهم بأن يجلبو ها إليه، وليس لأحد حق اكراههم على دفع أكثر مما نصت عليه المعاهدة، ويذكر أبو عبيد أن عليهم الصدقة من كل مائتين خمسة دراهم، وهو مبلغ زهيد إذا قيس بمدخول الثقفيين وقتذاك. ولا يجوز للمسلمين اجبارهم على الدخول فى حرب إلا بموافقتهم، وبذلك أعفاهم الشرط من المساهمة العسكرية للدولة إلا برضاهم واراداتهم. ومن أسر فى الجاهلية وأسلم وهو فى أيديهم فهو لهم حتى يأخذوا فديته.

ونصت المعاهدة على الموافقة برباهم على الناس. ولكن ماعليهم من الربا رفعه عنهم، وبذلك حفظت أموال ثقيف المدانة للآخرين والمودعة لدى المسلمين وألزمتهم بضرورة ردّها والالتزام الكامل بشروطها السابقة، حتى نزلت الآية الكريمة: «ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين»(٢).

---

(١) أبو عبيد : كتاب الأموال، ج ٢، ص ١٩١ — ١٩٢ مع التصرف فى تحليل نص المعاهدة.

(٢) القرآن الكريم : سورة البقرة، الآية رقم ٢٧٨.
وبنزول الآية طلب منهم أن يتركوا الربا، إن كانوا صادقين فى ايمانهم، لأن من شأن المؤمن الامتثال لأوامر الله. ويظهر هنا أن النص فى المعاهدة كان يقصد به الرسول نصا مرحليا ينتهى بايمان وتعمق الاسلام فى نفوس ثقيف وهذه هي مرونة الرأى السياسي.
انظر تفسير القرآن للسيوطي، ص ٦٣، نشر مكتبة الكتبي.
ويؤيد على ذلك أيضا:
ابن كثير : تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٣٣٠ — ٣٣١.

ولقد استكملت المعاهدة امتيازات أخرى لهم ولمن لم يحضر معهم، و يظهر أن الوفد لم يكن يمثل كل الثقفيين(١)، وانما ترك قسم منهم الأمر للظروف وحتّى يتبين و يتضح الموقف فانهم بقوا بين بين، لذا لم تحرمهم المعاهدة من حق الدخول فيها، فأعطت المعاهدة صفة الشمولية أو العمومية، ولم تقصر الأمر على بنى مالك والأحلاف الذين حضروا المفاوضات وشملت حتى الحلفاء والتجار. من هنا يتبين أن الرسول كان ينظر نظرة مساواة للجميع ولا يتمسك بأي تقليد جاهلي أو عصبية قبلية مطلقا فهو كان يفاوض باسم دولة وليس بأسم قبيلة أو تجمّع قبلي أو تقليد جاهلي قديم متبع.

وذكرت المعاهدة أيضا أنه لا يحق لشخص أو فئة أن تظلمهم، وإذا ظلمتهم فيحق لهم مقاومتها وان الرسول ينصرهم و يناصرهم و يقف بجانبهم ضد أي اعتداء عليهم ولا يولى عليهم أميرا أو حاكما إلا منهم، سواء من الأحلاف أو بنى مالك، وبذلك احترمت المعاهدة وضعهم الاجتماعي وتقسيماتهم القبلية، وذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يدرك بثاقب بصره الحساسية أو شعور الشك المتبادل بين الأحلاف وبنى مالك وكل منهم حليف لآخر، الأحلاف لقريش، وبنو مالك لهوازن، وبذلك حقق العدالة بينهم وتجنب أية حساسية مستقبلية وهو يدرك تماما بأنه بعد أن يثبت الإسلام و يتعمّق فى نفوسهم سيزول هذا الشرط مثلما زال فى المدينة حين قدومه إليها عند الهجرة بين الأوس والخزرج وانتهت التسمية بتسمية جديدة هي الأنصار، وسيعمل الرسول على تحقيق هذا الهدف بكل ما يستطيع.

ولقد نصّت المعاهدة أيضا: وما سقت ثقيف من أعناب قريش فان شطرها لمن سقاها. وبذلك أعطت ثقيفا حقّ المشاركة فى غلات الأرض والمزارع التى كان يمتلكها القرشيون فى الطائف، وبذلك قصد هنا نوع من الموازنة والتآلف المستقبلي بين القبيلتين القويتين قريش وثقيف.

ألزمت المعاهدة المسلمين بتنفيذها، وهذا ما أكد عليه الرسول فى بداية النص

(١) ذكر أن الوفد ستة: ثلاثة من بنى مالك وثلاثة من الأحلاف، ونص المعاهدة ؤكد غياب بعض الاطراف.

انظر الواقدي : المغازي، ج ٣، ص، ٩٦٣.

باعطائهم ذمة الله ورسوله، وهذا يكفى لاحترام المسلمين لها وهي دلالة على ما لثقيف من أهمية فى نظر الرسول. ولم تنقل المصادر لنا أية مخالفة من جانب المسلمين للمعاهدة.

ولقد عيّن الرسول عثمان بن أبى العاص، وهو من بنى مالك، ليضمن عنصر الموازنة بينه وبين المغيرة بن شعبة وهو من الأحلاف، لذا أصبح تعيينه محل رضا وقبول الطرفين، بالاضافة لمعرفته بأصول الدين والقرآن والحديث ومساهمته مع الرسول(١).

نستطيع من خلال دراستنا وتحليلنا لهذه الامتيازات أن نصل إلى هدف واضح لسياسة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو التأليف بين القبائل وخاصة بين أقوى مجموعتين: ثقيف وقريش وهو يعلم أنه بعد تألفهم وتعمق الإسلام فى قلوبهم ستنتهى كل الامتيازات التى منحت لثقيف وسيتساوون مع المسلمين تطبيقا للشريعة الإسلامية، ورغم أن البعض شكك بثقيف وعاب امتيازاتها، فإن ثقيفا بقيت على اسلامها ووقفت إلى جانب المسلمين وساهمت فى ضرب حركات الانفصال والردة ودافعت عن الاسلام والمسلمين بثبات وصبر وايمان. وسنلاحظ ذلك فى فصول قادمة.

وبكتابة المعاهدة انتهى دور الوفد فى المدينة، فقفلوا عائدين إلى الطائف وفى قلوبهم الخوف والوجل من ثقيف، وتخوفوا من أن يحل بهم مثل الذى حل بعروة ابن مسعود من قبل. لذا اقترح عليهم عبد ياليل بعدم البوح بنصوص المعاهدة وكتمان السر حتى يتبينوا أمر ثقيف، واتفقوا عند وصولهم على التظاهر بعدم قبول الرسول صلى الله عليه وسلم لشروطهم، لأنه أصر على تحريم الزنا والخمر والربا وهدم اللات، وهذه الشروط لا يمكن قبولها ولا طاقة لهم بها(٢). وعند وصول الوفد أجرى المراسم المعتادة بزيارة اللات والتبرك بها، إلا أن رجال ثقيف الذين رافقوا وصولهم أدركوا عدم مبالاتهم هذه المرة بها وعبَّر أحدهم عن

(١) أبو عبيد : كتاب الأموال، ص ١٩٠ — ١٩٢، المطبعة التجارية.

(٢) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٦٩.
الديار بكري : تاريخ الخميس، ج ٢، ص ١٢٧

ذلك بقوله: كأنهم لم يكن لهم بها عهد ولا برؤيتها[١]. وذهب كل منهم إلى أهله.

وفى اليوم التالى اجتمعت ثقيف لتسمع أخبار وفدها وما جاء به، فعقد الوفد اجتماعا، أشبه بمؤتمر، مع قبيلته وشرح لهم الأمر وأوضحوا للقبيلة أنهم قابلوا رجلا فظا غليظا لا يأخذ من أمره شيئا، قد ظهر بالسيف وأداخ العرب وأذعنت له الناس بالخوف والقوة وأنه اشترط عليهم شروطا قاسية كالتى ذكرت سابقا ولم نقبل بها، ولابد لنا من التجهيز للقتال والعدة لأيام صعبة قد تواجهنا قريبا، لأنه ينوى العودة للحرب وتدمير الطائف[٢]. وفعلا قام أهل الطائف بترميم الأسوار وتعميرها وتجهزوا للقتال بعد أن نصبوا المنجنيق والعرادات وأدخلوا طعام سنتين للمدينة وشرعوا فى حفر خندق خلف السور استعدادا لأي طارىء، لكن بعد أيام قلائل فترت همتهم وخارت عزائمهم وقالوا: مالنا به طاقة، فطلبوا من الوفد العودة للمدينة وقبول شروط الصلح. عندها أعلن الوفد حقيقة الأمر وبينوا لهم مالاقوه أثناء المقابلة من عزة واحترام، فقالوا لهم: وجدناه أتقى الناس، وأبرّ الناس، وأوصل الناس، وأوفى الناس، وأصدق الناس، وأرحم الناس. وبذلك استطاع الوفد أن يهيىء القبيلة نفسيا ومعنويا لقبول الصلح والدخول فى الإسلام.

وبعد أن قبلت ثقيف المعاهدة وأقرّتها وبدىء بتنفيذ بنودها، وأولها هدم اللات، كلف أبو سفيان والمغيرة بن شعبة هدمها بمساعدة رجال من أحلاف ثقيف ويومها كانت النهاية لعهد الوثنية فى الطائف، ولم يبق سوى حسرة نساء ثقيف على معبودتهن. ولقد حاول سدنة اللات والمستفيدون منها عرقلة هدمها بالوعود الجوفاء من العاقبة وعبثا حاولوا ذلك، فهدمت وانتزعت قلائدها وحليها وطيبها وأخذت[٣]، وبذلك انتهى عهدها بعد أن طال.

---

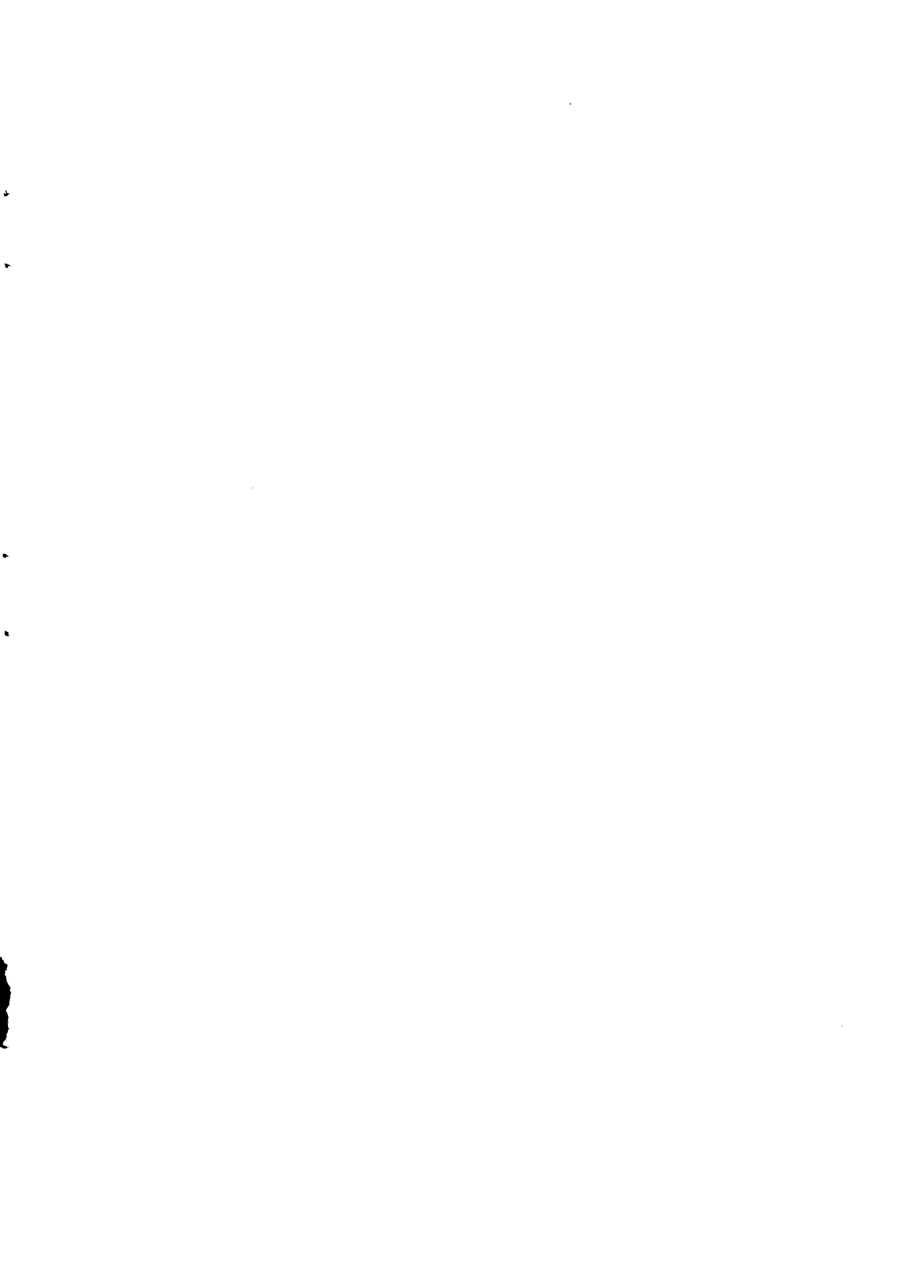
(١) الواقدي : المغازي، ج ٣، ٩٦٩.

(٢) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٧٠.

(٣) أخذ جزء من أموال اللات وقضي به عن دين عروة والأسود ابني مسعود الثقفي.
ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٤٢، طبعة الحلبي ١٩٥٥
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ١٠٠.

وبـدخول ثقيف فى الإسلام، انهدمت أسوار الوثنية فى الحجاز وانتهت أسطورة الأصنام التى لا تنفع وأصبح الرسول زعيما دينيا وسياسيا فى الحجاز وشبه الجزيرة العربية كلها.

(الطائف فى عصر الراشدين)



الباب الثالث

مدينة الطائف فى عصر الراشدين :

دور أهل الطائف فى عصر الخلفاء الراشدين ومشاركتهم فى حركتى الردة والفتوح

لعب الثقفيون من أهل الطائف دورا بارزا فى عصر الخلفاء الراشدين، وقد تميّز هذا الدور بحدثين رئيسيين هما الردة والفتوح الإسلامية الكبرى وسنتطرق إليهما تباعا لنبيّن دور الثقفيين من أهل الطائف فيهما.

أولا: دور الثقفيين فى حركة الردة ضد الدولة الإسلامية :

لم تدخل ثقيف الإسلام طواعية وفى وقت مبكر، بل دخلته مرغمة وفى وقت متأخر لكنهم أصبحوا بعد اسلامهم من أشد العرب حرصا على الإسلام وذودا عنه حتى فى محنة الردة(١). تذكر المصادر فى أخبار الردة « أنه لما مات النبي صلى الله عليه وسلم، وسيّر أبو بكر جيش أسامة ارتدت العرب وتضرمت الأرض نارا وارتدت كل قبيلة عامة أو خاصة إلا قريشا وثقيفا»(٢).

ولكى نقف على دور الثقفيين فى حركة الردة، لابدّ لنا من القاء الضوء على حالة المجتمع العربي أثناء ظهور هذه الحركة والدوافع المباشرة التى دعت إلى قيامها.

بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم سنة ١١ للهجرة، كان المجتمع العربي

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام، ج ١، ص ١٤٦ — ١٤٧، طبعة النهضة المصرية.

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٣٤٢ طبعة بيروت.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٤٢، طبعة دار المعارف.

يتفاوت ايمان أفراده بالإسلام، وذلك لعاملين مباشرين، أولهما مدى تغلغل وتفهم تعاليم الدين الإسلامي بين العرب، وثانيهما مدى تأثير شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم. وهذان العاملان يتوقفان على القرب والبعد عن مركز الدولة فى المدينة (يثرب) والاتصال المستمر بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم ولا سيما أن وسائل اتصال القبائل معه لم تكن مباشرة أو متيسرة(١). لذا، ظهرت بعد وفاته صلى الله عليه وسلم أحزاب وآراء متضاربة وهو ما يحدث فى كل مجتمع يفاجأ بأحداث خطيرة(٢).

فالدين الاسلامي يختلف عن بقية الأديان الأخرى، فلقد جاء بتعاليم دينية واجتماعية وقيم أخلاقية، قلبت مفاهيم المجتمع الجاهلي رأسا على عقب وتركت فيه آثارا واضحة المعالم ونتائج ملموسة، رسمت فيه طابعا جديدا يختلف عن الطابع القديم للعصر الجاهلي تماما. لذا، فقد تقبل الناس هذه التعاليم والقيم الأخلاقية والاجتماعية والدينية بتفاوت بين جماعة وأخرى، كل حسب تفهمه لها ومصلحته منها(٣). فالرعيل الأول من الذين أسلموا فى بداية الدعوة وقدموا أموالهم وأنفسهم فى سبيلها هم جماعة تختلف نظرتهم تماما عن الآخرين، لأن ايمانهم بالدعوة كان صادقا لا مصلحة فيه سوى استجابة لنداء الله وتنفيذا لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هؤلاء ثبتوا على إيمانهم فى أشد المواقف حرجا وهم الفريق الأول من المسلمين(٤).

أما الفريق الثاني فهم الذين بايعوا الرسول ٠صلى الله عليه وسلم وأرسلوا الوفود له معلنين اسلامهم وقبولهم بالدخول فى الدولة الإسلامية نتيجة الحرب والقتال والهزيمة مثل أهل مكة وهوازن وأهل الطائف وحلفائهم من مجموعة قبائل قيس غيلان كقبيلة سليم مثلا(٥). فأهل مكة أسلموا بعد الفتح وهوازن أسلمت

---

(١) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٣٨، طبعة دار الفكر.
(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب المطول، ج ١، ص ١٩٠.
(٣) أحمد شلبي : التاريخ الاسلامي، ج ١، ص ٢٧٧.
هاملتون جب : دراسات فى حضارة الاسلام، ص ٦ — ٧.
(٤) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام، ج ١، ص ٧٩ — ٨٠.
فيليب حتى : تاريخ العرب، ١، ص ١٥٨.
(٥) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٤٩ وما بعدها.

بعد هزيمتها فى موقعة حنين وأسر أعداد كبيرة منها ورغبتها فى استعادتهم خشية أن يصابوا بسوء بعد أن أصبحوا سبايا لدى المسلمين. أما أهل الطائف فقد أسلموا بعد حصارهم وما عانوه بعد الحصار من عزلة نفسية واجتماعية واقتصادية دفعت بهم إلى الفقر والاستجداء، هؤلاء جميعا دخلوا فى الدين الإسلامي مرغمين ثم أصبحوا جزءا من دولته الكبيرة فيما بعد.

أما الفريق الثالث وهم الذين أسلموا نتيجة الحفاظ على مصالحهم الشخصية وابتغاء لكسب الامتيازات وتعجبا من انتشار الإسلام بهذه السرعة، هذه الطبقة فى غالبيتها من أصحاب المصالح التجارية والأموال الذين وجدوا فى استقرار الأوضاع فى الدولة الاسلامية الجديدة عاملا مساعدا على قيامهم بأعمالهم التجارية وتنميتها وحصولهم على امتيازات السلطة والتجارة معا، وان اعتناقهم الإسلام سوف يوفر لهم الاطمئنان والربح والاستقرار مقابل فرائض وعبادات بسيطة يقدمونها للاسلام كالصوم والصلاة والزكاة، وهي شعائر الإسلام وواجباته الدينية. ومن هؤلاء أهل اليمن واليمامة وعمان(١). ولا سيما أن اليمن بلاد عريقة فى الحضارة والتجارة وأرضها خصبة صالحة للزراعة، لذا كان من مصلحتها الاستقرار تحت ظل الدعوة الإسلامية الجديدة.

وبهذا يبدوا لنا أن جزءا كبيرا من القبائل العربية قد دخلت الإسلام تحت ظروف متعددة أو أهداف ذات مصلحة معيّنة خاصة بها، كما أن صلات الرسول صلى الله عليه وسلم وعلاقته بالقبائل الأخرى كانت ضعيفة ولا تتعدى الشعائر الدينية وتأديتها عن طريق من يرسلهم إليهم ليعلمهم هذه الشعائر، ناهيك عن أن بعض القبائل فى الحجاز نفسه لم تدخل الإسلام إلا قبل وفاة الرسول بسنة أو سنتين(٢). أما الوفود التى قصدت النبي صلى الله عليه وسلم لتقديم الطاعة

= مونتجمرى وات : محمد فى المدينة، ص ٧١ — ٧٣ الطبعة الانجليزية.

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٨١ وما بعدها. طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
اليعقوبي : تاريخ ج ٢، ص ٧٩ — ٨٠، طبعة بيروت.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ١٤٤.
فيليب حتى : تاريخ العرب، ج ١، ص ١٩١.
أحمد شلبي : التاريخ الاسلامي، ج ١، ص ٢٧٧ — ٢٧٨.

والاقرار بولايته فلا يسوغ البتّ فى أنها كانت تنوب عن كل أنحاء شبه الجزيرة، فاذا أسلمت القبيلة يومئذ فلم يكن فى الأمر سوى أن زعماءها دخلوا فى الدين، لم يكن الاقتناع بالعقيدة الإسلامية راسخا فى النفوس متغلغلا فيها بعد، وبخاصة فى مجتمع مثل المجتمع العربى الذى تأصلت فيه العادات القبلية المختلفة والتى أهمها العصبية التى جعلت ولاء الفرد لعشيرته وقبيلته أقوى من ولائه لأي شيء آخر(١).

هذه الأمور قد تلقى الضوء وتفسّرلنا سرعة انتشار حركة الردة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم إذا علمنا أن بوادر هذه الحركة ظهرت فى أواخر حياته صلى الله عليه وسلم وبخاصة عندما بدأت فى اليمن وهي أكثر بلاد العرب استقرارا واطمئنانا مثل ردّة الأسود العنسي ولقيط بن مالك بعمان(٢). علما بأن الإسلام ساهم مساهمة فعالة فى تنظيم حياة أهل اليمن، لكن قبائلها لم تستوعب مضمونها وشكلها فى الجماعة الإسلامية، وذلك نتيجة لاختلاف هذا الشكل والمضمون عما كانت عليه فى النظام القبلي، المبني على المفاهيم القبلية الصرفة، ولا سيما أن الإسلام أزال الفوارق والتناقضات بين أفراد القبيلة الواحدة وبين أفراد القبيلة والقبيلة الأخرى وأحدث فيها تغيرا أدى إلى ظهور ردود فعل عنيفة كان أهمها حركة الردة(٣).

ومهما يكن من أمر، فان الردة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لم تظهر بشكل واضح، لكنها انتشرت وتوسعت وظهرت بشكل واضح بعد وفاته صلى الله عليه وسلم مباشرة وبخاصة بعد تولية أبى بكر الصديق ــ رضي الله ــ الخلافة. ولم تحدث الردة فى مكان واحد، ولا لسبب معيّن واحد، بل اتخذت أشكالا

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ١٣٣ — ١٤٥.
ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٢٨٦، طبعة بيروت.
اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٧٩، طبعة بيروت.
أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٣٨.
فيليب حتى : تاريخ العرب، ج ١، ص ١٩١.
(٢) اليعقوبي : تاريخ، ص ١٣٠ — ١٣١، طبعة بيروت.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣١٣ — ٣١٦، ٣٢٣.
(٣) محمد حسين هيكل : الصديق أبو بكر، ص ٩٠، طبعة مصر سنة ١٩٥٥.

متعددة وأماكن مختلفة وبخاصة فى مناطق العصبيات الكبرى، أو تلك التى شهدت من قبل ملكا أو رياسة.

ويمكن اجمال الأسباب التى أدت إلى ظهور حركة الردة بما يأتي:

أولا: الأسباب السياسية:

إن العصبية القبلية كانت محور الحياة السياسية والاجتماعية فى شبه الجزيرة العربية ووجود الكتل الكبيرة التى تدين بها والتى مازالت تعيش فى ذكراها القبائل المتأخرة فى اعتناق الإسلام فلم ترض عن انفراد قريش بالخلافة ورياسة العرب(١). ورأت أن لها من القوة ما يمكنها من أن تكون رياسة العرب فيها. فقد انضم بنو حنيفة لمسيلمة الكذاب مع علمهم بكذبه وخداعه لهم، وهذا واضح من قول طلحة النمري عن مسيلمة، حيث قال: «أشهد أنك الكاذب، وأن محمدا صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب الينا من صادق مضر»(٢). وكذلك هوازن وسليم اللتان ارتد بهما علقمة بن علانة، إلا أن ارتداده لم يفلح، لكن فلول غطفان وطي وسليم وهوازن ارتدت مع أم زمل سلمى بنت مالك بن حذيفة بن بدر وانتهت ردتها بقتلها وقتل مائة رجل معها ممن تبعها(٣).

كذلك الأسود العنسي الذى ينتمى إلى عصبية مذحج إحدى كتل اليمن الكبيرة(٤). وطلحة بن خويلد فى بنى أسد بنجد وينتمى لكتلة قيس القوية. قال عيينة بن حصن: « والله لأن نتبع نبيا من الحليفين أحب الينا من أن نتبع نبيّا من قريش، وقد مات محمد، وبقي طليحة. فطابقوه على رأية ففعل وفعلوا»(٥). وكذلك اجتمعت ربيعة بالبحرين وارتدت وهذا واضح من قولهم: «نرد الملك فى

---

(١) الطبري: الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٢٥، ٢٥٩، ٣٠٣، طبعة المعارف.
(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج٢، ص ٣٦٢، طبعة بيروت.
(٣) ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص ٣٤٩ — ٣٥٠، طبعة بيروت.
(٤) الطبري: الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٢٧ ومابعدها.
ابن الأثير: الكامل، ج٢ ، ص ٣٣٦ ومابعدها.
ابن حزم : الجمهرة، ص ٤٠٥.
(٥) الطبري: الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٥٧.

آل المنذر، فملكوا المنذر بن النعمان بن المنذر»(١)، كما ظهرت سجاح فى بنى تغلب وقبائل تغلب لم تسلم(٢)، ولقيط بن مالك فى الأزد و يلقب بذى التاج وهو ينتمى إلى عصبية الأزد فى اليمن(٣). هؤلاء هم الذين لم يتغلغل الإسلام فى نفوسهم واعتقدوا بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يصل إلى زعامة العرب إلا بسبب عصبية قريش فرغبوا فى محاكاته ولهم مايؤيدهم من قبائلهم التى لا تقل بحال من الأحوال عن قبيلة قريش التى ينتمى إليها الرسول صلى الله عليه وسلم. لذا سيطر التعصب القبلي عليهم سيطرة تامة أدت بهم إلى الارتداد واعلان الرفض للدعوة الإسلامية. و يبدو أن اعجابهم بشخصية الرسول دفعتهم لمحاولة تقليدها أملا فى الوصول إلى ما وصل إليه، لعدم ادراكهم معنى النبوة ادراكا صحيحا، لذا اعتقدوا أن الدعوة انتهت بموته ومصداق ذلك قولهم: «لو كان نبيا حقّا لما مات»(٤). فلم الطاعة من بعده؟. لذا بدأوا يتّجهون حول أنفسهم معتمدين على قوة عصبياتهم(٥). ولم ينحصر الخلاف بين هذه العصبيات الكبيرة فقط بل امتد هذا العصيان لمكة أيضا لولا تدخل عتاب بن أسيد، عامل مكة، وسهيل بن عمرو ونهيهما عن هذا الأمر(٦). و يورد محمد حسين هيكل قولا لسهيل بن عمرو فى الردة و يقول: «ان ذلك — و يقصد الارتداد — لم يزد الإسلام إلا قوّة، فمن رابنا ضربنا عنقه، ثم قال: والله ليتمن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم»(٧). ولعل هذه الكلمة كانت أقوى أثرا فى نفوسهم من التهديد فاستمسكوا بالإسلام وأقاموا عليه.

إن المرتدين كانوا فى نظر الدولة رافضو بيعة ومتمردون على حكم الإسلام،

---

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٠٣.

(٢) الطبري الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٦٧ وما بعدها.
ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٣٥٤.

(٣) ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٣٧٢.

(٤) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٠٢.
أحمد شلبي : التاريخ الاسلامي، ج ١، ص ٢٧٨.

(٥) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٤١، طبعة دار الفكر، ١٩٦٨.

(٦) ابن حجر : الاصابة، ج ٢، ص ٩٣ — ٩٤، ٤٥١ — ٤٥٢.

(٧) محمد حسين هيكل : الصديق أبو بكر، ص ٨٢ — ٨٣، طبعة القاهرة، ١٩٥٨.
و يذكر ابن حزم فى الجمهرة، ص ١٦٦، بأن سهيل بن عمرو قد أسلم وحسن إسلامه.

فالردة كانت انفصالا عن الدولة الإسلامية، وقد فسر ذلك أبو بكر ــ رضي الله عنه ــ بأنه ارتداد إلى الجاهلية وردة عن الإسلام، وعلى هذا الأساس استباح حربهم وانزالهم على حكم الخليفة الشرعي.

فالردة فى الحقيقة لم تكن ردة عن الإسلام كدين وانما كانت ردة على النظام السياسي الذى أوجده الإسلام، وخروجا على الدولة وثورة على الزعامة القرشية التى تولت الحكم بعد النبي وكان اعتذار الناس بعد أن عادت البلاد إلى حكم المسلمين انهم كانوا حديثي عهد الجاهلية(١). يذكر الطبري: «إن الله قد قتل الأسود الكذاب العنسي، قتله بيد رجل من اخوانكم، وقوم أسلموا وصدقوا، فكنا كأنا على الأمر الذى كان قبل قدوم الأسود علينا، وآمن الأمراء وتراجعوا، واعتذر الناس وكانوا حديثي عهد الجاهلية»(٢).

ويذكر الدكتور الشريف: إن الزعماء الذين هزموا وأسروا طلبوا أن لا يطبق عليهم قانون الارتداد، وانما طلبوا أن يطبق عليهم قانون الاستبراء، ويقول عيينة بن حصن الغزاري حين جيء به إلى المدينة أسيرا، وقيل له: أكفرت بعد إيمانك؟ قال والله ما كنت آمنت بالله قط(٣).

فالردة لم تكن إذن ردة عن دين، وانما كانت ردة عن الوحدة السياسية ومنافسة على الزعامة وعصبية تطلب ملكا وتتنافس عليه وتصطنع الدين وسيلة للوصول إليه، وهذه القبائل نفسها هي التى ثارت على قريش فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ــ وكانت ثورتها سببا فى الفتنة الكبرى(٤).

---

(١) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٤٥.
ابن خلدون : المقدمة، ص ٢٧٩، وما بعدها.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٣٩، طبعة دار المعارف.

(٣) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٤٥.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٦٠، طبعة دار المعارف.
ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٣٤٨، طبعة بيروت.

(٤) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٤٥.
ابن خلدون : المقدمة، ص ٣٨٠ وما بعدها.

ثانيا : الأسباب الدينية والاجتماعية

من المرتدين فريق امتنع عن دفع الزكاة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وعدّها ضريبة مهينة يصعب على العربي دفعها، ونوعا من الصدقة تدفع للرسول، انتهت بموته فلا داعي للاستمرار فى تأديتها وأصبحوا فى حل من دفعها لمن قام من بعده، ومرد ذلك أن هؤلاء لم يكونوا يدركون، لبداوتهم وقلة حظهم فى المعرفة الإسلامية مدى حدوده كدين يحتوى تشريعا تقوم عليه دولة(١). وبهذا الخصوص يقول الدكتور أحمد الشلبي إن أغلب مانعي الزكاة أساءوا فهم الآية الكريمة التى تقول: «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها»(٢). وظنوا أن الرسول وحده والخطاب فى الآية الكريمة له هو الذى يجوز له أن يأخذ الزكاة، فى ذلك تطهير وتزكية لهم، وقد نسي هؤلاء، لقلة معرفتهم بالعقيدة الإسلامية، التفسير الدقيق للآية الكريمة، كما نسوا الآيات الأخرى التى تقرر أن للفقير حقا فى مال الغني كما يقول الله عزّ وجل: «والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم»(٣). وقد وصف القرآن الكريم حالة أمثال هؤلاء من الأعراب بقوله: «الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم. ومن الأعراب من يتّخذ ما ينفق مغرما و يتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم»(٤).

وفى صحيح مسلم والبخاري، يذكر بأن مانع الزكاة قد أوعده الله ورسوله بالعذاب المقيم والعقاب الأليم دون أن يصرح عليه بالكفر أو الارتداد، أو الرجوع عن الإسلام(٥). وقد حدد معنى الردة بأنها الاسم من الارتداد، والردة عن

---

(١) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٤٦.

(٢) أحمد شلبي : التاريخ الاسلامي، ج ١، ص ٢٨١.
القرآن الكريم : سورة التوبة، الآية رقم ١٠٣.

(٣) القرآن الكريم : سورة المعارج، الآية رقم ٢٤، ٢٥.

(٤) القرآن الكريم : سورة التوبة، الآية رقم ٩٧، ٩٨.

(٥) البخاري : صحيح البخاري، ج ٢، ص ١٣٢.
مسلم : صحيح مسلم، ج ١، ص ٦٢.

الإسلام الرجوع عنه، وارتد فلان عن دينه إذا كفر بعد اسلامه(١). لذا فان هذا التعريف لمانعي الزكاة يدل على أن الصحابة لم يعدوهم قد كفروا بالإسلام، وقد عارض عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ أبا بكر ــ رضي الله عنه ــ فى حربه لهم محتجا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم لكنه عاد وأقر مشروعية الحرب(٢)، بعد اقتناعه برأي أبى بكر فى أن الامتناع عن دفع الزكاة هدم لركن من أركان الدين، وان التهاون فيه قد يجرّ إلى هدم غيره من الأركان، بالاضافة إلى أنها المصدر الوحيد لموارد بيت المال، وأن التنازل عنها سوف يصيب بيت مال المسلمين بالعجز المادي فى حين كانت الدولة بأمسّ الحاجة للمال. لذا وافق عمر على رأى أبى بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ(٣).

وخلاصة القول إن المرتدين رفضوا الاذعان لسلطة الدولة، فكان بديهيا أن يمتنعوا عن دفع الزكاة لأنهم لا يعترفون ولا يخضعون لسلطة الدولة وقتذاك.

أما العوامل الاجتماعية فقد تمثلت فى عدم قبول العرب بمبادىء المساواة والاقلاع عن العادات التى تعودوا عليها فى جاهليتهم بسهولة، وهم وان كانوا قد قبلوا بها أيام الرسول صلى الله عليه وسلم تأثرا بشخصيته وتمشيا مع الظروف ، فانهم سرعان مارغبوا بالعودة إلى ما اعتادوا عليه بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وان تحججوا بالاتاوة وغيرها. و يذكر ابن الأثير محاورة عمرو بن العاص لقرة بن هبيرة من بنى عامر فيقول: «قال: قرة لعمرو ياهذا إن العرب لا تطيب

---

(١) ابن منظور : لسان العرب، ج ٣، ص ١٧٢ — ١٧٣، طبعة بيروت ١٩٥٥، كلمة ردة.
الزبيدي : تاج العروس، ج ٨، ص ٩٠، طبعة وزارة الارشاد الكويتية.

(٢) قال عمر بن الخطاب لأبى بكر : «كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: أمرت أن اقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، ومن قال لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله. وقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، وإن الزكاة حق المال، والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه. فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق».
البخاري : صحيح البخاري، ج ٢، ص ١٣٢، طبعة دار الشعب.

(٣) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٤٦، طبعة دار الفكر.

لكم نفسا بالاتاوة، فان أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع، وان أبيتم فلا تجتمع عليكم»(١).

هذا إذا علمنا أن فهم تعاليم الدين الجديد وما يتطلبه من تنفيذ لمبادئه كان ضعيفا لدى القبائل العربية، وبخاصة تلك التى كانت بعيدة عن المدينة كقبائل نجد وجنوب الجزيرة العربية، ووسائل اتصالها بالرسول صلى الله عليه وسلم صعبة وقليلة وذلك لصعوبة المواصلات بينها وبين المدينة، بالاضافة إلى أن الزمن لم يكن كافيا لاكتساب الاتباع بحيث لم يكن مستطاعاً بالفعل أن يدخل الإسلام الأغلبية الغالبة منهم، وحتى الذين أسلموا بقوا مسلمين اسميا فقط(٢)، ومصداق قوله تعالى: «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم»(٣).

ومن هذا تتبين لنا الأسباب الداخلية التى أدت إلى ردة بعض القبائل العربية والتى انحصرت ما بين مرتد وممتنع عن دفع الزكاة، لكن الموقف كان يتطلب الوقفة الحازمة ضدهم لئلا يتسرب الوهن والضعف لبقية المسلمين، ولا سيما أن بعض قبائل الطائف ومكة بدأت تتململ وتهم بالتحرك نحو الردة واعلان الرفض للدعوة الاسلامية، وهذا واضح من موقف عتاب بن أسيد، عامل مكة. وسهيل بن عمرو بن عبد شمس، وقول عثمان بن أبى العاص عامل ثقيف حينما قال لهم: «انكم آخر من أسلم فلا تكونوا آخر من ارتد»(٤). فكان لزاما على من يخلف الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقف موقف الحزم والجدية، و يعتبر كل خروج على سلطة الدولة وقانونها الديني ردة. فلا فرق بين ردة كاملة وبين ترك ركن من أركان الإسلام وهي الزكاة، وهذا ما فعله أبو بكر واعتبرهم جميعا

(١) ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٣٥٢، طبعة بيروت.
أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١١٤.
(٢) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٤٦ — ١٤٧.
فيليب حتى : تاريخ العرب المطوّل، ج ١، ص ١٩١.
(٣) القرآن الكريم : سورة الحجرات، آية رقم ١٤.
(٤) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٤٦ — ١٤٧، طبعة دار الفكر.
ابن حجر : الاصابة، ج ٢، ص ٤٥٢، ٤٦٠.
محمد حسين هيكل : الصديق أبو بكر، ص ٨٢ — ٨٣.

مرتدين يحق مقاتلتهم حتى ينصاعوا لأمر الله بلا قيد ولا شرط وإلا فالحرب والدمار(١).

ثالثا : العوامل الخارجية :

ولربما كان لدولتي الروم فى الشمال والفرس فى الشرق دور فى تأييد المرتدين، ولو أن المصادر لم تخبرنا صراحة بذلك، لكنها حاولتا، قبل الإسلام، السيطرة على أطراف شبه الجزيرة الجنوبية والشرقية. لذا، ربما وجدوا فى حركة الارتداد سببا فى اضعاف دولة المسلمين الجديدة وعدم رغبتهم فى توحيد الجزيرة تحت ظل الإسلام حتى لا تكون الدولة الجديدة ندّا جديدا لهما. ولا سيما أنهم كانوا يتصارعون لمدّ النفوذ إليها، ولربما كان الرسول صلى الله عليه وسلم مدركا لهذه الأخطار فوّجه همّه نحو الشمال فى أواخر حياته فكانت غزوة مؤتة سنة ٨ للهجرة وغزوة تبوك سنة ٩ للهجرة(٢).

بعد أن استعرضنا الردة وأسبابها الداخلية والخارجية، لابدّ لنا من البحث فى موقف ثقيف من هذه الأحداث. فهل شاركت ثقيف بها دفاعا عن الدين والإسلام أم كانت مشاركتها دفاعا عن الوثنية والباطل والارتداد؟.

لقد ذكرنا، سابقا، فى صفحة (١٨١) أن العرب ارتدت وتضرمت الأرض نارا وارتدت كل قبيلة عامة أو خاصة إلا قريشا وثقيفا.

من الثابت لدينا أن ثقيفا اعتنقت الإسلام متأخرة، سنة ٩ للهجرة، وبموجب معاهدة مكتوبة مع الرسول، ولم يدخل فى الإسلام منها إلا قلة قليلة آمنت به فى وقت مبكر وقبل موقعة حنين وحصار الطائف أمثال المغيرة بن شعبة وغيرهم(٣).

---

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٣٠.
ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج ٢، ص ٣٤٩.

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٣٤٢.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٤٢.

(٣) الواقدي : المغازي، ج ٢، ص ٥٩٥ — ٥٩٦.
نفس المصدر : ج ٣، ص ٩٦٧.

لكنها لم ترتد ولم تعرف الردة مطلقا كما أشارت المصادر، رغم احاطتها بالقبائل التى تحركت نحو الردة مثل هوازن وسليم وبنى عامر، ورغم أن الأسود العنسي المرتد فى اليمن قاربت ردته حدود مدينتها الطائف(١). ولم نجد سوى اشارة لابن حجر يذكر فيها بأن ثقيفا همّت بالارتداد، لكن عثمان بن أبى العاص الثقفي، وهو من بنى مالك الذى عيّنه الرسول صلى الله عليه وسلم عاملا عليها بعد اسلامها حذّرهم وذكرهم بأنهم آخر من أسلم فلا يكونوا أول من ارتد، قال ابن حجر: ان عثمان بن أبى العاص خاطب ثقيفا يوم همّت بالارتداد، قائلا: «كنتم آخر الناس اسلاما، فلا تكونوا أولهم ارتدادا»(٢). وطالبهم بالمحافظة على مكانتهم فى الدولة الجديدة والمحافظة على أواصر القربى والنسب بينهم وبين أهل مكة وذكرهم بموقف الرسول صلى الله عليه وسلم منهم ومسامحته وحسن معاملته لهم وعفوه عنهم، وبذلك تغيّرت أفكارهم، فتمسكوا بالاسلام ولم يرتدوا، والمصادر المختلفة قد أكدت أنهم لم يرتدوا أبدا. فقد ذكر الطبري: «لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفصل أسامة ارتدت العرب عوام وخواص، وتوحي مسيلمة وطليحة، فاستغلظ أمرهما، واجتمع على طليحة عوام طيّيء وأسد، وارتدت غطفان إلى ما كان من أشجع وخواص من الأفناء فبايعوه، وقدمت هوازن رجلا وأخرت رجلا، أمسكوا الصداقة إلا ما كان من ثقيف ولفها، فانهم اقتدى بهم عوام جديلة والاعجاز، وارتدت خواص من بنى سليم، وكذلك سائر الناس بكل مكان»(٣).

إن قيام أبى بكر بأمر الخلافة ونهوض أهل مكة إلى جانبه فى أمرها كان له الأثر فى ثقيف مثلما كان له فى مكة، فقد تشابهت المدينتان فى ظروف الحياة المختلفة(٤). بالاضافة إلى أن الثقفيين أدركوا تماما إن الالتزام بمبادىء الإسلام والثبات عليها سيمنحهم مستقبلا جيّدا فى مدينتهم حيث سينعمون بالأمن

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٣٠.
ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج ٢، ص ٣٤٩.

(٢) ابن حجر : الاصابة، ج ٢، ص ٤٦٠.
محمد حسين هيكل : الصديق أبو بكر، ص ٨٣، طبعة مصر، ١٩٥٨.

(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٤٢، طبعة دار المعارف.

(٤) انظر ص ٥٠ من هذا البحث وما بعدها.

والأطمئنان وعدم الدخول ثانية فى حروب خسروها من قبل ويمنحهم السلطان والمجد وهم التجار الأذكياء(١). لقد برهنت قبيلة ثقيف من خلال اسلامها أنها لا تقدم على عمل حتّى تتأكد منه وتضمن فيه مصلحتها، ولهذا اتصفت القبيلة بقوة الرأى وحسن تقدير الأمور فصار يضرب به المثل. يذكر ابن سعد أنه قيل فى حق ثقيف: «لا رأي إلا لثقيف ثبتوا أولا فى رأيهم ،فلما تحققوا من الإسلام ودخلوا فيه ثبتوا عليه»(٢). وقال فيهم كذلك: «لا أعلم قوما من العرب بنى أب ولا قبيلة كانوا أصلح اسلاما منهم»(٣).

من الثابت أن ثقيفا أسلمت ولم ترتد عن الاسلام، لا بل ساهمت واشتركت فى حروب الردة بجانب المسلمين، وساهمت بالقضاء على هذه الحركة على مستوى الأفراد وعلى مستوى القبيلة ككل، وأصبحت مدينتها قاعدة تمد جيش المسلمين بما تؤمر به للمساهمة فى هذه الحروب وما يحتاجون إليه من مال وسلاح ورجال، وهذا ما كان يدركه الرسول صلى الله عليه وسلم فيها تماما قبل اسلامها عندما قال: «اللهم اهد ثقيفا وآت بهم»(٤).

ومن أمثلة المساهمة الثقفية فى حروب الردة ما كتبه عثمان بن أبى العاص، عامل الطائف آنذاك، إلى الخليفة أبى بكر يعلمه بثبات قومه على الإسلام وركوب من ارتد فى أهل عمله، فأمره الخليفة بمقاتلتهم بمن ثبت على الاسلام من قوم وسكّان الطائف،فبعث عثمان بن أبىالعاص بعثا إلى شنوءة،وقد تجمعت فيها جموع المرتدين من الأزد وبجيلة وخثعم يقودهم حميضة بن النعمان، وعلى أهل الطائف عثمان بن ربيعة الثقفي، والتقى الجمعان هناك، وبعد قتال هزمت جموع المرتدين وتفرقت عن حميضة بعد أن هرب من المعركة(٥). فقال عثمان بن ربيعة فى ذلك شعرا.

(١) لا مانسن : مدينة الطائف، ص ٣ وما بعدها. الطبعة الفرنسية.

(٢) ابن سعد : الطبقات، المجلد الثاني، ص ٥٣، طبعة دار التحرير القاهرية.

(٣) ابن سعد : الطبقات، المجلد الثاني، ص ٥٣، طبعة دار التحرير القاهرية.

(٤) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٣٧.

(٥) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣١٩، ٣٢٠.
ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٣٧٤ — ٣٧٥

فضضنا جمعهم والنقع كاب وقد تعدّى على الغدر الفتوق
وأبرق بارق لما التقينا فعادت خلبا تلك البروق(١)

ولقد ساهمت ثقيف مساهمة جماعية على مستوى القبيلة ضد ردة اليمن الثانية فاشتركت فى جيش المهاجر بن أبى أمية والذى خرج من المدينة بتكليف من الخليفة لمحاربة ردة خثعم فى اليمن فمرّ بمكة والطائف ولديه كتاب من الخليفة أبى بكر إلى عامل الطائف عثمان بن أبى العاص يأمره بامداد جيش المهاجر برجال الطائف ومخاليفها وحسب المقدرة والظروف، وقد فرض عثمان على كل مخلاف عشرين رجلا بقيادة أخيه عبد الرحمن بن أبى العاص لجدارته وثقته به، وبانضمام رجال الطائف ومكة ونجران وبقية القبائل الأخرى استطاع هذا التجمع الإسلامي هزيمة المرتدين وقضى عليهم وعلى فتنتهم(٢).

أما فى ردة حضرموت وكندة، فقد ساهمت ثقيف بقائدها المغيرة بن شعبة والذى بعثه الخليفة أبو بكر وأمره بمساعدة المهاجر بن أمية بالقضاء على المرتدين هناك وقتلهم جميعا إن لم ينصاعوا لأمر الله، وكان المهاجر قد شدّد الحصار على المرتدين من جماعة الأشعث بن قيس فى حصن النيجر حتى استسلموا وأخذوا مع الأشعث أسرى إلى الخليفة، وساعتها هزمت كندة وردتها(٣).

وفى ردة البحرين، استشهد من الثقفيين حبيب بن أسيد بن جارية الثقفي، فى اليمامة(٤). وكذلك أخوه حيي بن جارية الثقفي وأبو صفية المهاجر وغيرهم(٥).

ومن الذين ساهموا من ثقيف ضد المرتدين مالك بن عمرو الثقفي الذى بعثه الخليفة أبو بكر الصديق — رضي الله عنه — إلى مسيلمة الكذاب لنصحه

---

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٢٠.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٢٩ — ٣٣٠.
ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٣٧٥ — ٣٧٧.

(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٣٧.

(٤) ابن حجر : الاصابة، ج ١، ص ٣٠٤.

(٥) ابن دريد : الاشتقاق، ص ٣٠٢، طبعة القاهرة، ١٩٥٨.

وإمكانية اقناعه بالعدول عن الردة، فخطب فى مسيلمة وجماعته خطبة بليغة دعاهم فيها إلى الرجوع إلى الله ونبذ الشرك والوثنية والردة، مما أغضب مسيلمة غضبا شديدا، فهمّ بقتله فهرب ولم يتمكن منه(١).

خلاصة ما تقدم أن قبيلة ثقيف أسلمت متأخرة، لكنها لم ترتد مطلقا. لا بل ساهمت مساهمة فعلية على مستوى الأفراد والقبيلة فى دعم وتثبيت دعائم الدولة الاسلامية والاشتراك بالقضاء على المناوئين والمرتدين، وساهمت فى وقت كان الإسلام فى محنة وبأشد الحاجة لمساهمتها، حيث كانت الأخطار تتهدده فى وقت أصبح مقصورا على مكة والمدينة والطائف وبنى عبد القيس(٢). هذا الموقف لثقيف قد برهن للعرب على حسن ظن الرسول بها وان ما منحها من امتيازات فى معاهدة الصلح معها كان حقا تستحقه، وتبين مدى بعد نظر الرسول فيها ومكانتها لديه، وبذلك أزالت حسد المسلمين لها، وشكوكهم التى كانت تساورهم فيها، وبهذه الوقفة أتاحت لرجالها الفرصة وفتحت لهم الطريق للوصول إلى المراكز الحساسة فى الدولة، مما جعلهم يلعبون دورا بارزا فيها، سواء فى عهد الراشدين أوفى عهد الدولة الأموية. وهذا ماسنراه فى فصول قادمة.

(١) ابن حجر : الاصابة، ج ٣، ص ٣٥٠.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٠١.
حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام، ج ١، ص ٣٤٥.

دور الثقفيين من أهـل الطـائف فى حركة الفتوح الإسلامية وادارة الأمصار

ساهمت ثقيف – كما بيّنا سابقا – فى القضاء على حركة الردة، بجانب من أدى دوره فى هذه المحنة الصعبة التى واجهت الدعوة الإسلامية ودولتها الفتية. وبانـدحار المرتـدين وانتصار المسلمين عليهم أصبحت الجماعة الإسلامية أشدّ مما كانـت عـليـه قوة وإيمانا، مما جعلهم يحملون أرواحهم على أكفهم لاعلاء كلمة الحق والجهاد المقدّس فى سبيل العقيدة الإسلامية، والعمل على مواصلة الجهاد وتبـليـغ الـدعـوة إلى الأمـاكن التى لم تصلها داخل شبه جزيرة العرب والتطلع لـنشرها خارج جزيرتهم اتماما للوعد الذى قطعوه على أنفسهم أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ولقد وقف بجانب الدعوة ونشرها الرجال الذين آمنوا بها وثبتوا فى ايمانهم، ومن هؤلاء رجال ثقيف المعرفون بشجاعتهم وطموحهم، أمثال المغيرة بن شعـبة وعـثـمـان بن أبى العاص وأبى عبيد بن مسعود الثقفي وغيرهم(١). الذين ساهـموا فيما بـعـد بحـركـة الـفـتوح الإسلامية الكبرى مساهمة فعالة أدت إلى نشر الإسلام فى أمـاكـن مختـلـفـة خـارج شـبـه الجزيرة، وكذلك مساهمتهم فى إدارة الأمصار الإسلامية أيضا.

لم تـكـن فكرة الفتوح الإسلامية ونشر الدعوة خارج شبه الجزيرة العربية من بنـات أفـكـار شـخـص أو خـليفة معيّن، بل كانت بداية بدأ بها صاحب الدعوة ورجـلـهـا الأول الـرسـول صلى الله عـلـيـه وسـلم حيث بدأها منذ السنة السادسة للهـجـرة بـارسـال الكتب إلى الملوك والأمراء فكتب إلى هرقل، أمبراطور الروم، وإلـى كسرى فارس، وإلى النجاشي أمبراطور الحبشة، والمقوقس عامل هرقل على مصر، وإلـى المنذر بن ساوى أخى عبد القيس صاحب البحرين(٢). يدعوهم إلى الـتـوحـيـد والايمـان، ثم محاربته للرومان وحلفائهم من الغساسنة على حدود بلاد

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٤٤٤.
اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٤٢

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٢١٠ وما بعدها.

الشام لما سخروا من دعوته واعتدوا على رسله وقتلوا أصحابه منهم الحارث بن عمير الأزدي الذى ضرب الغساسنة عنقه(١)، وقتل فى مؤتة زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة(٢). وقد جهز الرسول، قبل وفاته، حملة لتأمين حدود الدولة الإسلامية الشمالية عقد لواءها لأسامة بن زيد بن حارثة، وكان أسامة حين استشهد أبوه فى مؤتة فى الخامسة عشرة من عمره. ولما بلغ الثامنة عشرة عقد له الحملة تكريما لذكرى أبيه ولأخذ ثأر المسلمين الذين قتلوا وتأديب الروم وحلفائهم الذين سخروا بالدعوة الاسلامية، وإمكانية نشر هذه الدعوة هناك(٣).

ان كتب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء وارساله الرسل إلى البلاد المختلفة وعقد حملة أسامة تعتبر دلالة صريحة على ما تردد ذكره فى القرآن من مطالبة الناس جميعا بقبول الإسلام، فقد قال تعالى فى سورة سبأ: «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون»(٤).

فالثابت أن الفتوح قد بدأت فكرتها منذ عهد الرسول وهو الذى بدأها استجابة لنداء الله بنشر الدعوة إلى العالمين، وقد أدت هذه الفكرة إلى استمرار روح الجهاد فى الجماعة الإسلامية من بعده، وقد كانت الحروب درسا بليغا وتدريبا علميا منظما للجند الإسلامي الذى لم يتعود على مثلها فى السابق، هذه الحروب التى كانت بداية لدخول الد ولة الإسلامية فى الصراع مع اعدائها، ومن هذه الحروب القتال الذى دار فى مؤتة واستشهد فيه بعض الصحابة، إلى أن تمكن خالد ببراعة عسكرية من سحب الجيش وتخليصه من خسارة متوقعة، ولقد كانت مؤتة تدريبا عمليا لهم واثباتا لقوة عقيدتهم فقد عبّأوا الجيش وقسّموه إلى

---

(١) ابن حجر : الاصابة، ج ١، ص ٢٨٦.

(٢) اليعقوبي : تاريخ، ص ٦٥.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٩.

(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ١٨٤ وما بعدها.
ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٣١٧.

(٤) القرآن الكريم : سورة سبأ، آية رقم ٢٧. وكذلك انظر سورة ص، آية رقم ٨٦ — ٨٧. وسورة يس آية رقم ٦٨ — ٦٩.

ميمنة وميسرة وشنوا هجوما صاعقا بسيفه حتى قتل(١). وان كانت نتيجة هذه الموقعة فى غير صالح المسلمين لكنها كانت بداية لصراع طويل مع الروم وقهرهم فى النهاية وتحقيق هدف المسلمين بنشر لواء الاسلام فى بلاد الشام.

وقبل التطرق إلى دور الثقفيين فى هذه الفتوح، لابدّ لنا من استعراض أهم دوافع هذه الفتوح.

دوافع الفتوح العربية الإسلامية :

إن حركة الفتوح الإسلامية كانت ظاهرة تاريخية كغيرها من الحركات التى شهدتها الشعوب قديما وحديثا بعد توحدها أو نهضتها وإصلاح أمرها(٢). وقد اختلف المؤرخون أو الباحثون وخاصة المستشرقين منهم فى تحديد بواعث هذه الحركة فالبعض ردّها إلى عوامل اقتصادية تمثّلت فى رغبة العرب بالتمتع بخيرات البلدان المجاورة التى كانوا يعرفونها بسبب تجارتهم معها كبلاد الشام والعراق(٣). والبعض الآخر يرى أنها كانت حلا لمشكلات العرب الداخلية الاقتصادية والسياسية والتى تمثلت فى توجيه طاقة العرب المطبوعين على حبّ القتال بعد حروب الرّدة والقضاء على المرتدين وما نشأ عنها من قوة عسكرية وقتل أعداد كبيرة من المرتدين، فلو بقي العرب فى داخل شبه الجزيرة العربية لأفنوا بعضهم بعضا، وخاصة أن البدو منهم لم تعرف حياتهم الاستقرار. لذا كان يخشى الخليفة من هذا الأمر فاتجه نحو استغلال هذه القوة لصالح الدعوة الاسلامية، فكانت الفتوح فى الخارج توحيدا وتماسكا للعرب فى الداخل(٤).

أما فيما يخص الرأى الأول الذى يعلل حركة الفتوح بدوافع اقتصادية و يزعم

---

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٩ — ٤٠.

(٢) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٦١.

(٣) نفس المصدر، ص ١٦٨، نقلا عن برنارد — العرب فى التاريخ، ص ٧٥.
أرنولد : الدعوة إلى الاسلام، ص ٤٦ — ٤٧.
نرومان بنز : الامبراطورية البيزنطية، ص ٥٥.

(٤) جلوب : الفتوحات العربية الكبرى، ص ١٩٢، تعريب خيرى حمّاد.
فلهوزن : الدولة العربية، ص ٢٣.

أنهم ما قاموا بهذه الفتوح إلا طمعا فى خيرات البلاد المجاورة فرأى خاطيء لا يؤيده أي دليل، لأن الحقيقة أن العرب اندفعوا فى هذه الفتوح بدافع الايمان بالدين الاسلامي والجهاد فى سبيله وشعورهم بأن عليهم مواصلة هذا الجهاد حتى يصير الدين كله لله. وهذا واضح فى قول الخليفة عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ : «إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك... سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها، فانه قال: (ليظهره على الدين كله)، والله مظهر دينه، ومعزّ ناصره، ومول أهله مواريث الأمم». والآية الكريمة تقول: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة و يكون الدين كله لله، فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير»(١).وفى كل المعارك التى خاضوها والحملات التى قادوها نجد أن الدافع الديني هو الأول بدليل أنهم كانوا يعرضون على كل بلد يريدون فتحه الإسلام، فاذا قبلوه كانوا أخوة للمسلمين، ومن ثم فلا كسب مالياً يرجى فى هذه الحالة. أما إذا رفضوا الإسلام قرّرت عليهم الجزية لكي تكون حافزا لهم على أن يتخلوا عن عقائدهم القديمة و يدخلوا فى دين أولئك العرب الفاتحين، لأن الجزية فى الحقيقة لم تكن مجرد مال يدفع، بل كانت اشعارا لغير المسلم بأنه أقل من الناحية المعنوية والروحية من المسلم، ومن صالحه لذلك أن يرتفع لنفسه من ذل الجزية إلى حرّية الإسلام. فقد قال خالد بن الوليد فى أهل الحيرة أثناء الفتح: «انى أدعوكم إلى الله وإلى عبادته وإلى الإسلام، فان قبلتم فلكم مالنا وعليكم ماعلينا، وإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم فقد جئناكم بقوم يحبّون الموت كما تحبون أنتم شرب الخمر». فقالوا: لا حاجة لنا فى حربك، فصالحهم على تسعين ومائة ألف درهم، فكانت أول جزية حملت إلى المدينة من العراق»(٢).

إن المؤرخين، وخاصة المستشرقين منهم، لم يكن رأيهم إلا استنتاجاً أقاموه على حالة تمّت، ونظروا إليها من خلال ما مضى من تاريخ شبه الجزيرة العربية، ومن خلال ما استقرت عليه الأوضاع بعد الفتوح ، فالجزيرة كانت مركزا

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٤٤٥.
القرآن الكريم : سورة الأنفال ــ آية رقم ٣٩.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٤٥.

لهجرات كثيرة تمّت من قبل القبائل نتيجة الاضطرابات الداخلية السياسية منها والاقتصادية، مثلما حدث من هجرات القبائل العربية فى الجنوب والتى لم تكن تدفقا قبليا وغزوا وانما كانت حركات اضطرارية بطيئة استقرت على مشارف البادية(١).

أما الرأى الثاني والذى يرى أنها كانت حلا لمشكلات العرب الداخلية، الاقتصادية والسياسية فهذا يتناقض تماماً والسياسة التى اتبعها الخليفة أبو بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ تجاه المرتدين، إذ حظر على القبائل التى تمردّت المشاركة فى حركة الفتوح، ولم يرفع عنها الحظر إلا أيام الخليفة عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ فقد ذكر الطبري أن أبا بكر قال لخالد بن الوليد: «...أن استنفر من قاتل أهل الردة، ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولا يغزون معكم أحد ارتد حتى أرى رأيي. فلم يشهد الأيام مرتد»(٢). ثم ذكر الطبري فى مكان آخر فى كتابه: «فكان أول شىء أحدثه عمر فى خلافته مع بيعته بعث أبا عبيد، ثم بعث أهل نجران، ثم ندب أهل الردة، فأقبلوا سراعا من كل أوب، فرمى بهم الشام والعراق»(٣).

إن الدوافع الحقيقية لحركة الفتوح العربية الاسلامية كانت الرغبة فى نشر الإسلام، تنفيذا لأوامر الله الذى دعا المسلمين لنشر دينه بين الناس كافة، وهذا مابيّناه فى أول الموضوع.

ثم الرغبة فى استكمال وضع الدولة العربية الطبيعي، فبعد أن أتمت الدولة وحدتها فى الداخل، كان لابد لها أن تستكمل هذه الوحدة بضم كل العنصر العربي المقيم على تخوم شبه الجزيرة، خاصة أن القبائل العربية فى العراق والشام كانت وثيقة الصلة بأحداث شبه الجزيرة العربية(٤)، ولها الرغبة الأكيدة فى تحرير بلادها الواقعة تحت السيطرة والنفوذ الأجنبيين كالنفوذ الفارسي

(١) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٦٤.
(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٤٧.
(٣) المصدر والجزء ذاتها، ص ٤٤٨.
أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٦٨.
(٤) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٦٦.

والروماني، ودليل ذلك حركة المثنى بن حارثة الشيباني ضد الفرس وطلبه النجدة من الخليفة أبى بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فقد ذكر الطبري أن المثنى قال: «أمرني على من قبلي من قومى، أقاتل من يليني من أهل فارس، وأكفيك ناحيتى، ففعل ذلك، فأقبل فجمع قومه وأخذ يغير بناحية كسكر مرة، وفى أسفل الفرات مرة»(١). هذه الحركة العربية تمتد جذورها إلى أبعد من ذلك إلى موقعة ذى قار وانتصار العرب على الفرس، أملا فى التخلص من السيطرة الأجنبية على بلادهم، فقد ذكر اليعقوبي بأن كسرى الفرس وجّه إلى هانىء بن مسعود الشيباني جيشا عندما رفض تسليمه ابنة النعمان وماله وسلاحه الذى كان قد أودعه النعمان بن المنذر عنده قبل توجهه إلى كسرى... فذكر «أن اجتمعت ربيعة، وكانت وقعة ذى قار، فهزمت العرب العجم، وكان أول يوم ظفرت به العرب بالعجم. ويروى عن رسول الله أنه قال: هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وبى نصروا»(٢). وقد وقعت فى السنة الثانية للهجرة بعد وقعة بدر بأربعة أشهر أو خمسة(٣).

ومما سبق، يتّضح لنا أن الفتوح الإسلامية كانت حركة تحرير وتوحيد للقبائل العربية فى العراق والشام، فالدافع كان قوميا وسياسيا، بجانب الدافع الديني الأقوى(٤).

ولهذا كان تجهيز الجيوش وارسالها خارج الجزيرة فى أيام أبى بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ استمرارا للسياسة التى رسمها الرسول صلى الله عليه وسلم منذ العام السادس للهجرة والتى تمثّلت فى ارسال الكتب إلى الأمراء والملوك وغزوتي مؤتة وتبوك وتجهيز جيش أسامة كما بيّنا سابقا أيضا.

وهكذا نجد أن حركة الفتوح كانت فى أعقاب حركة الردة أو فى نهايتها، فقد بدأت حركة المرتدين ولم تكن قد انتهت، حيث أمر خالد بن الوليد بالتوجه

---

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٤٤.

(٢) اليعقوبي : تاريخ، ج ١، ص ٢١٥.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٦.

(٤) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٧٤.

إلى العراق وهو لا زال باليمامة(١). ثم كتب أبو بكر إلى عمّاله فى مكة والطائف واليمن وعرب نجد والحجاز يستحثهم على الجهاد والمساهمة فيه، و يعدهم بما للجهاد من أجر وثواب و يرغبهم بالغنائم والمكاسب الرومية والفارسية. فقد ذكر البلاذرى: «لما فرغ أبو بكر رضي الله عنه من أمر أهل الردة، رأى توجيه الجيوش إلى الشام، فكتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد و يرغبهم فيه وفى غنائم الروم، فسارع الناس إليه بين محتسب وطامع، وأتوا المدينة من كل أوب»(٢).

و بذلك سيرت الجيوش إلى العراق والشام ولم تشهد بدايتها أية مساهمة من المرتدين إلا بعد وفاة أبى بكر ومجيء الخليفة عمر بن الخطاب، واستمرت جيوش الإسلام تقاتل وتفتح وتنشر الإسلام فى خلافتي عمر وعثمان رضي الله عنهما، ولم تتوقف إلا فى خلافة علي بن أبى طالب، كرّم الله وجهه، بسبب ما رافق عهده من اضطرابات وفتن داخلية، خاصة النزاع بينه و بين معاو ية بن أبى سفيان.

دور الثقفيين فى الفتوح الإسلامية :

اشترك الثقفيون فى حركة الفتوح الاسلا مية وساهموا مساهمة فعّالة فيها، قبيلة وأفرادا، بجانب اخوانهم المسلمين. فى فتوح الشام سنة ثلاث عشرة(٣)، اشتركوا مع أهل المدينة ومكة و بقية المناطق الأخرى فى شبه جز يرة العرب، وساهموا مع جيوش أبى عبيدة وعمرو بن العاص(٤). ففى معركة اليرموك اشترك المغيرة بن شعبة فيها وقد أصيبت عينه فى المعركة(٥). واستخدم عبد الله بن مسعود بن معتب الثقفي على قيادة أحد الكراديس الحربية التى اشتركت فى المعركة، وأغلب

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٤٣.
(٢) البلاذري : فتوح البلدان، ج ١، ص ١٢٨.
(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٨٧.
ابن الأثير : الكامل ج ٢، ص ٤٠٢.
(٤) الواقدي : فتوح الشام، ص ٨، ١٠، ٢٤.
(٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٨٤ — ٢٨٦. =

جنوده كانوا من أفراد قبيلته(١). ويذكر الطبري وابن الأثير أن عبد الله بن مسعود الثقفي كان على الأقباض، أى على ما جمع من الغنائم(٢). واستشهد نافع بن غيلان بن سلمة الثقفي فى دومة الجندل مع من شهدها من ثقيف وكان وبمن معه من ضمن جيش خالد بن الوليد وقد بكاه أبوه غيلان كثيرا وجزع عليه(٣). وتوفي عامر بن غيلان الثقفي فى طاعون عمواس وكان هو وأخوه عمّار قد التحقا بجيش خالد المتجه إلى الشام، وكان عمر فارس ثقيف يومئذ، وقد رثاه أبوه غيلان فى موته(٤).

وفى فتوح العراق، اشتركت ثقيف أفرادا وجماعات، مع جند الاسلام الذى حارب على هذه الجبهة الهامة، منهم أبو عبيد بن مسعود الثقفي، وهو أول من انتدب للحرب من قبل الخليفة عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ بعد أن دعا عمر لهذه الحرب فى اليوم الرابع من خلافته سنة ١٣ للهجرة، ثم تتابع الناس معه حتى اجتمع ألف رجل من المدينة وما حولها، أكثرهم من ثقيف، وقد خرج أبو عبيد مع أهله فى هذا الجمع من المسلمين، وقد هزم جيش الفرس فى صحراء (ملس) التابعة لكسكر، وغنم كثيرا من الغنائم واستولى على خزائن (نرسي) وهو ابن خالة كسرى وأخذ من أهلها الجزية(٥). ثم هزم الجالينوس فى بباقسياثا من أعمال باروسما واستولى على تلك البلاد ثم ارتحل حتى قدم الحيرة(٦).

= ابن حجر : الاصابة، ج ٣، ص ٤٥٢ — ٤٥٣.
الأصفهاني : الأغاني، ج ١٦، ص ٧٩.

(١) ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٧، ص ٨.

(٢) الطبرى : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٩٧.
ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٤١٢.

(٣) ابن حجر : الاصابة، ج، ٣، ص ٥٤٦.

(٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٩٠.
ابن حجر : الاصابة، ج ٢، ص ٢٥٥.

(٥) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٤٥٠ وما بعدها.
ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٤٣٦.
أحمد كمال عادل : الطريق إلى المدائن، ص ٣٧٩، ٣٩٠ — ٣٩٢.

(٦) ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٤٣٧.
أحمد كمال عادل : الطريق إلى المدائن، ص ٣٩٥ ــ ٣٩٧.

وبانتصارات أبى عبيد على الفرس غضب رستم، قائد الجيش، فجّهز جيشا كبيرا أشرك فيه بهمن جاذويه والجالينوس نفسه فكانت معركة الجسر التى قتل فيها أبو عبيد بعد أن داسه الفيل وبرك عليه، ثم قتلت الفيلة سبعة من المحاربين الأشداء وكلهم من ثقيف وهم القادة الذين أوصى بهم أبو عبيد قبيل وفاته حتى أخذ الراية المثنى بن حارثة وانسحب بالناس(١). وفى غمرة هذه الأحداث قطع عبد الله بن مرثد الثقفي الجسر على المسلمين، قائلا: أيها الناس، موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا(٢). لقد كان لقطع الجسر أثر فى موت الكثير من المسلمين غرقا فى نهر الفرات. ومن الذين أبلوا فى المعركة واتصف بالشجاعة والاقدام أبو محجن الثقفي الذى هاجم الفيلة وضرب أحدها وقطع رجله، وكان رجلا لا يهاب الموت فى سبيل الله والعقيدة(٣). أما من قتل فى معركة الجسر من ثقيف فهم: أبو عبيد بن مسعود الثقفي وحبيب بن ربيعة بن عمر الثقفي والحكم بن مسعود أخو أبى عبيد الثقفي وابنه جبر بن الحكم بن مسعود الثقفي وأوس بن أوس بن عتيك الثقفي وأخوه ثابت بن عتيك الثقفي، لقد قاتل هؤلاء قتالا كبيرا، اخلاصا لله والدين، ولم يكن هؤلاء فقط، بل استمات الثقفيون فى المعركة واستشهد منهم عدد كبير بلغ الثلثمائة مقاتل فى المعركة(٤). وكانت وقعة الجسر يوم السبت فى آخر شهر رمضان سنة ثلاث عشرة(٥).

لقد صعب على ثقيف مقتل قائدها وفارسها أبى عبيد تحت أرجل الفيلة الفارسية فحنقت على الفرس وحقدت عليهم، تريد الانتقام منهم فى فرصة سانحة. لذا ساهمت واشتركت فى فتوح البصرة مع عتبة بن غزوان فى سنة أربع عشرة فشهدت فتح الأبلة بعد شهر من وصولهم إلى البصرة برجالها: أبى بكرة

(١) ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٤٣٨ — ٤٣٩.

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٤٣٩.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٤٥٤ — ٤٥٧.

(٣) البلاذري : فتوح البلدان، ج ٣، ص ٣٠٨ — ٣٠٩.

(٤) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٤٥٤ وما بعدها.
ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٤٣٩ — ٤٤٠.
ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٧، ص ٢٨، ٥٠.
ابن حجر : الاصابة، ج ١، ص ٢٢١.

(٥) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٣٠٩.

الثقفي الذى قتل ستة رجال من الكفار ونافع بن الحارث الذى قتل تسعة والمغيرة بن شعبة وربيعة بن كلدة ابن أبى الصلت الثقفي، وبعد الفتح بعث نافع بن الحارث إلى الخليفة يعلمه بالفتح و يبشّره بالانتصار، وهذا يدل على ما لنافع من أهمية ومركز فى جيش عتبة بن غزوان وقتذاك. أما غنائم الأبلة فبلغت ستمائة درهم، وقد تولى زياد بن أبيه الثقفي، وهو يومها ابن أربع عشرة سنة تقسيمها لأنه كان يعرف القراءة والحساب، لقاء درهمين عن كل يوم يعمل فيه، وكان فتح الابلة فى رجب أو شعبان من سنة أربع عشرة للهجرة. وقد ولي عتبة بن غزوان امارة البصرة سنة خمس عشرة ومدة امارته كانت ستة أشهر وهو أول أمير تولى هذا المنصب فيها(١).

لقد ساهم المغيرة مع عتبة بن غزوان فى فتح ميسان ودستميسان وابرقباذ والأهواز ومنطقة نهر تيرى ومناذر(٢). وقد استعمل الخليفة عمر بن الخطاب المغيرة بن شعبة على البصرة بعد وفاة عتبة بن غزوان سنة خمس عشرة وبقي فيها سنتين ثم استبدل بأبى موسى الأشعري سنة سبع عشرة(٣). واستعمله سعد بن أبى وقاص مفاوضا بينه وبين الفرس قبل المعركة القادسية لقوة شخصيته وقدرته على المناقشة وجرأته واقدامه حتى وقوع الحرب، وقد كان فعلا أهلا لهذه المهمة، فقد ذكر الطبري هذه المحاورة، ونحن هنا نقتطف جزءا منها:

قال رستم: «إنكم معشر العرب كنتم أهل شقاء وجهد، وكنتم تأتوننا من بين تاجر وأجير ووافد، فأكلتم من طعامنا، وشربتم من شرابنا، واستظللتم من ظلالنا، فذهبتم فدعوتم أصحابكم، ثم أتيتمونا بهم، وانما مثلكم مثل رجل كان له حائط من عنب فرأى فيه ثعلبا واحدا، فقال: ماثعلب واحد؟. فانطلق الثعلب فدعى الثعالب إلى الحائط فلما اجتمعن فيه جاء الرجل فسد الجحر الذى دخلن

---

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٥٩٠ وما بعدها.
ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٤٨٥ وما بعدها.
ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٠.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٥٩٥ — ٥٩٦.
المصدر ذاته، ج ٤، ص ٧٢ — ٧٤.

(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٥٩٧.

منه، ثم قتلهن جميعا وقد أعلم أن الذى حملكم على هذا معشر العرب الجهد الذى أصابكم، فارجعوا عنّا عامكم هذا، فانكم قد شغلتمونا عن عمارة بلادنا، وعن عدوّنا، ونحن نوفر لكم ركائبكم قمحا وتمرا، ونأمر لكم بكسوة، فارجعوا عنا عافاكم الله..»

فقال المغيرة بن شعبة: «لا تذكر لنا جهدا إلا وقد كنا فى مثله أو أشدّ منه، أفضلنا فى أنفسنا عيشا الذى يقتل ابن عمه، و يأخذ ماله فيأكله، نأكل الميتة والدم والعظام، فلم نزل كذلك حتى بعث الله فينا نبيا، وأنزل عليه الكتاب، فدعانا إلى الله وإلى مابعثه به، فصدّقه منا مصدّق، وكذّبه منّا آخر، فقاتل من صدّقه من كذبه حتى دخلنا فى دينه، من بين موقن به، وبين مقهور، حتى استبان لنا أنه صادق، وانه رسول من عند الله. فأمرنا أن نقاتل من خالفنا، وأخبرنا أن من قتل منا على دينه فله الجنة، ومن عاش ملك وظهر على من خالفه، فنحن ندعوك إلى أن تؤمن بالله ورسوله، وتدخل فى ديننا، فان فعلت كانت لك بلادك، لا يدخل عليك فيها إلا من أحببت وعليك الزكاة والخمس، وان أبيت ذلك فالجزية، وان أبيت ذلك قاتلناك حتى يحكم الله بيننا و بينك»(١).

إن هذا الحوار بين المغيرة ورستم يبيّن لنا مدى تفانى العرب فى سبيل نشر الإسلام والتضحية فى سبيل العقيدة ودفاعهم عنها فى أشد المواقف حرجا، وهذا يفّسر لنا قوّة الايمان بدينهم والثقة العالية بنصرهم. كما ساهم فى فتوح المشرق مع النعمان بن المقرن، فاشترك فى معركة نهاوند سنة ٢٠ للهجرة، وفى فتح اذربيجان سنة ٢٠ للهجرة، واشترك أيضا فى فتح همدان سنة ٢٣ للهجرة(٢). وقد شاركت المرأة الثقفية المسلمين فى الحرب بجانب الرجل فقد أوهمت أردة بنت الحارث بن كلدة الثقفي ونساء أخريات من ثقيف اتخذن من خمارهن رايات فأوهمن العدو بأن جيشا كبيرا ومددا طويلا للمسلمين مقبل عليهم، و بذلك خارت عزائمهم وانكشفوا ودبت الهزيمة فى صفوفهم وتبعهم المسلمون فقتلوا منهم

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٥٧٤.

(٢) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٣٧١، ٣٨٠، ٤٠٠.

خلقا كثيرا وانتصروا عليهم وكان ذلك فى قتال أهل ميسان(١). ويذكر البلاذري بأن أسمها أزدة بنت الحارث بن كلدة وهي زوجة عتبة بن غزوان، وقد كانت تقوم بتحريض المسلمين على القتال وهي تقول «إن يهزموكم تولجوا فينا الغلف»(٢). وفى خلافة الخليفة عثمان بن عفان ولي المغيرة قيادة جيش المسلمين لمقاتلة ملك الخزر بدلا من عثمان بن حذيفة الذى نحّي عن مهمته(٣).

ولم تقتصر مشاركة أبى محجن الثقفي على حرب الجسر فقط، بل شارك مشاركة فعالة فى حرب القادسية، وكان يومها مسجونا فى قصر سعد لشربه الخمر، فلما التحم الجمعان ورأى أبو محجن ذلك وهو ينظر من قصر العذيب الذى كان مسجونا فيه قال:

كفى حزنا ان تروى الخيل بالقنا	وأترك مشدودا على وثاقيا
اذا قمت عناني الحديد وأغلقت	مصاريع دونى لاتجيب المناديا
وقد كنت ذا مال كثير واخوة	فقد تركونى واحدا لا أخاليا

وبذلك تاقت نفسه للحرب وروحه للتضحية والفداء وعزّ عليه أن لا يشارك المسلمين حربهم ضدّ الأعداء، فكلم زبراء التى كان مسجونا عندها وهي أم ولد سعد بن أبى وقاص وطلب منها اطلاق سراحه ووعدها بعهد الله وميثاقه أن يعود إلى سجنه بعد الحرب، فأطلقت سراحه وأعطته فرس سعد، فشدّ على الأعداء وسعد ينظر لا يدرى من هو المحارب. وبعد القتال وهزيمة جموع الفرس عاد أبو محجن إلى سجنه وعندما علم سعد به وباخلاصه وتضحيته وشجاعته أطلق سراحه من السجن(٤).

أما فى فتوح مصر، فقد اشترك الثقفيون فى جيش عمرو بن العاص وكان

---

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٥٩٦.

(٢) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤٢١.

(٣) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٦٨.

(٤) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٥٧٥.

ذلك سنة ٢٠ للهجرة(١). وشاركوا فيها مشاركة فعالة، منهم حبيب بن أوس الثقفي الذى اختط داراً لثقيف ضمن خطط القبائل الأخرى، فقد كانت خطة أهل الراية من قريش والأنصار وثقيف وغيرها من القبائل، وسميت دار ثقيف بدار أبى عرابة، وكان حبيب بن أوس، سيد ثقيف فى جيش عمرو بن العاص، وعليه نزل يوسف بن الحكم ومعه ابنه الحجاج أثناء قدومهما مع مروان بن الحكم إلى مصر. وكانت دار بنى ثقيف هناك فى منطقة يقال لها منطقة السراجين فى ركن المسجد الشرقي(٢).

أما عثمان بن أبى العاص الثقفي، عامل الطائف، فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والذى أضيفت إليه ولاية البحرين وعمان فى عهد الخليفة عمر — رضي الله عنه — فقد ساهم فى فتح الجزيرة وأرمينية وأخذ من أهلها الجزية(٣)، وكان ذلك سنة ٢٣ للهجرة(٤). ويذكر البلاذري أن عثمان بن أبى العاص ساهم فى فتح فارس بعد أن عبر البحر ونزل «توج» ففتحها وبنى فيها المساجد وجعلها دارا للمسلمين وأسكن فيها بنى عبد القيس وغيرهم، واتخذوها قاعدة للانطلاق والاغارة على أرجان والمدن الأخرى، وكان ذلك فى سنة ١٣ للهجرة على عهد أبى بكر(٥). وكذلك ساهم فى فتح كازون والنوبندجان وهما من أعمال سابور، وكذلك ساهم مع أبى موسى الأشعري فى فتح أرجان وصالح أهلها على الجزية والخراج، وساهم كذلك فى فتح شيزار وستينر وترك أهلها يصلحونها ويزرعونها بعد أخذ الخراج منها. كما ساهم فى فتح جنابا بامان ثم دار بجر وكان عليها الهربذ وكذلك أرض جهرم وهي كلها فى أرض فارس، وقد

---

(١) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٥٤.
ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٥٦٤.

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب، ص ١٥٣
ابن دقاق : كتاب الانتصار، ص ٣، ٩.
ابن حجر : الاصابة، ج ١، ص ٣٠٤.

(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٥٤.
ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٧، ص ٧٦.

(٤) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٥٧.

(٥) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٣٤.

فتحت سنة ١٩ للهجرة(١). وفى سنة ٢٣ هـ فتح سابور وصالح أهلها على الجزية، وفى سنة ٢٦ للهجرة نقض أهل سابور الصلح وغدروا بالمسلمين وصلحهم ففتحها عثمان بن أبى العاص مرة أخرى عنوة سنة ٢٦هـ(٢). ثم فتح اصطخر سنة ٢٧هـ ثم قضى على فتنة اصطخر الثانية سنة ٢٨هـ(٣). كما ساهم أخوه الحكم بن أبى العاص الثقفي فى عدة فتوحات، منها فتح راشهر عنوة وقد أبلى هو وصحبه بلاء شديدا فى هذه المعركة(٤).

والسائب بن الأقرع الثقفي الذى رشحه أبو موسى الأشعري — صهره لفتح الصيمرة، مدينة مهرجا قذف، قرب نهاوند، فى أرض فارس وصالح أهلها على الجزية ثم فتح الكور كله وأخذ من أهله الجزية والخراج(٥).

وفى فتح طبرستان سنة ٣٠هـ، استشهد فى معركتها محمد بن الحكم بن أبى عقيل الثقفي. أما فى فتح خراسان فقد اشترك عبد الله بن عقيل الثقفي فى هذا الفتح(٦). وكذلك ممن اشترك من الثقفيين مع جند الاسلام جبير بن حية بن مسعود الثقفي ابن عم المغيرة بن شعبة، وكان معلما للقرآن الكريم ثم كاتبا فى الديوان فى عهد عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — ثم ولي أصبهان فى عهد زياد بن أبيه ولم يمت إلا فى عهد عبد الملك بن مروان(٧).

ولم يؤخذ على ثقيف والثقفيين فى الفتوحات سوى ما أورده ابن كثير فى رواية له منقولة عمن شهد حرب القادسية بأن رجلا من ثقيف قد ارتد عن

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤٧٦ — ٤٧٨.

(٢) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٦٥.
البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤٧٩.

(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ١٧٦ — ١٧٧، ٢٥٧.

(٤) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤٧٧.
ابن حجر : الاصابة، ج ١، ص ٣٤٥.

(٥) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٣٧٧.
ابن الأثير : أسد الغابة، ج ٢، ص ٢٤٩.

(٦) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ١٦٧، ٢٧٠.

(٧) ابن حجر : الاصابة، ج ١، ص ٢٢٥.

الاسلام ولحق بالفرس وأخبرهم مواطن الضعف فى جيش المسلمين، خاصة على الجناح الذى اشتركت فيه قبيلة بجيلة فى الحرب بقصد تثبط عزائمهم وتخويفهم، وبالتالي إلحاق الهزيمة بهم(١). لكن هذه الرواية كسابقاتها من الروايات التى نسبت ثقيفا إلى ثمود أو جعلتهم من نسل ثقيف الذى كان عبدا للنبي صالح وغيرها، وهذه روايات وضعت على ثقيف من باب التشهير بالثقفيين وبغضا لرجالهم أمثال الحجاج الذى عرف بقسوته وشدّته وزياد بن أبيه الذى اشتهر بولائه للأمويين(٢). وحتى لو صحّت هذه الرواية على أبعد الاحتمالات، فان خروج رجل وخيانته للمسلمين من ثقيف لا يعنى خيانة القبيلة كلها، ولكل قاعدة شواذ.

ولقد أمتد دور الثقفيين إلى المساهمة فى تخطيط وبناء المدن التى اتخذت كقواعد للمسلمين، آنذاك، فمن الذين اشتركوا فى تخطيط الكوفة السائب بن الأقرع الثقفي والذى اختط لثقيف ما بين الماء إلى دار الإمارة وكان لها وجود كبير فى البصرة (٣). أما أبو بكرة الثقفي فهو أول من غرس النخل فى البصرة وشارك فى بنائها وكذلك نافع بن الحارث بن كلدة الثقفي وزياد بن أبيه(٤).

ومن هذا كله يتبين لنا دور ثقيف فى حركة الفتوح الإسلامية ومساهمتها فيها مساهمة فعالة، سواء فى الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب فى شبه جزيرة العرب وخارجها، إلا أن دور القبيلة لم يظهر ككل، بل على هيئة أفراد، قوّادا وجنودا، وهذا يعود إلى أنَّ المصادر الإسلامية المتقدمة لم تذكر القبيلة ككل، بل اكتفت بالاشارة إلى القواد والأفراد البارزين فقط.

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٧، ص ٤٥.

(٢) جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ٤، ص ٢١٠.

(٣) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ، ص ٤٩٢.
صالح العلي : التنظيمات الاجتماعية، ص ٣٨.

(٤) ياقوت : معجم البلدان، المجلد الأول، ص ٤٣١ — ٤٣٢.
ابن الأثير : أسد الغابة، ج ٥، ص ٨.
الزركلي : الاعلام، مجلد ٤، ص ٧٣.

دور الثقفيين في إدارة الأمصار الإسلامية :

لم تشهد منطقة الحجاز إدارة الدولة المنظمة إلا بعد الهجرة من مكة إلى المدينة، حيث وضع الرسول صلى الله عليه وسلم أول تنظيم للدولة الإسلامية فى المدينة، فبنى المسجد واتخذه مكانا لتأدية فروض الدعوة من جمعة ولادارة شؤون المسلمين وتنظيمهم ووضع أول دستور لهم (الصحيفة) من جهة أخرى. إلا أن انشغال المسلمين فى عهد الرسول بأمور الدعوة ومقاومة معارضيها شغلهم عن التنظيمات الإدارية الموسعة، لذا أخذت هذه التنظيمات فى عهدى الرسول وأبى بكر صفة البساطة وعدم التعقيد. وفى بداية الفتوحات الإسلامية بنيت المعسكرات فى البصرة والكوفة والفسطاط واتخذت هذه المعسكرات كقواعد عسكرية للانطلاق إلى البلاد الأخرى التى فكر العرب فى فتحها ونشر الدين الإسلامي فيها كبلاد ماوراء النهر والسند وأفريقيا ومناطق الدولة الرومانية فى الشمال الافريقي. ثم مصرت الأمصار منذ سنة ١٤ للهجرة(١)، وقد رأى عمر بنظره البعيد أن العرب اذا نزلوا فى المدن الفارسية فقدوا مزايا الصحراء وأخلاق العروبة وغلب عليهم الترف وأضعفتهم الحضارة لذا فقد أحب الخليفة أن يقيم للعرب مدنا جديدة، يعيشون فيها مثل عيشهم فى الجزيرة فتكون لهم كثكنات الجيش، يبقون فيها أبدا جندا مستعدين للجهاد فى سبيل الله كلما دعاهم داعية ويحفظون فيها عروبتهم وخلالهم فأنشأ لهم الكوفة والبصرة فبنيت الدور وفتحت المحلات واستقر الجند وكثرت الأموال وتوسعت الدولة(٢). وظهرت الإدارة المنظمة والدواوين فى خلافة عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ أيضا حين كثرت

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٢٤١.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٥٩٠.
يذكر اليعقوبي أن البصرة بنيت سنة ١٤هـ والكوفة سنة ١٧هـ، بينما يذكر ياقوت أن البصرة مصرت سنة ١٤هـ والكوفة بعدها بستة أشهر.
اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٤٣، ١٤٩ ــ ١٥٠.
ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٤.

(٢) علي الطنطاوي : أخبار عمر، ص ١٢٩.

الأموال وتوسعت الفتوحات وأصبحت الدولة بحاجة ماسة لها وكان ذلك سنة ٢٠ للهجرة(١).

لقد ساهم الثقفيون فى إدارة الأمصار التى بنيت فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ ولربما لعبت الأسباب دورها فى هذه المساهمة منها معرفة الثقفيين بالناحية الحضارية منذ العصر الجاهلي الأخير، حيث اتصلوا بالعالم الخارجي عن طريق التجارة، سواء بشكل مباشر أو اشتراكهم مع قوافل قريش التجارية ولا سيما أن بلادهم كانت مخزنا للغلال المصدرة وبعض الصناعات المطلوبة كصناعة الأدم. لذا، فإن اطلاعهم على أحوال البلاد الأخرى وحضارتها واقتباس مايمكن اقتباسه من الفرس والروم جعلهم يحتلون المرتبة الثانية بعد أهل مكة فى هذا المضمار(٢).

كما كان ثبوتهم على الإسلام وعدم ارتدادهم ومساهمتهم فى قمع حركة الردة واشتراكهم فى الفتوح اشتراكا فعليا سبباً فى تقريب الخلفاء لهم، لاعتمادهم عليهم. وبالفعل أثبت الثقفيون جدارتهم وحسن ظن الخلفاء بهم سواء فى حروب الردة أو الفتوح فعينوا ولاة للأمصار الإسلامية المفتوحة، حيث لم يكن هناك فصل بين الوظائف المدنية والعسكرية فى ذلك الوقت وإلى وقت طويل بعد ذلك، فكان الوالي حين يصدر قرار تعيينه يصبح هو القائد وهو الاداري وهو إمام الصلاة فى وقت واحد، وإمامة الصلاة هي رمز الرياسة الدينية والمدنية(٣).

ومن الولاة الثقفيين عثمان بن أبى العاص الثقفي الذ ى ولي ادارة الطائف منذ اسلامها، واستمر بمنصبه فى خلافة أبى بكر ــ رضي الله عنه ــ وفى عهد عمر أضاف إليه ولاية البحرين وعمان سنة ١٥ للهجرة(٤). ويذكر ابن حجر أن

---

(١) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٥٣.
ابن الطقطقا : الفخرى فى الآداب السلطانية، ص ٨٣ ــ ٨٤.

(٢) الرسالة ذاتها، ص ٤٣. هامش رقم (٣) وص ٤٥، هامش رقم (١) وص ٧٨ هامش رقم ٤، ٥.

(٣) الكندي : الولاةو والقضاة، ص ١٠ ــ ١١.
فلهوزن : الدولة العربية، ص ٢٥ ــ ٢٦.

(٤) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٩٩ ــ ١٠٠.

عثمان بن أبى العاص ولّى أخاه الحكم بن أبى العاص على امارة البحرين عند توجهه إلى البصرة بأمر الخليفة عمر بن الخطّاب(١). وفى عهد الخليفة عثمان بن عفان أخذت داره بالمدينة وأعطى بدلا منها أرضا بالبصرة وهي الأرض المعروفة بشط عثمان حيال الأبلة فكانت سبخة فأصلحها وعمّرها، واليه ينسب باب عثمان بالبصرة ومات فيها(٢).

وقد بدأ عمر فى عهده بعملية فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية، ضمانا لتحقيق العدالة حين صار يعين قاضيا فى العاصمة بجانب الوالي فيها منهم أبو الدرداء فى دمشق واسمه عويمر بن يزيد بن قيس بن عدى(٣)، وكان القاضي يقوم مقام الأمير فى غيابه(٤). وقيس بن أبى العاص السهمي الذى ولي القضاء فى مصر وهو أول قاض قضى فى الإسلام بمصر(٥). وأبو موسى الأشعري واسمه عبد الله بن قيس بن سليم صاحب التوصية التى أوصى بها عمر بالقضاء وشروطه فقد ذكر الماوردي أن عمر قال: « القضاء فريضة محكمة وسنّة متّبعة، فافهم إذا أدلي إليك، فانه لا ينفع تكلم بحقّ لا نفاذ له وآس بين الناس فى وجهك، وعدلك، البيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحا أحل حراما أو حرّم حلالا، ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فان الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل، الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب الله تعالى ولا سنّة نبيه ثم أعرف الأمثال والأشباه، وقس الأمور بنظائرها، وأجعل لمن أدعى حقّا غائبا أو بينة أمرا ينتهى إليه، فمن أحضر بينة أخذت له بحقه.. وإلا استحللت القضية عليه، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى، والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودا فى حدّ أو مجربا عليه شهادة زور أو ظنينا فى ولاء أو نسب، فان الله عفا عن الايمان ودرأ بالبينات، وإياك والقلق

---

(١) ابن حجر : الاصابة، ج ١، ص ٣٤٥.

(٢) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤٣٢.

(٣) ابن حزم : الجمهرة، ص ٣٦٢.

(٤) ابن حجر : الاصابة، ج ٤، ص ٥٩ — ٦٠.

(٥) ابن حجر : الاصابة، ج ٣، ص ٢٥٤.

والضجر والتأفف بالخصوم، فأت الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذكر، والسلام»(١).

وكان دستور المسلمين فى القضاء القرآن والسنة النبوية الشريفة، وتوصيات الخلفاء للقضاة بضرورة سياسة الناس بالعدل، كما جاء فى وصية عمر السابقة، وكان الخليفة عمر ـ رضي الله عنه ـ إذا شكا شخص أحد عمّاله جمع بينه وبين من شكاه تحقيقا للعدالة، وهو أول من راقب عمّاله مراقبة شديدة وحاسبهم محاسبة دقيقة كي لا يستغل هؤلاء العمّال ولاياتهم وشعوبهم، وكانت رغبته شديدة فى التنقل بالأمصار ليطلع بنفسه على أمورها واحتياجاتها وما يتطلب ذلك من اصلاح للرعية(٢). بالاضافة إلى مراقبته لأحوال الناس والأسواق وأمورهم والتطلع عليها وتفقد أحوالهم بنفسه.

لقد اتصفت الإدارة فى عهد عمر ـ رضي الله عنه ـ بالاعتماد على العنصر العربي لأنه لم يكن من سبيل لتعيين غيرهم، وكان شرط الولاية عنده، السابقة فى الإسلام والكفاية فى العمل، لأنه اختار ولاتهم من كان يوصف بالخبرة والكفاءة والمقدرة خلال حياته، لأنه ـ رضي الله عنه ـ كان يدرك أن ذلك سوف يمكنهم من النجاح فى البلاد المفتوحة وتأدية واجباتهم دون أن يصابوا بنكسة فى وقت كانت الدولة بحاجة للنجاح والتقدم، فمن ولاته الاكفاء سفيان بن عبد الله الثقفي على الطائف وعلى صنعاء يعلى بن منبه، وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة الثقفي، وعلى البحرين وما والاها عثمان بن أبى العاص(٣). ولقد ساهم الثقفيون فى تلك الإدارات مساهمة فعالة واشتركوا فى معظم أوجه النشاط الادارى والاقتصادي والاجتماعي هذه المساهمة التى أدت إلى ردود فعل إيجابية لصالح الأمصار الإسلامية والدولة ككل.

فلقد ساهم المغيرة بن شعبة فى إدارة الأمصار التى ولي عليها كالبصرة والكوفة وهو أول من ساهم فى وضع الديوان فى البصرة(٤). وفى خلافة عثمان بن عفان

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية، ص ٧١ — ٧٢.
(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٥، ص ١٨.
(٣) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ٢٥٩ — ٢٦٠.
(٤) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٣١٤. =

ولاة أرمينية وأذربيجان ثم عيّن بعده القاسم الثقفي(١). ثم ولي الكوفة سنة ٤١هـ وبقي فيها حتى مات. أما السائب بن الأقرع الثقفي فقد ولي أصبهان وتوابعها سنة ٢٤ للهجرة(٢).

أما نافع بن الحارث الثقفي وأبو بكرة الثقفي فقد اشتركا فى إدارة البصرة وساهما فى أوجه النشاط المختلفة فيها، فشجعا على الزراعة فيه، وأعلما الناس بخصب أرضها وضرورة استغلالها(٣). ونتيجة لهذه المساهمة فقد صارت لهم دور فيها وأموال واقطاعات تسمى باسمهم، فكانت أول دار بنيت بالبصرة هي دار نافع بن الحارث الثقفي الذى منحه الخليفة عمر ــ رضي الله عنه ــ أرضا بالبصرة، وهو أول من اقتنى الإبل هناك، ثم دار للمغيرة بن شعبة ودار للدمون الطائفي وأبو بردة الذى اشترك فى فتوح مصر وكانت أمه بنت الدمون الثقفي وربيعة بن أبى الصلت الذى اشترك فى تخطيط البصرة، وزهير بن عثمان الثقفي وهو صحابي وله دار بالبصرة(٤).

أما الحياة الاجتماعية فقد شاركوا فيها ــ فهم كما عرفناهم سابقا لا يأنفون أعمال الصناعة والزراعة والتجارة، مهما كان نوعها، فلقد مارسوا فى البصرة الأعمال الشعبية كبناء وإدارة الحمامات الشعبية، فكان هناك حمّام لعبد الله بن عثمان بن أبى العاص وحمّام لمولى زياد بن أبيه وحمّام لمسلم بن أبى بكرة(٥). ولم تكن البصرة وحدها مسرحا لنشاطهم التجاري والصناعي، فلقد كانت لهم فى الكوفة أيضا ومن الذين اشتغل بالتجارة والزراعة الحجاج بن عتيك الثقفي، وكذلك تشابهت لهم مثل هذه الأعمال فى الأهواز وغيرها(٦).

= الأصفهاني : الأغاني، ج ١٦، ص ٨٠.

(١) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٢٤١.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ١٤١، ٤٢٢.
البلاذري : فتوح البلدان، ص ٣٨٣.

(٣) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤٢١.

(٤) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤٢١ وما بعدها.
ابن حجر : الإصابة ، ج ١، ص ٣٤٢.

(٥) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤٣٤.

(٦) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٣٤٠.

وخلاصة ما تقدم، أن الثقفيين من أهل الطائف، أفرادا وجماعات، ولاة وقوادا، قدموا للدولة خدمة لا تنكر وأدّوا دورهم بنجاح تام وبمسئولية كاملة فبنوا المساجد وجمعوا الخراج والجزية وأداروا الولايات التى عينوا فيها إدارة ناجحة وأدوا ما عهد به إليهم من أعمال بعناية تامة، فكانوا يستحقون كل ما أسند إليهم من مناصب ومراكز عليا فى الدولة مكنتهم من تعويض ما فاتهم بسبب تأخّر اسلامهم.

الفصـل الثاني
موقف ثقيف من الصراع على السلطة حتى قيام الدولة الأموية

بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم سنة ١١ للهجرة، تعرّضت الدولة الاسلامية للصعاب، وتوالت عليها المحن، وكادت أن تقضي عليها بعد أن تضعفها وتعود بالعرب والمسلمين إلى ما كانوا عليه فى العصر الجاهلي الأخير.

وأول ماتعرّضت له هو رياسة الدولة (الخلافة) ومن سيخلف الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاته. وكنتيجة لذلك انقسم المسلمون إلى فريقين: مهاجرين وأنصار. وبينهما دار نقاش انتهى إلى تقرير الخلافة فى المهاجرين من قريش، وخلف أبو بكر — رضي الله عنه — فى رياسة الدولة الجديدة. وثانيهما محنة الردة حيث الارتداد والفتن التى كادت تؤدى الى العصف بكيان الدولة، لولا الموقف الحازم الذى وقفه الخليفة الأول أبو بكر — رضي الله عنه — فى تصفية هذه المشكلة والقضاء عليها نهائيا، وهذا مابيّناه سابقا.

لقد بيّنا، سابقا، موقف ثقيف من الردة والفتوح وإدارة الأمصار الاسلامية، وبقي لنا ان نبين موقفها من صراع السلطة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهل انحازت لجهة ضد أخرى؟ أم وقفت موقفا محايدا منها؟ أم كانت ضدّها؟.

من الثابت لدينا أن ثقيفا دخلت الاسلام متأخرة، لذا فهي ليس لها فضل السبق فيه، كما لم يكن أحد من ثقيف ضمن المهاجرين والأنصار، أو من الذين ساعدوا الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته فى أى موقف من المواقف.. سوى ما كان يربطها من صلة القرابة بالرسول وكذلك بالعديد من بطون قريش[1] إلا أن

(١) انظر نفس البحث، ص ٣٢.

هذه الصلة لم تنفع الرسول فى دعوته حتى حين قصد الطائف مدينة الثقفيين قبل الهجرة. لذا، لم تجد هذه القبيلة ماتستند إليه أو تطلب الخلافة بموجبه أو من أجله(١). بينما كان للمهاجرين والأنصار فضل السبق والمشاركة الفعالة فى مساندة الدعوة، منذ البداية، وضحوا فى سبيلها بالأرواح والأموال والديار. لذا فقد أدرك الثقفيون أن الدخول فى منازعات الخلافة سوف يجلب لهم المتاعب التى هم فى غنى عنها، ولا سيا أن الأسر المكّية والمدنية قد بدأت انقساماتها واضحة فى هذه المسألة كما حدث فى بيعة السقيفة.

إلا أن الثقفيين الذين أسلموا فى وقت متأخر لم يشاركوا فى الهجرة ولم يكن لهم وجود محسوس فى المدينة، وحتى لو كان لهم وجود لم يكن لهم دور فى المناقشة أو المنازعة على الخلافة، لأن الأمر كان للمهاجرين والأنصار فهم السابقون فى الإسلام. وقد كانت هناك قبائل عربية هاجرت إلى المدينة وأقامت فيها مثل قبيلة أسلم القحطانية(٢)، التى هاجر منها فى يوم واحد سبعمائة أسرة إلى المدينة، ولكن رغم ذلك لم نقرأ فى المصادر ما يبيّن أى دور لها فى مناقشة أمر الخلافة، غير أن حضور رجالها أثناء المناقشة بين المهاجرين والأنصار ثم مبادرة رجالها إلى مبايعة أبى بكر ــ رضي الله عنه ــ كان كسبا للخليفة الجديد يوم السقيفة، لأن عدد المهاجرين فى ذلك الاجتماع كان قليلا، بينما كان الأنصار كثيرين، فكانت بيعة رجال هذه القبيلة لأبى بكر حاسمة فى ذلك اليوم. وهذا واضح من قول عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ فقد ذكر الطبري: «ان أسلم أقبلت بجماعتها حتى تضايق بهم السكك، فبايعوا أبا بكر، فكان عمر يقول: ما هو إلا أن رأيت أسلم، فأيقنت بالنصر»(٣).

إذا كانت المصادر قد ذكرت بشكل صريح موقف ثقيف من الردة ومشاركتها فى الفتوح الاسلامية وإدارة الأمصار، فانها لم تذكر بأنها اشتركت أو حاولت الاشتراك والانحياز لجهة معينة فى أمر الخلافة أو الظهور بمظهر الطامع

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام، ج ١، ص ٣٤٥.

(٢) القلقشندي : نهاية الأرب، ص ٣٩.
أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١١٢.

(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٢٢.

فيها، سوى أن هناك اشارة فى الطبري تقول إن المغيرة بن شعبة الثقفي قد طرح خاتمة على الرسول أثناء مراسم الدفن ليبين أنه أحدث الناس عهدا به وآخرهم كذلك، لكن لم يرد ما يشير إلى أنه ساهم أو اشترك فى مناقشات الخلافة أو أبدى رأيا معيّنا فيها(١).

هذا الموقف من الثقفيين، وفى تلك الظروف الحرجة المليئة بالمفاجآت جعلتهم موضع ثقة الخلفاء وتقديرهم، خلال القرن الأول الهجري لم تقدم أية قبيلة، باستثناء قريش، عددا عظيما من كبار الرجال مثلما قدمت ثقيف، سواء فى الردة أو الفتوحات أو إدارة الأمصار الإسلامية، فكان منهم المغيرة بن شعبة وعثمان بن أبى العاص وأبو عبيد بن مسعود الثقفي وزياد بن أبيه وغيرهم. والأرجح أن علاقة قريش بالثقفيين منذ العصر الجاهلي الأخير سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية أم سياسية جعلت الخلافة تقرب الثقفيين اليها، لأن الأنصار من أهل المدينة، لم يكونوا على وفاق تام مع أهل مكة، ولأن الثقفيين كانت علاقاتهم قوية مع القبائل، تلك العلاقات التى كانت مبنية على المصالح المتبادلة. ولذا اتسمت سياستهم بالمرونة، وهذه خاصة يندر وجودها، أحيانا فى مجتمع مثل مجتمع الحجاز وشبه الجزيرة. بالاضافة إلى أن تأخر اسلامهم ووقوفهم الحيادى من مسألة الخلاف لم يثر الشكوك حولهم، خاصة بين من كان يتنازع على السلطة. لكنّ اليعقوبي يذكر أن المغيرة بن شعبة كان ممن استشارهم أبو بكر بعد أخذ البيعة مثلما استشار عمر وأبا عبيدة بن الجراح(٢). وهذا لا يعنى انحياز المغيرة لجانب ضد آخر، لكن الثقفيين جبلوا على الميل نحو السلطة دوما. لذا فالأرجح أن كل الأطراف التى دخلت فى مناقشات ومنازعات الخلافة كانت تميل إلى أن تكون ثقيف بجانبها لتكون قوّة لها. لكن لا بدّ لنا من أن نذكر أن دور التودّد للسلطة الذى مارسه الثقفيون كالمغيرة بن شعبة، مثلا، قد مكنهم من تبوّؤ المراكز الحساسة فى السلطة منذ عهد الخلافة وحتى نهاية عهد عثمان، وقد بينا ذلك فى موضوع دور الثقفيين فى إدارة الأمصار. ثم يتجه نحو معاوية الذى عيّنه

---

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢١٤.

(٢) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٢٤ — ١٢٥.
ابن حبيب : المنمّق، ص ٢٨٠.

نائبا عنه فى مفاوضات الصلح مع الحسن بن علي بن أبى طالب والذى لعب دورا بارزا لصالح معاوية فعينّه واليا على الكوفة سنة ٤١ للهجرة وبقي فيها حتى مات(١)، كما بيّنا ذلك فى صفحة (٢١٥ ــ ٢١٦) ومابعدها.

بهذا الموقف كان الثقفيون بعيدين عن التنافس بين قريش وبعضها بعضا هذا التنافس الذى كان عميقا فى الجاهلية، وظهر باستحياء بعد وفاة الرسول، وبرز بعد توسع الفتوحات الاسلامية، وفى خلافة عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ــ هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانوا بعيدين أيضا عن التنافس بين المهاجرين والأنصار الذى ظهر واضحا عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وظهور مشكلة الخلافة. ومن جهة ثالثة، فقد كانوا بعيدين عن الصراع بين أنصار علي، وقد انسحبوا من جيش عائشة فى موقعة الجمل دون أن يذهبوا إلى علي، أو أن يشتركوا مع علي ضدّ معاوية، وعادوا إلى بلدهم «الطائف» ينتظرون ما تسفر عنه الحرب.

فقد ذكر الطبري: « لقي سعيد بن العاص مروان بن الحكم وأصحابه بذات عرق، فقال: أين تذهبون، وثأركم على أعجاز الإبل. اقتلوهم ثم ارجعوا إلى منازلكم. لا تقتلوا أنفسكم. قالوا: بل نسير، فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعا. فخلى سعيد بطلحة والزبير فقال: إن ظفرتما لمن تعجلان الأمر؟ أصدقائي: لأحدنا أينا اختاره الناس، قال: بل اجعلوه لولد عثمان فإنكم خرجتم تطلبون بدمه فالا تدع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم. قال: أفلا أرانى أسعى لاخراجها من بنى عبد مناف، فرجع ورجع عبد الله بن أسيد، فقال المغيرة بن شعبة: الرأي ما رأى سعيد — ويقصد سعيد بن العاص — من كان هاهنا من ثقيف فليرجع، فرجع ومضى القوم»(٢).

من هذا النص يتبين لنا أن سعيد بن العاص عندما رأى طلحة والزبير يسيران فى الحقيقة إلى الحرب طلبا للخلافة تنبأ أنه ربما يكون على خطأ فى

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٢، ص ١١١، ١١٤.
فلهوزن : الدولة العربية، ص ١٠٢، ١٠٦.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٤٥٣.

الاشتراك فى الحرب أو الفتنة، وعندما نصح طلحة والزبير بأن يجعلا الخلافة فى ولد عثمان رفضا ذلك لأن معناه خروج الأمر من الصحابة إلى أبنائهم، وقد أدرك سعيد بن العاص أن هذه الحرب ستؤدى فى النهاية إلى خروج الأمر من يد بني عبد مناف ككل، وكان المتنازعون جميعا من بنى عبد مناف ففطن أنه لا يخدم بيته إذا ما اشترك فى الحرب فقرر الرجوع عنها، وقد استصوب المغيرة بن شعبة هذا الرأي ورأى أن الأفضل أن يعود بقومه إلى الطائف و ينتظر هناك ماتنجلى عنه الحرب، جريا على خطة ثقيف الدائمة فى عدم الميل إلى طرف دون طرف فى النزاعات التى نشبت بين العرب وانتظار ما تنجلى عنه الأمور.

وبذلك ظلت أيادى ثقيف نظيفة من دم عثمان وعلي، فجنّبتهم هذه الفتنة اتهامات لم يسلم منها بعض الصحابة وتابعيهم. ولم يكن هذا الموقف للمغيرة مع المتنازعين فى فتنة عثمان فقط، بل ساهم أيضا فى نصيحة الخليفة الرابع علي بن أبى طالب حال تسلمه السلطة حيث قال لعلي: «أرسل إلى عبد الله بن عامر وإلى معاوية وإلى عمّال عثمان بعهودهم تقرهم على أعمالهم و يبايعون لك الناس، فانهم يهدّئون البلاد و يسكنون الناس، فأبيت ذلك عليه يومئذ وقلت: والله لو كان ساعة فى نهار لاجتهدت فيها رأيى، ولا وليت هؤلاء ولا مثلهم يولى»(١).

وهذا الموقف لثقيف لم تخالف فيه إجماع المسلمين على الخليفة الذى وقع اختيارهم عليه، فهي تبايع من يبايعه عادة المسلمين، وتظل مؤيدة لهؤلاء الخلفاء ومطيعة لهم.

وبذلك حصلت على ماتريد دون أن تدخل فى أية منازعات سياسية.

الفتنة فى عهد الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وموقف الثقفيين فيها

من الأحداث الخطيرة التى واجهت الدولة الإسلامية فى عهد الخليفة الثالث

---

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٤٣٩.

عثمان بن عفان الفتنة الكبرى وهي المحنة الثالثة بعد حركة الردة والتى حدثت فى أواخر عهد الخليفة وأدت إلى مقتله بأيدى المسلمين أنفسهم، وهي بادرة خطيرة تعرضت لها الدولة الإسلامية. إلا أن الأمة الإسلامية ودولتها الفتية قد خرجت من هذه المحن بامتحان صعب وتجاوزتها، ومع ذلك فقد تركت على الدولة بصمات التفرقة والانشقاق، وظهر ذلك واضحا فى خلافة علي بن ابى طالب وما حصل فى عهده من اضطرابات داخلية وخلافات حول مقتل الخليفة السابق والمطالبة بدمه تسترا للوصول إلى خلافة المسلمين وأولهم معاوية بن أبى سفيان، عامل الشام آنذاك، مما أدى فى النهاية إلى انتقال الخلافة إلى البيت الأموي وحصرها فيه، خلافا للمبدأ الإسلامي الذى يستند على الشورى فى خلافة المسلمين، مما ادى إلى ظهور ردود فعل عنيفة كان من نتيجتها التصدع وبروز الحركات المناوئة للدولة فى المجتمع الإسلامي كحركة الخوارج والفرق المتعددة فيما بعد(١).

ومن المعروف أن حركة الردة قسمت المجتمع العربي إلى قسمين: الثابتين على الإسلام والمرتدين، وبذلك ألغت التقسيمات التى وضعت منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم هذه التقسيمات التى كانت على أربعة منازل: المهاجرون والأنصار والمناصرون للنبي من غير المهاجرين والتابعون باحسان(٢). وقد أتيح لهؤلاء جميعا الاشتراك فى الفتوحات الإسلامية ونالوا ما وعدهم الله به من أجر وثواب وما كسبوه من غنائم ومكاسب مادية أخرى، جريا على مبادىء الإسلام الأساسية فى العدل والحق والمساواة بين المسلمين جميعا. ماخلا فترة قصيرة فى أواخر أيام الخليفة أبو بكر ــ رضي الله عنه ــ حيث لم يشرك المرتدين بعد انتهاء أحداث الردة فى الفتوحات باعتبارهم حديثي عهد بالاسلام، إذ قد يؤدى اشراكهم إلى ردود فعل فى الولايات المفتوحة(٣). ومهما يكن من أمر، فان هؤلاء جميعا شاركوا فى الفتوحات وإدارة الدولة، لكن المعارضة لم تظهر إلا بعد وفاة الخليفة عمر بن الخطاب واتخذت أشكالا متعددة لكن هدفها كان واحدا هو القضاء على الخلافة القرشية.

(١) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٩٠ — ١٩١.

(٢) أبو عبيد : كتاب الأموال، ص ٣٢٧.

(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٤٧.

وقبل التطرق إلى موقف ثقيف من أحداث الفتنة الخطيرة، لا بدّ لنا من القاء الضوء على بعض أسباب هذه الفتنة ودوافعها، ولو بشكل مختصر، ومن خلال ذلك لابد من معرفة دور هذه القبيلة وموقفها من الأحداث.

أسباب الفتنة نجملها بما يلي :

أولا : السماحة واللين اللذان امتاز بها الخليفة والسماح للمهاجرين والأنصار وبعض المسلمين الذين كان عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ قد حجز عليهم الخروج إلا باذن وأجل بالخروج من المدينة إلى الأمصار، لكن عثمان فك عنهم هذا العقال واذن لهم، فتفرقوا فى الأرض ورضوا عن الخليفة كل الرضا، ثم لم تمض أعوام حتى ضاقوا به أشد الضيق من جرّاء سياسته وضعفه وسماحته وتردده وسيطرة أقاربه عليه، فكان ذلك سببا فى الفتنة(١). ثم جاء قراره بنقل الفيء اليهم حيث يقيمون، زاد من رغبتهم فى الخروج والاستقرار فى الامصار الإسلامية، حيث باعوا أراضيهم وأملاكهم فى الحجاز واتجهوا لشراء الأراضي فى الامصار وخاصة فى منطقة العراق الخصيب والمناطق الأخرى، مما أدى إلى ظهور الاقطاعيات الكبيرة(٢). فاشترى طلحة بن عبيد الله عامة أسهم خيبر من الذين شهدوا فتحها مع النبي أو من ورثتهم، ثم باعها واشترى بها العراق، وقد عمل الخليفة نفسه بهذا المبدأ حيث اشترى أرض ودار عثمان بن أبى العاص الثقفي فى الحجاز وأقطع له أراضي كبيرة فى البصرة، مما جعله يصبح من ذوى الاقطاعات الكبيرة وأصبح جزء كبير من شط البصرة يعرف باسم شط عثمان وباب البصرة القديمة بباب عثمان(٣).

ولم يقتصر ذلك على العراق فقط، وانما شمل بلاد العرب كلها من جهة، والاقاليم المفتوحة من جهة أخرى، وبذلك ظهرت طبقة جديدة من الناس

(١) طه حسين : الفتنة الكبرى، ج ١، ص ١٧.

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٣٥٧.
طه حسين : الفتنة الكبرى، ج ١، ص ١٠٣.

(٣) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤٣٢.
طه حسين : الفتنة الكبرى، ج ١، ص ١٠٤.

امتازت بثرائها وارستقراطيتها، وانعكس ذلك على الحجاز فظهر الترف.. والفراغ فى مكة والمدينة والطائف، وكان بين هذه الطبقة طبقة المحرومين من العبيد والأرقّاء التى أحست بهذا الواقع المؤلم بالاضافة إلى عامة المحرومين فنشأ التذمر والسخط اللذان كانا سببا فى الفتنة(١). ثم كان لزيادة العطاء الذى ا ستفاد هؤلاء منه حيث زاد العطاء مائة فوق أعطياتهم فزادت مداخيلهم مما أدى إلى استثمارها فى التجارة والزراعة وبذلك تدفقت الأموال عليهم فحولتهم إلى الترف والبذخ الذى حوّلهم عن هدفهم الأساسي وهو الدعوة ونشر الإسلام(٢).

ثانيا : سياسة العزل والتولية التى اتبعت فى عهده وذلك بتولية أهله وأقاربه فى إدارة الأمصار الاسلامية، وعزل ولاتها الذين كانوا فيها منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — فقد ولي سعد بن أبى وقاص الكوفة سنة ٢٤ هـ بدلا من المغيرة بن شعبة الثقفي، ويبدو أن هذا التعيين جاء تنفيذا لوصية عمر الذى تقدم بها إليه حين قال: إن أخطأت الخلافة سعدا أن تستعين به(٣). وولي عبد الله بن سعد بن أبى سرح على مصر سنة ٢٧ للهجرة، بدلا من عمرو بن العاص وعبد الله هذا هو أخو عثمان فى الرضاعة ومن الذين أهدر الرسول دمه يوم الفتح فقد كان يكتب للرسول ويحرف فى الكتابة. فقد ذكر اليعقوبي أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول له: «اكتب عزيز حكيم، فأكتب لطيف خبير، ولو كان نبيا لعلم، فآواه عثمان، وكان أخاه فى الرضاع وأتى به رسول الله، فجعل يكلمه فيه ورسول الله ساكت ثم قال لأصحابه: هلا قتلتموه.. فقالوا: انتظرنا ان تومىء. فقال: إن الأنبياء لا تقتل بالايماء»(٤). وقد ذكرت المصادر كذلك أنه ارتد ورجع إلى الاسلام يوم الفتح(٥). ثم أدى استئثاره بخمس الغنائم إلى سخط الجيش الاسلامي عليه، فأرسلوا إلى الخليفة وفدا يراجعه فى

---

(١) طه حسين : الفتنة الكبرى،، ص ١٠٥.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٢٤٥.
حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام، ج ١، ص ٣٥٧.

(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٢٤٣.

(٤) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ٥٩ — ٦٠.

(٥) ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٣١٣.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ١٧٣.

ذلك(١). وولي عبد الله بن عامر بن كريز بن حبيب بن عبد شمس على ولاية البصرة سنة ٢٩ للهجرة، بدلا من أبى موسى الأشعري وعبد الله هذا هو ابن خال الخليفة وكان عمره يوم ولايته خمساً وعشرون سنة تقريبا(٢). وأبقى معاوية ابن أبى سفيان على ولاية دمشق الذى تولاها منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب ثم ضم إليه الخليفة عثمان جند فلسطين وحمص وبذلك خلصت له أرض الشام كلها، وأصبح بذلك أعظم العمال خطرا وأعلاهم قدرا أيام عثمان(٣). وولي عمير بن عثمان بن سعد وهو أموي على ولاية خراسان، وعبد الله بن عمير على سجستان وعاصم بن عمير على كرمان وهما أمويان أيضا(٤). وكذلك ولي عبيد الله بن معمر على اصطخر وخالد بن عبد الله ابن زهير على هراة(٥). أما علاقتهم بالخليفة فلم تحدثنا المصادر عنها سوى أنها ذكرت بأنهم من الأمويين.

ولكن رغم كفاءة ومقدرة هؤلاء الولاة مثل معاوية وعبد الله بن أبى سرح وغيرهم فان الناس رأوا أن عثمان قد فضّل أقاربه على غيرهم من المسلمين ومن السابقين فى الاسلام، لكن سوء تصرف بعض هؤلاء الولاة أدى إلى ردود فعل عنيفة ضد الخليفة كاتهام عبد الله بالاستحواذ على الخمس وتصرفه فيه بغير مايقضي به الشرع، والوليد بن عقبة لم يكن موضع اطمئنان ورضا المسلمين، لسوء سيرته مع الرسول، حينما أرسله مصدقا فى بنى المصطلق فعاد وزعم أنهم منعوه، فهمّ النبي بغزوهم ثم تبيّن له كذب الوليد، بالاضافة إلى تولعه بشرب الخمر فكانت الشكوى ضده من المسلمين عامة(٦).

لقد كان الخليفة حسن النية، قاصدا الخير، لكن القوم كانوا ذوى طموح

---

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٢٥٣ — ٢٥٤.
طه حسين : الفتنة الكبرى، ج ١، ص ١٢٣.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٢٦٤.

(٣) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٧٦.
طه حسين : الفتنة الكبرى، ج ١، ص ١١٨.

(٤) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٢٦٤ — ٢٦٥.

(٥) المصدر ذاته، ص ٢٦٤ — ٢٦٦.

(٦) المصدر ذاته، ص ٢٥٦، ٢٧٤
أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ٣٠٠ — ٣٠١.

ذاتي فأحاطوا بعثمان ــ رضي الله عنه ــ وجعلوا من أنفسهم خاصته حتى عزلوه عن كبار الصحابة من أهل الشورى، وقد خالف عثمان بذلك سياسة عمر، فقد كان عمر شديدا على قريش بعامة وعلى أهله بخاصة، وكان استعماله للولاة على الأمصار، لم يخص بها فريقا دون فريق من العرب ثم هو لم يستعمل من عشيرته أحدا، مما أثار ذلك نقدا للخليفة عثمان مازال يشتد حتى تحوّل إلى ثورة عليه فيما بعد وخاصة بعد اتصال الثوار القادمين من مصر بأهل العراق وظهور الخلاف بين عبد الله بن سعد وعمرو بن العاص(١).

ثالثا : استئثار الأمويين — الولاة بشكل خاص بأموال الدولة، فقد كانوا يتصرفون فيها دون رقيب، مما جعل بقية المسلمين تحقد عليهم، خاصة الذين شاركوهم الكفاح والفتوحات. لذا فان التذمر أصبح عاما، وهذا واضح من المناقشة التى جرت بين مالك الأشتر وسعيد بن العاص فى الكوفة، وكان سبب المناقشة أن بعض وجوه الكوفة كانوا يسمرون عند سعيد بن العاص منهم مالك بن كعب الأرحبي والأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس النخعيان ومالك الأشتر، وقد كانت المحاورة حول منطقة: النشاسيتج وهي ضيعة كانت لطليحة بن عبد الله وكانت عظيمة الدخل ومن خلال المحاورة والمناقشة بينهم قال سعيد: «انما هذا السواد بستان قريش»(٢)، مما جعل الأشتر يحاوره ويذكره بأن هذا السواد هو ما أفاء الله به للجميع بعد الكفاح والقتال وليس لقومك — ويقصد الأمويين وبذلك فتح المجال لتدخل القوم وبروز النقمة والتذمر. الأمر الذى أدى فى النهاية إلى نفيهم إلى دمشق، ثم ارجاعهم إلى الكوفة ثم نفيهم إلى حمص، وبذلك ظهر التمسك بالرأي والمعارضة العلنية ضد ولاة من الأمويين. هذه المعارضة دعت اليها ظروف الحياة الاجتماعية والسياسية حينذاك.

رابعا : كان الخليفة عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ يدرك تماما ما قد يحصل للمسلمين بعد وفاته. لذا حصر الخلافة بستة من أهل الشورى وأصحاب السبق فى الاسلام والذين وقفوا بجانب الدعوة منذ البداية ودافعوا عنها

---

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٢٥٤ — ٢٥٦.

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ١٣٨ — ١٣٩، وانظر كذلك هامش رقم ٣ من ص ١٣٨.

بأموالهم وأرواحهم وهم عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوّام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقّاص. خوفا من انقسامهم أنفسهم وبالتالي انقسام الناس من بعدهم، لأن صورة السقيفة وأحداثها لازالت مرسومة فى مخيلته، وكان الخليفة عمر يدرك أبعد من هذا وهو الخلاف بين الستة المختارين أنفسهم فحذّرهم منه، وهذا واضح من قوله: «انى لا أخاف الناس عليكم ان استقمتم، ولكنى أخافكم فيما بينكم فيختلف الناس»(١). وهذا ما حصل بالفعل مما جرّ على الدولة الاسلامية الكثير من المشاكل والفتن وما ظهر بعد ذلك من تكتلات وجماعات متخاصمة متنازعة.

خامساً : دور مروان بن الحكم وبعض الأمويين فى الفتنة : استغل الأمويون لين وتسامح الخليفة عثمان — رضي الله عنه — مما أدى إلى ظهور بعض المآخذ عليه، منها اعادة عمه الحكم بن العاص وأهله إلى المدينة، وكان الرسول قد أخرجهم منها بسبب ايذاء الحكم له(٢). ولم يكن السماح بالعودة لهم فقط، بل بعد ممات الحكم ضرب الخليفة فسطاطا على قبر الحكم وولي ابنه الحارث سوق المدينة، وعيّن مروان مستشارا له وزوجه من ابنته وأمر له بخمس مال الغنائم في أفريقيا(٣)، مما جعلهم أو مهد لهم الوصول إلى مراكز الدولة الحساسة، مما أثار الحقد والكراهية من المسلمين من غير الأمويين عليه، ثم بداية تدخل مروان فى شؤون الدولة وكأنه هو الخليفة، وهذا واضح من المناقشة التى دارت بين مروان ووفد المتذمرين من السلطة أثناء لقائهم الخليفة حيث قال لهم مروان: «إن شئتم حكمنا والله بيننا وبينكم السيف، نحن والله وأنتم كما قال الشاعر:

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم　　　معارسكم تبنون فى دمن الثرى

---

(١) ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٦٦.

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام، ج ١، ص ٣٥٦.

(٣) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٦٦.

فقال عثمان: اسكت اسكت، دعني وأصحابي، مامنطقك في هذا؟ ألم أتقدم إليك ان لا تنطق.. فسكت مروان، ونزل عثمان»(١).

وكذلك سعيد بن العاص الذى حرّض الخليفة ضد المتذمرين وطالبه بقتلهم جميعا فيذكر الطبري أنه قال: «اطلب هؤلاء القوم، ثم اقتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم»(٢).

لم يقتصر دور مروان بن الحكم على التدخل فى سلطة الدولة حيث تذكر المصادر أنه قد لعب دورا فى اذكاء الفتنة، خاصة بعد اتهامه بتزوير الرسالة لعامل الخليفة في مصر وما جرت عليه هذه المشكلة من مضاعفات خطيرة أدت فى النهاية إلى قتل الخليفة بيد المسلمين أنفسهم(٣). ولقد حذّرت زوجة الخليفة نائلة بنت الفرافصة من دور مروان فى الفتنة حينما قالت للخليفة: «والله انك متى أطعت مروان قتلك، ومروان ليس له عند الناس قدر ولا محبّة»(٤). وقد أكد الخليفة هذا الرأي بنفسه حين قال وهو يخاطب مروان: «لا تذكرنها بحرف فأسوّىء لك وجهك فهي والله أنصح لى منك»(٥). ثم تباطأ معاوية فى نجدة الخليفة حين كتب إليه الخليفة بضرورة نجدته من الثائرين والمحاصرين لكنه أبطأ على الخليفة النجدة مما دعا أن يكتب إلى يزيد بن أسد بن كرز والى أهل الشام يستنفرهم، فلما قرأ يزيد الكتاب حثّ المسلمين على نصر عثمان وقد نصره الكثير وساروا لنجدة الخليفة لكن الأوان قد فات، فقد قتل الخليفة وهم لا زالوا فى وادى القرى، مما حدا بهم أن يرجعوا بعد سماع الخبر(٦).

وكذلك نفيُ أبى ذر الغفارى إلى الربذة وموته فيها، وقد لعب معاوية دورا كبيرا فى هذه القضية، لأن أبا ذر كان فى نظر معاوية من المحرضين على السلطة

---

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٣٣٩.
(٢) المرجع نفسه، ص ٣٤٢.
(٣) المرجع نفسه، ص ٣٥٥.
(٤) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٧٥.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٣٦٢.
(٥) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٣٦٣.
(٦) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٣٦٨.

فى الشام، فقد كان أبو ذر يقول: يامعشر الأغنياء، واسوا الفقراء وبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وظهورهم، وبذلك طمع الفقراء فى مال الأغنياء، وشكا الأغنياء ما يلقون منهم وخوفه الفتنة وميل معاوية لهم، مما أدى به إلى أن يكتب إلى الخليفة يشكوه من تصرف أبى ذر ويقول له: إن أبا ذر قد ضيّق عليّ وبذلك أقنع الخليفة بضرورة تسفير أبى ذر إلى عثمان، وهناك دارت محاورة بين عثمان وأبى ذر انتهت بخروج أبى ذر إلى الربذة وموته فيها(١).

سادساً : المعارضة العامة : يذكر الدكتور طه حسين إن عدة أمور تجمعت جعلت المعارضة عامة على الخليفة، منها معارضة محمد بن أبى حذيفة الذى طلب من الخليفة أن يوليه عملا فرفض عثمان ذلك لمأخذ عليه، فطلب الخروج إلى مصر ولم يكد يصل إلى هناك حتى أظهر المعارضة السياسية للخليفة، وكذلك محمد بن أبى بكر الذى لم يحفل به الخليفة، مما أثار فى نفسه الغيرة والحسد حين آثر فريقاً منهم على آخر. ثم معارضة طلحة بن عبيد الله. هذه المعارضة التى كانت، منذ اليوم الأول للبيعة، حيث تمت وطلحة غائب فظلت فى نفسه. ومعارضة عبد الله بن مسعود عامل بيت المال، مما حدا بعبد الله ابن مسعود أن يلقي مفاتيح بيت المال ويعتكف فى داره يعظ الناس ويعلمهم. ومعارضة أبى ذر لاعطاء مروان بن الحكم وأخيه الحارث وزيد بن ثابت الأنصارى مائة ألف درهم من بيت المال، فاستنكر ذلك حيث قال: بشّر الكانزين بالنار. ثم معارضة عمار بن ياسر واتهامه الخليفة باستغلال بيت المال(٢). هذا بالإضافة إلى سريان المقاومة أو المعارضة الشعبية الخفية التى أصبحت تجرى على الألسن ولا يعرف لها صاحب، ولاسيا بعد أن وسع الخليفة مسجد الرسول فقيل عنه «يوسع مسجد النبي ويترك سنّته».

---

(١) ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ١١٣ — ١١٥.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٣٠٨ — ٣٠٩.

(٢) طه حسين : الفتنة الكبرى، ج ١، ص ١٢٦ وما بعدها.
اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٦٢ وما بعدها.

من الثابت أن الأمور قد تجمعت، سواء التى ساهم فيها الأمويون أو غيرهم، ومما لا شك فيه أن الخليفة كان متسامحا طيّبا، وهذه صفات قد تجعل أي حاكم يعانى من صعوبات الحكم وبالتالي الفشل، إلا أن مقتل الخليفة قد أدى إلى تغيّر كل شيء فى حياة الأمة، مما زاد الحالة سوءا.

هكذا كانت أسباب الفتنة، فأين تقف ثقيف منها ؟

بعد وفاة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ نفّذت وصيته باختيار واحد من أهل الشورى الستة الذين أوصى بهم. فاستقر الرأى على مبايعة عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ــ فبايعته المدينة، ثم بايعت ثقيف بعدها، كما بايعت الأمصار الإسلامية والولايات التى تولي إماراتها ثقفيون مثل الطائف والكوفة والبحرين وعمان وأصبهان كما أشرنا سابقاً إلى ذلك، ص ٢١٣، وقابلت ثقيف هذه البيعة واختيار الخليفة الجديد بارتياح بالغ، فهو من مواليد الطائف وله أموال وتجارة فيها، فضلا عما يربطه بالطائف من صلات متعددة كصلة النسب وصلة الحلف مع الأمويين، فهو واحد منهم(١). فقد ذكر الطبري حيث قال: «لمّا بويع لعثمان بالخلافة، قال المغيرة بن شعبة لعبد الرحمن بن عوف: يا أبا محمد قد أصبت إذ بايعت عثمان، وقال لعثمان: لو بايع عبد الرحمن غيرك مارضينا»(٢). وذكر ابن كثير محاورة جرت بين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، فيقول: «قال عثمان تأهلت بمكة، فقال له ولك أهل المدينة، وانك تقوم حيث أهلك بالمدينة. قال عثمان: ولى مال بالطائف»(٣). إلا أن استبشار الثقفيين بالخليفة الجديد وأملهم فيه لم يدم طويلا إذ بدأ يتغير بعد سنة من خلافته، إذ عزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وعزل عثمان بن أبى العاص عن البحرين وعمان(٤). وظل عثمان بن أبى العاص فى البصرة حتى مات فيها. ورغم ان عثمان ــ رضي الله عنه ــ قد زاد من أعطيات الناس مائة فوق أعطياتهم فان ثقيفا لم تستفد من هذه الزيادة ولأن العطاء كان قد نظم على

---

(١) ابن حزم : الجمهرة، ص ٨٢.

(٢) الرسل والملوك، ج ٤، ص ٢٣٤.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٧، ص ١٥٤.

(٤) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٢٤٣.

أساس الأسبقية فى الإسلام. فقد ذكر الماوردي أن الديوان كان موضوعا على دعوة العرب فى ترتيب الناس فيه معتبر بالنسب وتفضيل العطاء معتبرا بالسابقة فى الإسلام وحسن الأثر فى الدين(١). وبما أن ثقيفا دخلت الإسلام متأخرة كما مرّ بنا سابقا، ولذلك كان من الطبيعي ان يتأثر الثقفيون أول الأمر بهذا التصرّف، وان كان أغلبهم فى الأمصار والولايات المفتوحة قد عوضتهم عن الزيادة بكثرة أموال الغنائم من جهة، ولأن التفضيل فى العطاء أصبح يقاس بالتقدم فى الشجاعة والبلاء فى الجهاد وخاصة بعد انقراض أهل السابقة فى الإسلام(٢). بالاضافة إلى ذلك فان الثقفيين رأوا أن عطف عثمان على الأمويين واسرافه فى منحهم المال والسلطة سيدفع بالأمويين إلى الحكم، فقرروا احياء الرابطة السياسية والاجتماعية والاقتصادية القديمة مع حلفائهم وعن هذا الطريق سوف يصلون إلى أهدافهم(٣). ولذلك تحاشوا أن يدخلوا معهم فى أية معاتبة أو تنافس. ولقد رحّب الأمويون بهذا الاتجاه ولا سيما أنهم يدركون ما للطائف من أهمية وما لرجاله من مكانة وقدرة. ولربما استطاع الثقفيون أن يدخلوا فى سياسة الدولة الجديدة عن طريق احياء تلك الصلات مع الأمويين.

ورغم أن معارضة الخليفة قد بدأت من مصر والكوفة والبصرة وان الثقفيين كانوا يسكنون بأعداد كبيرة فى هذه الأمصار، فان المصادر لم تخبرنا عن خروج الثقفيين مع المعارضين والثائرين أو انضمامهم إليهم فى فتنة المدينة.

وفى بداية الفتنة، وقف الثقفيون بجانب الخليفة حتى فى المدن التى بدأت فيها المعارضة مثل البصرة والكوفة ومصر، وذلك تقديرا منهم لما حصلوا عليه أثناء خلافته من امتيازات ومكاسب وخاصة ما حصلوا عليه من اقطاعات واسعة فى العراق الخصيب وفى منطقة البصرة بالذات، بالاضافة إلى أن خبراتهم الزراعية والتجارية والادارية مكنتهم من أن يصلوا إلى الطبقة الارستقراطية فى المجتمع، سواء فى الأمصار أو المدينة أو الطائف(٤). كما أن أهل الطائف استفادوا من

---

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية، ص ٢٠٢.

(٢) المصدر والصفحة نفسها.

(٣) البحث نفسه، ص ٣١ وما بعدها.

(٤) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤٣٢.

الأموال المتدفقة على الحجاز، حيث بدأ أصحابها باستثمارها فى مدينتهم حيث المناخ الجيّد والهدوء والراحة والفاكهة المختلفة، وبذلك انعكس ذلك على مستوى معيشة الطائف وأهلها، ونتيجة لهذا الترف وكثرة الأموال نشأت فى الدولة الاسلامية طبقة جديدة مالت إلى الترف والفراغ، فنشأت طبقة الأغنياء فى كل من مكة والمدينة والطائف(١). وبذلك أعادت الطائف مكانتها الاقتصادية الممتازة التى كانت تتمتع بها منذ العصر الجاهلي الأخير، كما مرّ بنا سابقا فى صفحة ٢٧.

أما عندما تحوّلت الفتنة إلى ثورة، فقد ابتعدت ثقيف عن معترك الأحداث تنتظر ما تسفر عنه النهاية، وستكون كعادتها مع المنتصر، لذا لم نقرأ فى المصادر بأن كان لها دور فى مقاومة الثورة، ماخلا دور المغيرة بن شعبة حين خاطب الثائرين لمعرفة ما يريدون — بتوجيه من الخليفة — ومحاولة تهدئتهم، إلا أنه فشل معهم. فقد ذكر البلاذري بأن المغيرة بن شعبة جاء إلى الخليفة وطلب منه أن يأذن بمخاطبة هؤلاء الثائرين. فقال له: «دعني آت القوم فأنظر ما يريدون، فمضى نحوهم، فلما دنا منهم صاحوا به يا أعور وراءك يا فاجر.. وراءك يافاسق، وراءك فارجع»(٢). وقد كرر المحاولة عمرو بن العاص لكنها كانت هي الأخرى دون جدوى(٣). ولذا نرى المغيرة يتجه بدوره ينصح الخليفة أثناء الحصار بمقابلة الثائرين أو الخروج إلى مكة أو الشام، لكن الخليفة لم يأخذ بنصيحته(٤). وبقي فى المدينة حتى قتل وفى الوقت نفسه لم تحدّثنا المصادر عن وجود ثقفي واحد مع الثائرين والمحاصرين، لا بل ذكر الطبري موقفا انفراديا من ثقفي وقف بجانب الخليفة يوم المحنة هو المغيرة بن الأخنس بن شريق الثقفي الذى قتل دفاعا عن الخليفة والذى قتله هو عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي(٥). ويذكر ابن حجر بأن المغيرة بن الأخنس ضرب مرة من قبل المنذر بن الزبير عندما هجا أباه

---

(١) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ٢٨٤.
طه حسين : الفتنة الكبرى، ص ١٠٥.
(٢) البلاذري : أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٦٣.
(٣) المصدر والصفحة نفسها.
(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص ١٦١.
(٥) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٣٨٢.

الـزبير بن العوّام فبلغ ذلك عثمان فغضب ووقف بجانبه، ولربما لموقف المغيرة هذا وفاء بموقف الخليفة السابق(١). والمغيرة هذا هو من حلفاء بنى زهرة، أموي النشأة، ثـقـفي النسب، ومما لا شك فيه أن لهذه الصلة أثراً فى موقفه من الخليفة. كما أن نائـلـة بـنـت الـفـرافـصـة زوجـة الخليفة عثمان بن عفان لم تذكر ثقيفا مع جملة ماذكرت من القبائل التى اشتركت فى قتل الخليفة بالمدينة(٢).

من هـذا يـتـبـين لـنـا بأن ثقيفا لم تشترك لا فى المعارضة ولا فى الثورة ولا فى التحريض عليها، ولم تساهم فى مقتله ولم تدافع عنه.

وبـعـد مـقتل الخليفة عثمان ــ رضي الله عنه ــ بايع الناس عليّا كما بويع الخلـفاء من قبله بيعة خاصة وعامة، فلم نجد لثقيف ما يوحى بأنها عارضت هذه البـيـعـة أو وقـفـت ضدّها. لكن خلافة علي من حيث ظروفها السياسية تختلف تماما عن بيعة الخلفاء الذين سبقوه، لأن الخلافة انتقلت إليه، ولا زال هناك من يـرفـض الـبـيـعـة محتجا بالمطالبة بدم الخليفة المقتول ومنهم معاوية بن أبى سفيان بـالـشام(٣). إلا أن الثقفيين فى البصرة والكوفة ومصر لم يبايعوا عليا نتيجة الصراع الجـديـد حـول الخلافة وظاهرة المطالبة بدم عثمان، لكنهم بايعوا بعد ذلك مع من بـايع من أهل الحجاز فقد ذكر الطبري هذه البيعة فقال: «جاء الزبير فبايع علي عـلـى اقـامة كتاب الله فى القريب والبعيد، والعزيز والذليل، فبايعهم، ثم قامت الـعـامـة كلها فبايعت(٤)». وكان بامكان الخليفة الجديد أن يضم إليه ثقيفا لو قبل نـصـيـحـة المـغـيـرة بـن شعبة إليه، فقد اختلى المغيرة بعلي فى داره ونصحه باقرار عـمّال عثمان على ولاياتهم، ربثما تهدأ الأمور وتستقر الأحوال، إلا أن عليا رفض تلك النصيحة قائلا: «والله لو كان ساعة من نهار لاجتهدت فيها رأيى، ولا ولّيت هـؤلاء ولا مـثـلـهـم يولى»(٥). وذكر اليعقوبي مثل هذه النصيحة أيضا فقال: إن المـغـيـرة بن شعبة قال للخليفة: «ياأمير المؤمنين، أنفذ طلحة إلى اليمن والزبير إلى

---

(١) ابن حجر : الاصابة، ج ٣، ص ٤٥٢.
(٢) الأصفهاني : الأغاني، ج ١٥، ص ١٦١ — ١٦٢.
(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٤٤٠.
(٤) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٤٣٥.
(٥) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٤٣٩.

البحرين، واكتب بعهد معاوية على الشام، فاذا استقامت الأمور، فشأنك وما تريد فيهم. فأجابه فى ذلك بجواب، فقال المغيرة: والله مانصحت له قبلها، ولا أنصح له بعدها»(١). وذكر الطبري أن عليا طلب من عبد الله بن عباس الذهاب إلى الشام لاستلام ولايتها، لكن ابن عباس رفض ذلك خوفا من أن يقتله معاوية. فقال لعلي ناصحا له: «اكتب إلى معاوية فمنه وعده فأبى علي ذلك وقال والله لا كان هذا أبدا(٢)». وهكذا فقد رفض علي رأي المغيرة ورأي ابن عباس، الأمر الذى دعا المغيرة إلى قبوله رأى علي وتراجعه عن نصيحته ثم خرج إلى مكة والطائف معتزلا(٣).

وعندما شرع الخليفة بتعيين ولاته الجدد شمل التعيين مدينة الطائف فعزل واليها القاسم بن ربيعة الثقفي وعيّن عليها قثم بن العبّاس(٤). فكان أول من عيّن عليها واليا غير ثقفي منذ اسلامها سنة ٩ للهجرة، حيث نصّت المعاهدة، كما مرّ بنا سابقا فى (ص ١٧١ — ١٧٢) على تعيين وال عليها من ثقيف. ولربما أراد الخليفة الجديد، بهذا التعيين، أن يحذّر ثقيفا بعد نصيحة المغيرة وذهابه اليها، بأنها مدينة تابعة للدولة كبقية الولايات الأخرى، وقد تغيرت الأوضاع عما كانت عليه فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يصح شرط أو الزام لتعيين ثقفي. لكننا لم نعثر فى المصادر على مايفيد بأن الخليفة قد وقف موقفا عدائيا من ثقيف خلال فترة ولايته. بل على العكس من ذلك، فاننا نجد عليا قد عيّن زياد بن أبيه وهو من الطائف على خراج وبيت مال البصرة ومستشارا لعبد الله بن عبّاس والي البصرة وطلب منه أن يسمع رأيه(٥). كما يذكر اليعقوبي أن زيادا عين واليا على فارس فى عهد الخليفة الرابع علي بن أبى طالب(٦). كما ولي سعد بن مسعود الثقفي، وهو عم المختار بن أبى عبيد الثقفي ولاية المدائن(٧).

---

(١) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٨٠.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٤٤٠.

(٣) نفس المصدر، ص ٤٥٣.

(٤) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٧٦.
ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٧٧.

(٥) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٥٤٣.

(٦) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ٢٠٤.

(٧) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٥٦٥.

وعندما أثبت زياد مقدرته وكفاءته ووثوقه به عيّنه على فارس وكرمان معا، مما مكن زياد من اخماد ثورة أهل فارس وأعادهم إلى تأدية خراج الدولة(١).

ويذكر الدينوري أن الثقفيين في البصرة حاربوا بجانب طلحة والزبير في معركة الجمل، ويضيف بأن الخليفة عقد لقيس وعبس وذبيان راية ولي عليها سعد بن مسعود الثقفي، عم المختار ضد الثائرين في البصرة(٢). بينما تذكر المصادر الأخرى أن ثقيفا لم تحضر موقعة الجمل، وأن زياد بن أبيه ونافع بن الأزرق وعبد الرحمن بن أبي بكرة لم يبايعوا عليا إلا بعد معركة الجمل وانهم ظلوا معتكفين في منازلهم(٣).

في الواقع يصعب التفريق بين المؤيدين والمعارضين من أبناء القبيلة الواحدة في مثل تلك المواقف، كما يصعب الاقرار أيضا بما جاء به الطبري وابن كثير إذ أن اعتزال أفراد من قبيلة لا يمثل ثقيف البصرة كلها.

لم يبق لنا سوى موقفها من الصراع بين علي ومعاوية، حيث طالب معاوية بالثأر من قتلة عثمان ممثلا للعصبية القبلية، لأنه ليس من حق معاوية من الناحية القانونية المطالبة بثأر الخليفة المقتول، فمثل هذه المطالبة ومثل هذا الحق هو من اختصاص الدولة. فعهد الأخذ بالثأر انتهى بمجيء الإسلام وقيام دولته، لكن مطالبة معاوية كانت مطالبة سياسية أكثر منها مطالبة بدم قتيل حيث توضح ذلك فيما بعد. وحتى في هذا النزاع بقيت ثقيف محايدة، فقد نصح المغيرة الخليفة، كما بيّنا سابقا، ثم اعتزل وقرر الذهاب لمدينة الطائف كما انه لم يحضر التحكيم الذى جرى في صفين بين جماعة علي ومعاوية(٤).

لقد لعب المغيرة دورا مهما خلال فترة الخلافة للراشدين واستمر هذا الدور في خلال الصراع بين علي ومعاوية كما أسلفنا. ثم مع معاوية ومن أحسن ما قدم

(١) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٣٧.
(٢) الدينوري : الأخبار الطوال، ص ١٤٦ — ١٤٧.
(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٥٤٣.
ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٧، ص ٢٤٦.
(٤) المسعودي : مروج الذهب، ص ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٧٣.

لمعاوية هو استمالة زياد بن أبيه إليه، وكان هذا النجاح من أعظم ما قدمه لمعاوية فى خدمته(١)، كان زياد شوكة فى جنب معاوية كما كان من الصعب على معاوية أن يصل إليه أو يوفق إلى اخضاعه(٢). ومن خدماته لمعاوية مفاوضته للحسن بن علي ونجاحه فى هذه المفاوضة لصالح معاوية مما حدا به إلى تعيينه واليا على الكوفة سنة ٤١ للهجرة وبقي فيها حتى مات، وهذا ما بيّناه سابقا.

أما زياد بن أبيه فقد امتاز بذكاء القلب وسعة الحيلة وحزم الأمور وحدّة اللسان وشدّته وميل إلى العنف بلغ حدّ الطغيان، وقد ظهرت فيه هذه الخصال منذ شبابه. وقد فطن معاوية إلى هذا الرجل الذى استعان به الخليفة الرابع وجعله مستشارا لأحد ولاته فى البصرة وواليا لخراج بيت المال فى فارس ثم استعان به على اخماد ثورة هناك فأحسن البلاء ووفق إلى ما أراد وبقي وفيا لعلي حتى النهاية، وهذه عادة الثقفيين أن يكونوا مع السلطة حتى النهاية، وبذلك استماله إليه واستلحقه بنسبه بعد أن أشهد أناسا من المسلمين أنه ابن أبي سفيان(٣). وأرسل إليه معاوية كتاب الأمان فسار إليه وسلّمه مالديه من خراج فارس. ومن الأسباب التى مكنت لمعاوية فى الملك وبسطت له السلطان ما وفّق إليه من حسن اختيار الرجال والولاة أمثال المغيرة وزياد الذى كانت الناحية الادارية ظاهرة البراعة فى أعماله.

لكن بعد التحكيم وكيف أن كفة معاوية أخذت بالرجحان، اتجهت ثقيف، كعادتها صوب المنتصر، وبمقتل الخليفة على يد أحد الخوارج قوى مركز معاوية، فمالت ثقيف نحوه. ونرى أن معاوية يكلف المغيرة بن شعبة نائبا عنه فى مفاوضات الصلح مع الحسن والتى انتهت لصالحه، وبعد أن أدركت ثقيف أن النصر بات للأمويين اتجهت بشكل واضح وصريح نحوهم، وهكذا ظلت،

---

(١) عمر أبو النصر : معاوية وعصره، ص ٩٧ وما بعدها.

(٢) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ٢١٨.

(٣) عمر أبو النصر : معاوية وعصره، ص ٩٧ وما بعدها.
البلاذري : أنساب الأشراف، ج ١، ص ٤٩٤ وما بعدها.
اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ٢١٨.

كعادتها، تمسك بالعصا من الوسط، تميل حيث يميل الثقل والغلبة، وبذلك لم تنحز لا إلى الخوارج ولا إلى التيار العصبي، بل انحازت نحو الأمويين وبقيت معهم حتى النهاية.



الخــاتمة
عرض عام لأهــم نتائج الدراسة

بعد أن انتهينا من التحدّث عن مدينة الطائف وقبيلتها ثقيف وأهميتها من حيث الموقع والسكان، وأحوالها المختلفة فى العصر الجاهلي الأخير وعصر الرسول والخلفاء الراشدين، لا نستطيع أن نختتم هذه الدراسة دون أن نستعرض أهم نتائجها التى توصّلنا إليها.

١ — تعتبر الطائف إحدى المدن العريقة فى اقليم الحجاز، غرب الجزيرة العربية وإن موقعها المرتفع الحصين فوق جبل غزوان قد هيّأ لها منعة طبيعية ساعدتها على صدّ الهجمات الخارجية، وزاد من اعتزاز أهلها بها. كما أن ارتفاعها ساعد على اعتدال مناخها، حتى وصفت بأنها قطعة من أرض الشام. لذا أصبحت مصيفا كبيرا لأغنياء مكة وموسريها والمناطق الأخرى فى شبه الجزيرة العربية. زد على موقعها أرضها الخصبة المنتجة للمزروعات المتنوعة واشتغال أهلها بالتجارة والصناعة أدى إلى ظهور الازدهار الاقتصادي فيها، هذا الازدهار الذى كانت مادته منتجاتها الزراعية الثلاث الرئيسية: القمح والزبيب والخشب، المواد التى باتت منذ ذلك الوقت لوازم لا يستغنى عنها، مما أتاح لها أن تتبوّأ هذه المكانة الممتازة بين مدن الحجاز الأخرى. بالاضافة إلى صلات أهلها القوية بالبلاد الخارجية كفارس والشام واليمن وغيرها من المناطق المجاورة. هذا بالاضافة إلى مكانتها الاستراتيجية والدينية والتاريخية مما هيّأ لها مركزا سياسيا مرموقا وأهلها لكي تلعب دورا ساسياً كبيراً فى مستقبل الجزيرة العربية.

٢ — أما من الناحية السكانية، فقد سكنتها من الأمم البائدة بنو مهلائيل بن قينان وبنو عبد بن ضخم وهي من عبس الأول ثم عدوان التى ظلت بها حتى غلبهم عليها بنو عامر بن صعصعة وثقيف، واستطاعت ثقيف أخيرا أن تستقل بها وتحافظ عليها، وهذا الاستقلال لم يخل من قيام علاقات بين هذه القبيلة والقبائل والتجمّعات البشرية الأخرى، رغبة فى تحقيق مصالح كل منها

ومحافظة على النفس، وفى النهاية تطوّرت هذه العلاقة بعد قيام الأسواق التجارية فى شبه الجزيرة العربية، هذه الأسواق التى ساهمت فى توفير مستلزمات الحياة الاجتماعية وزادت من قيمتها الاقتصادية بالاضافة إلى أن التجمع العربي فى الأسواق أدى إلى الالتقاء على لهجة واحدة يفهمها الجميع وبها نزل القرآن الكريم بعد ذلك، وبذلك سمت لغتهم ونمت وتطوّرت.

٣ — ومن الناحية الاقتصادية، فوقعها الهام وسط منطقة تحيط بها القبائل من جهات مختلفة، ومنتجاتها الزراعية والصناعية المتعددة وفرّت لها مادة الأسواق، فنشأت فيها أو بقربها مثل عكاظ ومجنة وذا المجاز، هذه الأسواق التى وفّرت لها فى الأشهر الحرم أمانا عاما واطمئنانا كبيرا جعلاها تصبح معرضا عاما فى الجاهلية، حيث مكنها فى النهاية من أن تحتلّ مكانة مرموقة حسدها عليها العرب، وأولهم مكة التى مدّت اليها النفوذ فى النهاية، مستثمرة رؤوس أموالها فى زراعتها وتجاراتها، مما مكنها فى النهاية من انشاء أفضل العلاقات معها. هذا بالاضافة إلى أهمية سيطرتها على طريق الشام — اليمن المار بالحجاز آنذاك.

٤— أما علاقات ثقيف مع القبائل العربية الأخرى، فقد امتازت بميزتين رئيسيتين أولاهما العلاقات السلمية، وثانيتها العلاقات وقت الحرب، ففى وقت السلم امتازت هذه العلاقات بظاهرة الصلات الاجتماعية البحتة مثل المصاهرات والقربى والاجارة، وهذه الصلة واضحة تماما بين ثقيف وقريش والتى أدت إلى قيام المحالفات فيما بينهما. أما وقت الحرب، فالعلاقات تخضع لحل المنازعات باستخدام القوة وفرض الغالب سلطاته على المغلوب لتحقيق أهدافه وأغراضه.

٥ — ولثقيف علاقات مع العالم الخارجي، وخاصة مع فارس والروم، فاننا نجد أن الأحلاف اتجهوا نحو فارس وصنعوا معها أمتن وأوثق العلاقات، بينما اتجه بنو مالك نحو الشام ومصر ولقوا الاهتمام والرعاية هناك. والحقيقة أن الصراع بين الامبراطوريتين الفارسية والرومانية هو الذى انعكس على المتصارعين فى الطائف لكسب ومدّ النفوذ إلى داخل شبه جزيرة العرب، فقد كان كل منهم يرغب رغبة شديدة فى ذلك.

٦ — أما الناحية الدينية، فان الطائف شهدت عبادة الآلهة منذ القدم، وقد

تشابهت مع مكة فى الناحية الدينية وان اللات فى الطائف كان لها شهرة واسعة بين العرب الشماليين وعرب الحجاز، ولها معابد كثيرة فى مواضع عديدة، ولربما يكون للناحية الدينية دور فى توطيد العلاقات بين قريش وثقيف، باعتبار كل منهما يمثل مكانا دينيا مهمّا، ومن الجائز أيضا أن يكون التنافس بينهما شديدا حول هذه المكانة الدينية المرموقة عند العرب، باعتبارها تمثل مصدرا لحياتهم الاقتصادية.

٧ — لقد كانت رغبة الرسول صلى الله عليه وسلم شديدة فى ضم الطائف إلى جانبه كمدينة منافسة لمكة، لما كان يدركه من أهمية موقعها وقوة رجالها وأهمية اقتصادها إلا أن الطائف كانت تأمل أن تكون النبوة فيها. لذا وقفت من الدعوة موقفا سلبيا واضحا منذ البداية، وقد اتضح ذلك أكثر بعد فتح مكة، طمعا فى تزعّم الحجاز والسيطرة عليه اقتصاديا وسياسيا ودينيا. لذا تصدّت للرسول صلى الله عليه وسلم بكل ما أوتيت من قوة، أملا فى السيطرة وقهرا لشوكة الدولة الجديدة إلى أن انتهى الأمر بالتسليم بالأمر الواقع ودخول الإسلام طواعية وعقد معاهدة مع الرسول بهذا الخصوص.

٨ — بعد دخول القبيلة الإسلام، اشتركت اشتراكا فعليا فى دعم وتثبيت دعائم الدولة الإسلامية والمشاركة فى القضاء على المناوئين والمرتدين، وساهمت فى وقت كان الإسلام بأشد الحاجة لمساهمتها، حيث كانت الاخطار تتهدده وأصبح مقصوراً على مدن الحجاز الثلاث: مكة والمدينة والطائف. هذا الموقف الايجابي لثقيف قد برهن للعرب على حسن ظن الرسول بها وان مامنحها من امتيازات فى معاهدته معها كان حقا تستحقه كل الاستحقاق، بالاضافة إلى بعد نظر الرسول بها منذ البداية. وبذلك أزالت حسد المسلمين لها وشكوكهم التى ساورتهم بها، وبهذه الوقفة أتاحت لرجالها الفرصة وفتحت لهم الطرق للوصول إلى المراكز الحسّاسة فى الدولة، مما مكّنهم أن يلعبوا دورا بارزا فيها.

٩ — أما فى حركة الفتوح الاسلامية الكبرى، فقد ساهمت هذه القبيلة برجالها الأشدّاء وظل قوادها يعملون على تدعيم الحكم الاسلامي فى البلاد المفتوحة من أمثال أبى عبيد الثقفي والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبى سفيان وعثمان بن أبى العاص وكثير غيرهم.

١٠– أما موقف ثقيف من الصراع على السلطة فقد اتسم بالحياد، فقد بايعت ثقيف الخليفة عثمان – رضي الله عنه – بعد مبايعة المدينة له، وفى محنة الفتنة ضدّ الخليفة ابتعدت ثقيف عن معترك الأحداث، منتظرة ما تسفر عنه النهاية، لتكون مع المنتصر. وفى مبايعة الخليفة الرابع علي بن أبى طالب لم نجد لثقيف ما يوحي بأنها عارضت البيعة أو وقفت ضدها، وبالنزاع بين علي ومعاوية وقفت موقفا حياديا واضحا، لكن بعد مقتل الخليفة الرابع وظهور قوة معاوية، أيقنت ثقيف بأن النصر بات له وشيكا فاتجهت نحوه، وهكذا ظلت – كعادتها – تمسك بالعصا من الوسط وتميل حيث يميل الثقل، فلم تنحز لا إلى الخوارج ولا إلى التيار القبلى، بل انحازت نحو الأمويين وبقيت معهم حتى النهاية.

* * *

فهرس الموضوعات

الباب الثاني

الباب الثالث

المخطوطات والمصادر والمراجع

المخطوطات والمصادر والمراجع

أولا : المخطوطات

١- **ابن عراق :** على بن محمد بن علي بن عبد الرحمن بن عراق الكناني، (ت ٩٦٣هـ).
نشر اللطائف فى قطر الطائف – مخطوطة بمكتبة وزارة الأوقاف العراقية ببغداد تحت رقم ٤٧٩٦تاريخ.

٢ – **الميورقي :** أبو العبّاس أحمد بن علي بن أبى بكر بن عيسى بن محمد ابن زياد العيدري الميورقي (ت ٦٧٨هـ).
بهجة البهج فى بعض فضائل الطائف ووج – مخطوطة بمكتبة وزارة الأوقاف العراقية ببغداد تحت رقم ٤٧٩٦ تاريخ.

ثانيا ـ المصادر العربية

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ كتب الحديث .

(أ) **البخاري :** أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن المغيرة الجعفي كتاب صحيح البخاري ـ دار مطابع الشعب.

(ب) مسلم : الامام الحافظ أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشات النيسابوري.
الجامع الصحيح ـ كتاب صحيح مسلم: من منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر ـ بيروت. ٤ أجزاء.

٣ ـ ابن الأثير : (ت ٦٣٠ هـ).
الامام عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري.
الكامل فى التاريخ ـ دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٥.
أسد الغابة فى معرفة أحوال الصحابة ـ نشر المكتبة الاسلامية.

٤ ـ ابن ابى أصيبعة : (ت ٦٦٧ هـ) أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم ابن خليفة الخزرجي.
عيون الأنباء فى طبقات الأطباء .
تحقيق : الدكتور نزار رضا ـ بيروت، ١٩٦٥.
طبعة دار الفكر ـ بيروت، ١٩٥٦.

٥ ـ ابن جلجل : أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جلجل.
طبقات الأطباء والحكماء

تحقيق : فؤاد الأمير – مطبعة الآثار الشرقية القاهرة، ١٩٥٥.
٦ – **ابن حبيب** : (ت ٢٤٥هـ): أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية ابن عمر البغدادي.
كتاب المحبر – مطبعة دار المعارق العثمانية، ١٩٤٢.
٧ – **ابن حجر** : (ت ٨٥٢هـ) شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.
الاصابة فى تمييز الصحابة وبهامشه الاستيعاب فى معرفة الأصحاب.
طبعة مكتبة المثنى – بغداد.
٨ – **ابن حزم** : (٤٥٦هـ) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي.
جمهرة أنساب العرب – تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة دار المعارف بمصر، ١٩٦٤.
جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى – دار المعارف المصرية القاهرة.
الفصل فى الملل والأهواء والنحل – القاهرعة ١٣١٧هـ.
٩ – **ابن حوقل** : (ت ٣٦٧هـ) أبو القاسم بن حوقل النصيبي.
كتاب صورة الأرض – مطبعة بريل – مدينة ليدن، ١٩٣٨.
١٠ – **ابن خرداذبة** : (ت ٢٨٠) أبو القاسم عبيد بن عبد الله.
كتاب المسالك والممالك – مصور طبعة ليدن ١٨٨٩م.
١١ – **ابن خلدون** : (ت ٨٠٨هـ) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون.
العبر وديوان المبتدأ والخبر – طبعة المغرب ١٩٣٦.
المقدمة – الطبعة الثانية – مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٦٥.
١٢ – **ابن دريد** : (ت ٣٢١هـ) أبو بكر بن محمد بن الحسن.
كتاب الإشتقاق – تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٥٨.
١٣ – **ابن دقاق** : ابراهيم بن محمد الشهير بابن دقاق.
كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار – مركز الموسوعات العالمية – بيروت.
١٤ – **ابن رستة** : (ت ٣٠١هـ) أبو علي أحمد بن عمر.
كتاب الأعلاق النفسية – مصور طبعة ليدن، ١٨٩١م.

١٥ — **ابن سعد :** (ت ٢٣٠هـ): أبو عبد الله محمد.
الطبقات الكبرى — طبعة بيروت، ١٩٦٠.

١٦ — **ابن الطقطقا :** (ت ٧٠٩هـ): محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا.
الفخري فى الآداب السلطانية — مطبعة دار بيروت للطباعة والنشر.

١٧ — **ابن عبد البر :** (ت ٤٦٣هـ): أبو عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر.
الانباه على قبائل الرواة، طبعة القاهرة، ١٣٥٠هـ.

١٨ — **ابن عبد ربه :** (ت ٣٤٩هـ): أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي.
العقد الفريد، طبعة القاهرة، ١٩٦٧.
دار صادر — طبعة بيروت.

١٩ — **ابن عبد الحكم :** (ت ٢٥٧هـ): أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم القرشي.
فتوح مصر والمغرب — تحقيق عبد المنعم ماجد — مطبعة لجنة البيان العربي.

٢٠ — **ابن قتيبة :** (ت ٢٧٦هـ): أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري .
عيون الأخبار — القاهرة، ١٩٦٣.
كتاب المعارف — تحقيق ثروت عكاشة — طبعة دار الكتب القاهرية ١٩٦٠، ١٩٦٩.

٢١ — **ابن قيم الجوزية :** (ت ٧٥١هـ): شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر الدمشقي الحنبلي.
زاد المعاد فى هدى خير العباد — القاهرة، ١٩٧٠.

٢٢ — **ابن كثير :** (ت ٧٧٤هـ): الامام أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي.
كتاب تفسير القرآن العظيم — مطبعة دار احياء الكتب العربية.
كتاب البداية والنهاية — بيروت ١٩٦٦، طبعة القاهرة ١٩٥٣.

٢٣– ابن الكلبي : (ت ٢٠٤هـ): أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي.
كتاب الاصنام – تحقيق أحمد زكي – مطبعة الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٢٤.

٢٤ – ابن المجاور : (ت ٦٩٠هـ): أبو الفتح جمال الدين يوسف بن محمد الشيباني الدمشقي.
صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى تاريخ المستبصر – ليدن، ١٩٥١.

٢٥ – مسكويه : (ت ٤٢١هـ): أبو علي أحمد بن محمد.
كتاب تجارب الأمم – طبع سنة ١٩١٩.

٢٦ – ابن منظور : (ت ٧١١هـ): أبو الفضل جمال الدين بن مكرم بن علي.
لسان العرب : اعداد وتصنيف يوسف خيّاط.

٢٧ – ابن هشام : (ت ٢١٨هـ): أبو محمد عبد الملك بن هشام.
كتاب سيرة رسول الله، مجلدان يحويان ٤ أجزاء.تحقيق مصطفى السقا ورفاقه.
مطبعة البابي الحلبي المصرية، ١٩٥٥.

٢٨ – أبو عبيد : (ت ٢٢٤هـ): القاسم بن سلام.
كتاب الأموال – المطبعة التجارية الكبرى ١٣٥٣.وكذلك طبعة الأزهر، ١٩٦٨.

١٩ – أبو الفرج الأصفهاني : (ت ٣٥٦هـ): علي بن الحسين بن محمد الأموي.
كتاب الأغاني – تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج – دار الثقافة، بيروت ١٩٦٠.
– طبعة الارشاد المصرية .
– طبعة الساسي بمصر .

٣٠ – الادريسي : (ت ٣٤٩هـ): الشريف الادريسي.
كتاب نزهة المشتاق – تحقيق ابراهيم شوكت
مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٧١.

٣١ ـ **الأزرقي** : (ت ٢٥٠هـ): أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي.
أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار.
مطبعة دار الأندلس، ١٩٦٩، وطبعة مكة ١٩٦٥.

٣٢ ـ **الاصطخري** : (ت ٣٤٦هـ): ابن اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري.
كتاب المسالك والممالك ـ تحقيق محمد جابر عبد العال مطبعة الارشاد المصرية،١٩٦١.
كتاب الأقاليم ـ مخطوط مكتبة الأوقاف العامة ـ بغداد.

٣٣ ـ **البكري** : (ت ٤٨٧هـ): أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي.
معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع.
مطبعة لجنة التأليف والنشر المصرية، ١٩٤٩.

٣٤ ـ **البلاذري** : (ت ٢٧٩هـ):أحمد بن يحيى بن جابر.
كتاب فتوح البدان ـ تحقيق صلاح الدين المنجّد.
مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦.
مطبعة الموسوعات، ١٩٠١.
كتاب أنساب الأشراف ـ مكتبة دار المعارف المصرية، ١٩٦٤.

٣٥ ـ **الديار بكري** : حسين بن محمد بن الحسن.
تاريخ الخميس ـ المطبعة الوهبية ـ القاهرة.

٣٦ ـ **الذهبي** : (ت ٧٤٨هـ): شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان سير اعلام النبلاء، المسمى تاريخ الذهبي
طبعة دار المعارف المصرية، ١٩٦٢.

٣٧ ـ **الدينوري** : (ت ٢٨٢هـ): أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري.
الأخبار الطوال ـ تحقيق عبد المنعم ماجد.
وزارة الثقافة والارشاد المصرية، ١٩٦٠.

٣٨ ـ **الزبيدي** : (ت ١٢٠٥هـ): محمد مرتضى الحسيني.
تاج العروس من جواهر القاموس ـ مطبعة حكومة الكويت.

٣٩ ـ **الزبيري** : (ت ٢٣٣ — ٢٣٦هـ) :
أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري
كتاب نسب قريش.
مطبعة دار المعارف للطباعة والنشر.

٤٠ ـ **الزوزني** : الامام أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني.
شرح المعلّقات السبع — تقديم عمر أبو النصر
منشورات مكتبة دار الحياة — بيروت.

٤١ ـ **السهيلي** : (ت ٥٨١هـ): أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن أحمد بن أبى الحسن الخثعمي.
الروض الأنف — مكتبة الكليات الأزهرية — شركة الطباعة الفنية، ١٩٧١.

٤٢ ـ **الشهرستاني** :(ت ٥٤٨هـ): أبو الفتح محمد بن عبد الكريم.
الملل والنحل — ٥ أجزاء، القاهرة ١٣١٧هـ.

٤٣ ـ **تاريخ الطبري** :(ت ٣١٠هـ): أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.
تاريخ الرسل والملوك — تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم دار المعارف بمصر، ١٩٦١.

٤٤ ـ **العجيمي** :(ت ١١١٣هـ): حسن بن علي بن يحيى.
اهداء اللطائف من أخبار الطائف. ط ٢ دار ثقيف للنشر والتأليف، الطائف ١٤٠٠هـ.

٤٥ ـ **القزويني** : (ت ٦٨٢هـ): زكريا بن محمد بن محمود القزويني.
آثار البلاد وأخبار العباد.
دار صادر — بيروت ١٩٦٠.

٤٦ ـ **القلقشندي** :(ت ٨٢١هـ): أبو العبّاس أحمد القلقشندي.
نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب — الشركة العربية للطباعة، ١٩٥٩.
صبح الأعشى فى صناعة الانشا — القاهرة ١٩٦٣.

٤٧ ـ **الكندي** : (ت ٣٥٠هـ): أبو عمر محمد بن يوسف.
كتاب الولاة والقضاة — نشر روفى جست.

٤٨ ـ **الماوردي** :(ت ٤٥٠هـ): أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب.
الأحكام السلطانية والولايات الدينية ــ مطبعة البابي الحلبي ــ القاهرة، ١٩٦٦.

٤٩ ـ **المبرّد** :(ت ٣٨٥هـ): أبو العباس محمد بن يزيد النحوي.
كتاب الكامل. جزءان. القاهرة ١٣٢٣هـ.

٥٠ ـ **المسعودي** :(ت ٣٤٦هـ)، أبو الحسن على المسعودي.
مروج الذهب ومعادن الجوهر ــ دار التحرير، القاهرة ١٩٦٩وكذلك طبعة د ار الأندلس ــ بيروت، ١٩٦٥.

٥١ ـ **المقدسي** :(ت ٣٨٠هـ): أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن أبى بكر.
كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ــ مصور طبعة ليدن ــ مطبعة بريل ١٩٠٩.

٥٢ ـ **النويري** : (ت ٧٤٢هـ): شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري.
نهاية الأرب فى فنون الأدب ــ طبعة الارشاد المصرية.

٥٣ ـ **الهمداني** :(ت ٣٣٤هـ): أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود الهمداني.
كتاب صفة جزيرة العرب.
تحقيق محمد بن عبد الله بن بلهيد النجدي.
مطبعة السعادة المصرية، ١٩٥٣.

٥٤ـ **الواقدي** : (ت ٢٠٧هـ): محمد بن عمر بن واقد.
كتاب المغازي ــ تحقيق مارسدن جونس ــ مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٦٦.
كتاب فتوح الشام ــ الطبعة الرابعة ــ مكتبة الحلبي، ١٩٦٦.

٥٥ ـ **ياقوت** : (ت ٦٢٦هـ)، شهاب الدين أبو عبد الله.
كتاب معجم البلدان ــ نشر دار صادر ــ بيروت ١٩٥٧.

٥٦ ــ **اليعقوبي** :(ت ٢٨٤هـ)،أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف باليعقوبي.
كتاب تاريخ اليعقوبي.
دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٠.

ثالثا ـ المراجع العربية

١ ـ **ابراهيم:** محمد أبو الفضل ابراهيم، وعلي محمد البجاوي.
أيام العرب فى الجاهلية ـ الطبعة الأولى ـ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة، ١٩٥٠.

٢ ـ **الأسد** : ناصر الدين الأسد (دكتور).
مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ـ مطبعة المعارف المصرية، ١٩٥٥.

٣ ـ **الأفغاني** : سعيد الأفغاني.
أسواق العرب فى الجاهلية والاسلام ـ مطبعة دار الفكر بدمشق، ١٩٦٠.

٤ ـ **الألوسي** : السيد محمد شكرى الألوسي.
بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، القاهرة ١٩٢٤.

٥ ـ **أمين** : أحمد أمين.
فجر الاسلام ـ طبعة القاهرة، ١٩٥٥.

٦ ـ **حتى** : فيليب حتى (دكتور).
تاريخ العرب المطوّل (جزءان) نشر دار الكشاف للطباعة ١٩٦٥.

٧ ـ **الحديثي** : نزار عبد اللطيف الحديثي (دكتور).
اليمامة وردة مسيلمة ـ رسالة ماجستير ١٩٧١، جامعة بغداد.

٨ ـ حسن ابراهيم حسن (دكتور).
تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ـ الطبعة السابعة ـ مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤.

٩ ــ **حسين** : طه حسين (دكتور).
اسلاميات ــ مطبعة دار الأدب ١٩٦٧.
كتاب الفتنة الكبرى ــ الجزء الأول ــ مطبعة دار المعارف ١٩٥٣.

١٠ ــ **خميس** : عبد الله بن محمد بن خميس.
المجاز بين اليمامة والحجاز، مطبعة دار اليمامة السعودية، ١٩٧٠.

١١ ــ **خورشيد** : عبد الله خورشيد.
القبائل العربية فى مصر ــ طبعة القاهرة، ١٩٦٧.

١٢ ــ **دروزة** : محمد عزة دروزة.
سيرة الرسول ــ مطبعة الاستقامة المصرية، ١٩٤٨.

١٣ ــ **الزركلي** : خير الدين الزركلي.
معجم الاعلام ــ الطبعة الثالثة ــ بيروت، ١٩٦٩.
ما رأيت وما سمعت ــ الرحلة ــ المطبعة العربية المصرية سنة ١٩٢٣.

١٤ ــ **الزواوي** : طاهر أحمد الزواوي.
ترتيب القاموس المحيط على طريقة الصباح المنير ــ مطبعة الاستقامة القاهرية ١٩٥٩.

١٥ ــ **زيدان** : جرجي زيدان.
العرب قبل الاسلام: ــ القاهرة ١٩٦٣.

١٦ ــ **سالم** : عبد العزيز سالم (دكتور).
تاريخ العرب فى العصر الجاهلي حتى قيام الدولة الأموية. مطبعة دارالنهضة العربية، ١٩٧١.

١٧ ــ **سعداوي** : نظير حسّان سعداوي (دكتور).
تاريخ الحضارة الاسلامية ــ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠.

١٨ ــ **الشريف** : أحمد ابراهيم الشريف (دكتور).
دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة فى القرنين الأول والثاني للهجرة ــ مطبعة دار الفكر العربي، ١٩٦٨.
مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول ــ الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٧.

١٩ ــ **شلبي** : أحمد شلبي (دكتور).
تاريخ الحضارة الاسلامية ــ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠.
٢٠ ــ **الطنطاوي** : علي وناجي الطنطاوي.
أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر.
دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٧٠.
٢١ ــ **عاقل** : نبيه عاقل (دكتور).
سلسلة تاريخ العرب والاسلام ــ تاريخ العرب القديم وعصر الرسول.
٢٢ ــ **عزّام** : عبد الوهاب عزّام (دكتور).
كتاب الرحلة ــ مطبعة الرسالة، القاهرة ــ ١٩٥١.
٢٣ ــ **علي** :جواد علي (دكتور).
تاريخ العرب قبل الاسلام ــ مطبعة التفيض ــ بغداد، ١٩٥٠.
المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ــ طبعة بيروت.
٢٤ ــ **العلي** : صالح أحمد العلي (دكتور).
محاضرات فى تاريخ العرب ــ مطبعة الارشاد العراقية، ١٩٦٨.
التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة ــ طبعة دار الطليعة ــ بيروت، ١٩٦٩.
٢٥ ــ **العمد** : احسان صدقي العمد.
الحجاج بن يوسف الثقفي: حياته وآراؤه السياسية، دار الثقافة ــ بيروت، ١٩٧٣.
٢٦ ــ **الغلاس** : عبد المنعم الغلاس.
جغرافية جزيرة العرب ــ دار منشورات البصري، ١٩٦٢.
٢٧ ــ **كحّالة** : عمر رضا كحّالة.
معجم قبائل العرب ــ مطبعة دار العلم للملايين ١٩٦٨.
جغرافية شبه جزيرة العرب ــ مطبعة الترقي ــ دمشق، ١٩٤٥.
٢٨ ــ **كمال** : أحمد عادل كمال.
الطريق إلى المدائن ــ مطبعة دار النفائس ــ بيروت ١٩٧٢.

٢٩ ــ **ماجد** : عبد المنعم ماجد.
التاريخ السياسي للدولة العربية ــ عصور الجاهلية والنبوّة والخلفاء الراشدين ــ مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٥.
٣٠ ــ **محمد** : محمد حميد الله محمد.
مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة. دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع ــ الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٦٩.
٣١ ــ **نافع** : محمد مبروك نافع.
عصر ما قبل الإسلام ــ مطبعة السعادة المصرية، ١٩٥٢.
٣٢ ــ **النص** : احسان النص (دكتور).
العصبية القبلية وأثرها فى الشعر الأموي ــ بيروت ١٩٦٤.
٣٣ ــ **النصر** : عمر أبو النصر.
الحضارة الأموية العربية فى دمشق ــ بيروت، ١٩٤٨.
٣٤ ــ **هيكل** : محمد حسين هيكل (دكتور).
حياة محمد ــ مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٣.
الصدّيق أبو بكر ــ المطبعة المصرية، ١٩٦٨.
منزل الوحي ــ مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٥٦هـ.
٣٥ ــ **ولفنستون** : اسرائيل ولفنستون (دكتور).
تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية والاسلام ــ مطبعة الاعتماد المصرية ١٩٢٧.

رابعا — المراجع الأجنبية المترجمة للعربية

١ ـ **أوليرى :** مسالك الثقافة الاغريقية إلى العرب — نقله إلى العربية د. تمام حسان — مكتبة الأنجلو المصرية.

٢ ـ **بروكلمان :** كارل بروكلمان.
تاريخ الشعوب الاسلامية — مطبعة دار العلم للملايين، ١٩٥٣.

٣ ـ **جب :** هاملتون جب.
دراسات فى حضارة الاسلام — ترجمة : احسان عباس وآخرين. بيروت، ١٩٦٤.

٤ ـ **جلوب :** جون باجود جلوب.
الفتوحات العربية الكبرى — تعريب وتحقيق: خيرى حمّاد.

٥ ـ **دائرة المعارف الاسلامية :** تصدير وترجمة عبد الحميد يونس وأحمد الشنتاوي، مطبعة المعارف، بيروت ١٨٨٢.

٦ ـ **سيديو :** تاريخ العرب العام.
نقله للعربية عادل زعيتر — مطبعة الحلبي — القاهرة ١٩٦٩.

٧ ـ **فلهوزن :** يوليوس فلهوزن.
تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام إلى نهاية الدولة الأموية.
ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة ـ الطبعة الثانية. القاهرة، ١٩٦٨.

٨ ـ **وات :** مونتجمري وات.
محمّد فى مكّة. تعريب : شعبان بركات ـ المكتبة المصرية، ١٩٥٢.

خامسا — المجلات العربية

١ ــ مجلة العرب :

دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، سنة ١٩٦٨.

٢ ــ مجلة العربي [الكويتية] :

العدد (٢٣) — مطبعة حكومة الكويت، سنة ١٩٦٠.

٣ ــ مجلة كلية الآداب :

العدد (١٤) — المجلد الأول والثاني ١٩٧٠ — ١٩٧١ — جامعة بغداد.

٤ ــ مجلة المشرق :

المطبعة الكاثوليكية — الجزء (٢٩)، سنة ١٩٢٢.

سادسا — المراجع الأوروبية

1. LAMMENS
   LA CITE ARABE DE TAIF ALA VEILLE DE L'HEIGIRE 1922.

2. WATT - W. Montogomery Watt.
   Muhammad at Medina - Oxford - At the Calrendon - Press first published - (1956).

3. ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM (New Edition)

4. HISTORICAL ATLAS OF THE MUSLIM PEOPLE.